غزوات الرسول

بين

شعراء الشعوب الإسلامية

دراسة فى الأدب الإسلامى المقارن

د. حسين مجيب المصرى

الدار الثقافية للنشر

عنوان الكتاب: غزوات الرسول Ghasawat Al- Rasoul

اسم المؤلف: د. حسين مجيب المصرى Dr. Husein Mogeib Al- Massry

١٧×٢٤سم. ٢١٥ص. 17x24 cm. 215p

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٩٩/٢٢٨٧

الترقيم الدولى: ISBN: 977-5875-69-2

اسم الناشر: **الدار الثقافية للنشر**

اسم المطبعة: المطبعة العصرية – بيروت

الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠ م



الدار الثقافية للنشر القاهرة

ص.ب١٣٤ بانوراما أكتوبر–هاتف وفاكس ٤٠٢٧١٥٧

email: sales@thakafia.com

Website: www.thakafia.com

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى من كان أهل إيمان ويقين، وفطن ما للجهاد من مكان بين أصول الدين، وذكر أنه ﷺ ضرب فى الجهاد المثل الأعلى، وقدم الأسوة الحسنى، فغبط المجاهدين على حسن مثوبتهم عند رب العالمين.

تقدمة

من الحق أن المغازى لها ما لها من صدارة وعلوية فى السيرة النبوية على الأخص، ولا يخفى ما لها من مرموق الأهمية فى تاريخ الإسلام على الأعم، وما ذاك إلا أن التصدى لها بالذكر يورد على الخاطر صورا صادقة ناطقة عن نفسية وواقعية المسلمين الذين عمرت قلوبهم بالإيمان واليقين، كما أنها المثال الأمثل للجهاد فى سبيل الله الذى هو بغية المتقين الذين يعقدون أملهم بالنعيم فى عليين.

وأول ما يقال فى هذا الصدد خاصا بالجهاد وعظيم فضله أنه يعد ركنا سادسا من أركان الإسلام، ورتبة بين الإيمان بالله ورسوله.

وروى عن أبى هريرة أنه قال سئل النبى ﷺ أى العمل أفضل؟ قال: إيمان بالله ورسوله، قيل: ثم ماذا. قال الجهاد فى سبيل الله. قيل: ثم ماذا؟ قال: حج مبرور[1]. وهذا واضح الدلالة على أن الجهاد قبل الحج فى الفضل، وهذا ما يدرك من أحاديث شريفة لا تحصى كثرة.

وروى الإمام مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق"[2] وقوله ﷺ قاطع ناصع البرهان على أن الجهاد هو الواجب الأوجب على المسلم، وينبغى أن يحدث نفسه به ويرغبها فيه، على أن ذلك أضعف الإيمان وهذا ما لا تمس الحاجة فيه إلى دليل؛ لأن هذا الجهاد إنما كان فى مطلع الإسلام، شيئا لا غنية عنه للذود عن الدين الحنيف أول ظهور نوره، والوقوف موقف الدفاع من أعداء الدين الحنيف الذين تمنوا أن لم يكن، وكانوا عصبة وكثرة أولى بأس والمسلمون آنذاك قلة، قوتهم فى إيمانهم، والوقوف عند حدود دينهم الذى أمرهم بالجهاد لحماية كيانهم وعقيدتهم من المعتدين الطغاة البغاة.

ولا غرو فإن الدفاع عن النفس مركوز فى طباع الإنسان، وما سوى الإنسان. ولا ملامة على من دفع عن نفسه شرا وخطرا، وأولى بالمؤمن ثم أولى به أن يعد ما استطاع من قوة حفاظا على إيمانه ممن أرادوا به السوء كل السوء والأذى كل الأذى.

---

(١) محمد إسماعيل إبراهيم: الجهاد فى سبيل الإسلام ص٣، ٤ (القاهرة ١٩٦٤م)

(٢) د. عبد الحليم محمود: الجهاد والنصر ص ٢٥ (القاهرة ١٩٧٤م)

فالمجاهد لا يقاتل إلا من بدر إلى قتاله، وعلينا أن نجد حجية لا تحتمل من شك ولا تأويل فيما وقع للنبى ﷺ فى خروجه فى أصحابه معتمرا، فلما نزل بالحديبية قرب مكة صده المشركون عن البيت فانصرف عنها وتلبث بالحديبية شهرا، إلا أنهم صالحوه على أن يرجع من عامه هذا من حيث جاء، على أن يخلوا مكة بعد عام أياما ثلاثة، كما عاهدوه على ألا ينشب قتال بينهم وبينه أعواما عشرة. ورجع ﷺ ثم تجهز لعمرة القضاء بعد عام، إلا أن المسلمين لم يأمنوا غدر الكفار، وأوجسوا فى نفوسهم خيفة. وكرهوا أن يقاتلوا فى الحرم والشهر الحرام، فنزلت تلك الآية الكريمة ﴿وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾. والآية الكريمة ترشد إلى ما يعد غاية الغايات فى السماحة وكرم السجية ورسوخ الإيمان، الذى يفضى بالحتم إلى قوة التحكم فيما جبل عليه الإنسان، وغريزة خاصة فى مثل هذا الموقف العصيب، وبإيضاح ذلك على التقريب إذا ما احتدم الخلاف والتخاصم فى العقيدة بين المؤمنين والمشركين إلى حد أن يلتقوا بسيوفهم، فينبغى للمسلمين عدم المبادرة بالشد بسيوفهم على أعدائهم، بل عليهم أن يقفوا منهم موقف المدافعين. ومعلوم أن العدوان قد يكون ولا يكون، إلا أن مثل هذا الدفاع هو ما يجب أن يفرضوه على أنفسهم فرضا ليكونوا بما أمرت به الآية الكريمة صادعين.

وقال عز من قائل ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ (البقرة ١٩٣).

وهذه الآية تؤيد ما جاء فى الآية السالف ذكرها، وتدور فى معناها وتجاوز ذلك إلى استئصال شأفة لفتنة وكف شرها وما تجر من سوء العاقبة، لأن المشركين وطنوا أكيد العزم على أن يفتنوا المؤمنين عن دينهم ويفسدوا عليهم عقيدتهم، ويبلبلوا خواطرهم، وهذا شر مستطير. وعندئذ يجب أن يسل سيف الحق ليتلقى ضربة سيف الباطل، وفرق أى فرق بين من هم على الحق وبين من هم على الباطل، كما أن الآية تدخل المجاهدين من المؤمنين تحت شرط، فهى تربأ بهم عن أن يتمادوا فى قتالهم فى اتصال ودوام دون معرفة للوقت الذى فيه يغمدون سيوفهم، وتريدهم على أن يكفوا عن القتال إذا انتهى المشركون عن كيدهم ومكرهم. وما أجدر أن يكون الجزاء من جنس العمل، وهذا عين العقل والعدل وما أطيب أن تنبههم إلى أن يكونوا على حذر من صفة المعتدين، وبذا نضفى عليهم صفة المقومين المصلحين وهذه الصفة فيهم أقوى من صفة المقاتلين.

وقال تعالى: ﴿وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا﴾ .

وفى هذه الآية نلتفت إلى رحمة الله - وما أوسعها - لأنه أراد أن يشمل بها المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يبطش بهم بغاة وطغاة يعيثون فى الأرض فسادا، فكأن المؤمنين إذا أخذوا على يد هؤلاء الظالمين أنجوا الضعفة ممن يعسفونهم عسفا شديدا ويسيرون فيهم سيرة الذئب فى الحمل.

وغير شك أن هذه غاية جد شريفة للمجاهدين إذا قاتلوا فهم يسعون إلى الخير والإصلاح وهذا قصاراهم؛ إنهم يغيثون الملهوف، ويأخذون بيد من ظلم وانقطعت به السبل وظل بلا حول ولا طول أمام ظلوم غشوم.

إنهم إذا قاتلوا المشركين وهم على هذا من صفاتهم إنما يأتمرون بأمر ربهم الذى رغبهم فى ذلك بعد أن تضرع إليه هؤلاء المظلومون الذين رفعوا إليه أكف الدعاء وتضرعوا إليه أن يجعل لهم من بديلهم من عدوهم ويكشف عنهم غمتهم.

وقال تعالى: ﴿فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما ﴾.

وتلك الآية صريحة الدلالة على فضل الجهاد والمجاهدين، إن فيها الأمر بالقتال فى سبيل الله، والنص على أن من يقاتل فى سبيل الله هو من اختار على دنياه الفانية أخراه الباقية، ولا عجب فهذا شأن المؤمن الموقن الذى يعلم أن دنياه دار ممر وأخراه دار مقر، وأنه إذا تزود من دنياه لآخرته فقد فاز فوزا عظيما، وكان له عند ربه أجر عظيم، والآية تزيد ذلك إيضاحا وتفسيرا فتقول إن المجاهد سواء قتل أو استشهد أو كانت له الغلبة - أى كانت له إحدى الحسنيين الشهادة أو النصر - فإنما يحتسب عند ربه حسن المثوبة؛ وهذا مما يزيد الجهاد فضلا على فضل بمثل هذا التعميم.

وقال تعالى متجها بالخطاب إلى نبيه عليه الصلاة والسلام:

﴿يأيها النبى حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون. الآن خفف الله

عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين ﴾.

وفى هذا تقنين إلهى للقتال؛ ففيه إشارة إلى المقاتلين الصابرين، وذكر الصبر هنا يدل على كثير، فالصبر لغة هو حبس النفس على مكروه، وهو هنا الثبات، وهذا الثبات هو رسوخ الإيمان فى نفوس المؤمنين الذين يوقنون بأنهم يضطلعون بمهمة يا لها من مهمة، وفى أعناقهم أمانة، حبذا هى من أمانة. ولا ننسى كذلك أن الصبر من مقامات الصوفية وله الدرجة عندهم فالله يقول لنبيه ﷺ إن عشرين ممن جرت عليهم صفة الصبر فى مكنتهم أن يغلبوا مائتين، وهذا نصر من الله وقوة غيبية تمكن المؤمنين الصابرين من أن يوردوا المشركين موارد الهلكة؛ فالله لا ينسى عباده المؤمنين فى قتالهم، بل يؤيدهم بنصره، وهذا لهم لا شك فوز عظيم، كما توضح الآية أن المائة يغلبون ألفا، ثم خفف عن المقاتلين من المؤمنين وقد غمرتهم رحمة الله، فبعد أن كانوا ناشبوا القتال من يربو عددهم على عديدهم بمقدار عشرة أضعاف أصبح الألف منهم يغلبون ألفين أى ضعفهم بإذن الله.

ومن حكيم التقنين للقتال ألا يفر المؤمنون من ساحة الوغى ما لم يكن من يقاتلونهم أكثر من ضعف عددهم، أما إن كان ﷺ معهم فلا يحل لهم فرار.

قال الله فى محكم آياته: ﴿ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير﴾.

وقيل فى تفسير تلك الآية الكريمة ألا يولى المؤمنون أمام الكفار، فإذا لقيت فئة من المؤمنين فئة من المشركين فالفرض ألا يفروا أمامهم، فمن فر من اثنين فهو فار من الزحف، أما من فر من ثلاثة فلا إثم عليه.

والفرار كبيرة موبقة بظاهر القرآن والإجماع من الأئمة، وقال بعض الأئمة من الجائز أن يفر مئة فارس من مئة فارس إذا علموا أن ما عند المشركين من النجدة والبسالة ضعف ما عندهم، أما عند الجمهور فلا يحق فرار مئة إلا مما زاد على مائتين والصبر أحسن، ولقد وقف جيش مؤتة وهم ثلاثة آلاف فى مواجهة مائة ألف[1].

وتبين من تفسير هذه الآية أن الفرار فيه رخصة، وإن كان الصبر والصمود أفضل. ولقد قيدت هذه الرخصة بشرط، وهو شرط مقبول، لأن من يقاتل من لا طاقة له به ملق بيده

---

(١) القرطبى تفسير القرطبى ص ٢٨١٦ حـ ع القاهرة.

إلى التهلكة وإذا ما هلك فقد أضاع الغرض الذى يقاتل من أجله فما صنع شيئا. ومع هذا التقييد والتحديد ما زال الفرار كبيرة موبقة، وهذا يستدل منه على القدرة على تدبير شئون القتال بالعقل والحكمة. ولنا أن نقول إن الجهاد فى الإسلام لم يكن حرب فوضى ولا خبط عشواء، وثمة دليل واضح على عدم جواز النكوص عن الزحف إن كان مع رسول الله ﷺ خصوصا. قوله عز من قائل: ﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ﴾ (التوبة: ١٢٠) فما كان يجوز لهم أن يخذلوا نبيهم، أما فيما يتعلق بالانحياز، فنلتفت إلى قول ابن عمر رضى الله عنهما: "كنت فى جيش، فحاص الناس حيصة واحدة، ورجعنا إلى المدينة فقلنا نحن الفرارون فقال النبى ﷺ : (أنا فئتكم)، فمن كان بالبعد من النبى ﷺ إذا انحاز عن الكفار فإنما كان يجوز له الانحياز إلى فئة النبى ﷺ ، وإذا كان معهم فى القتال لم يكن هناك فئة غيره ينحازون إليه، فلم يكن يجوز لهم بالفرار أبدا.

إذ قال الله تعالى ﴿إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استذلهم الشيطان ببعض ما كسبوا﴾ ذلك لأنهم فروا عن النبى ﷺ ، وكذلك كان الشأن يوم حنين فأخذهم الله على ذلك بالعقوبة، فى قوله تعالى: ﴿ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ﴾ فذاك حكمهم فى معية النبى، قل عدوهم أو كثر[1].

وقال عز من قائل: ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾.

يذكر تعالى المقاتلين بما يلاقون فى القتال من أهوال، إلا أنه يتجه إليهم بالنصح الحكيم ليبين لهم أن هذه الشدائد التى تنزل بهم عند قتالهم، وهى غاية فى عنفها بهم فكان حتما أن يقاتلوه على كره من هذا القتال، وذلك أمر ليس فيه من ريب، ولكن الله تعالى نبههم إلى أن ما قد يبدو شرا لهم قد يعود بالخير عليهم؛ فعليهم أن يداوموا ويصبروا عليه. وهذا من الدليل على أن الله تعالى يدعوهم بالتزام الصبر لأن الفرج بعد الشدة والله سبحانه هو العليم بحالهم، أما هم فلا يعلمون.

---

(١) سيد قطب فى ظلال القرآن ص ١٤٨٨ جـ ٩ القاهرة سنة ١٩٩٠م

أما من تقاعسوا عن الجهاد رهبة فقد خرجوا عن طاعة المولى جل وعلا، لأنه أمر به وحذر من التخلف عنه ولا غرو فقد عرفنا صلته الوثقى بالدين الحنيف.

وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل. إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا والله على كل شىء قدير﴾.

فى هذه الآية يقبل ـ جل وعز ـ بالعتاب على من يتثاقلون عن القتال مع النبى ﷺ، وفى هذا ما فيه من حتمية أن يخفوا إلى الجهاد معه؛ وذلك لوثاقة صلتهم به ولأنهم يمشون فى خطاه ويرون فية الأسوة. إنه يكره منهم هذا التراخى وذلك الإحجام عن القتال.

ويتجاوز هذا العتاب إلى الوعيد بألم العذاب، وبذلك يكون التدرج فى توعيته للمؤمنين وتبيان أنهم بإحجامهم عن القتال إنما يأثمون وسوف يجزون على إثمهم.

ونلتفت إلى البيضاوى فى شرح الآية الكريمة فهو القائل: (اثاقلتم) أى تباطأتم وقرئ (تثاقلتم) على الأصل و(أثاقلتم) على الاستفهام والتوبيخ.

وكان ذلك فى غزوة تبوك، وأمروا بها بعد عودتهم من الطائف فى وقت شدة وشدة قيظ مع بعد الشقة وكثرة العدو، ويمضى البيضاوى فى التفسير فيقول إنما معنى قوله تعالى: ﴿أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة﴾ أى غرتكم الدنيا بدل ما فى الآخرة من نعيم، كما يقول إنهم إذا لم ينفروا يعذبهم الله تعالى بالإهلاك، كالقحط، وظهور العدو. أما استبدال قوم غيرهم أى أن الله يستبدل بهم آخرين مطيعين كما أن تثاقلهم لا يؤثر فى نصرة الدين شيئا أى شىء فالله غنى عن كل شىء وفى كل أمر.

وقيل إن الضمير خاص بالرسول ﷺ أى لا يضرونه، لأن الله وعده بالعصمة والنصرة ووعده حق، والله يقدر على التغيير والتبديل لأنه على كل شىء قدير[1] ونحن نعى الكثير من تلك الآية وتفسيرها لأنها أوضحت بما لا ريب فيه فضل الجهاد وأهميته وأكدت أنه محتم لازم على المؤمن. وحرى إذا دعا داعى الجهاد أن يحث إليه خطاه، ويقبل عليه إقبال مستبشر به مستوجب له، وهو ما لم يخف إليه أخذه الله بالعقاب، وكره منه الإحجام عنه

---

(١) البيضاوى: تفسير البيضاوى ص ٢٥٤ القاهرة ١٣٠٥هـ

وكان هذا الإحجام غفلة منه وجهلا فقد شغلته عنه شواغل الدنيا بما فيها من عرض زائل وفناء آجل، وتناسى أن الآخرة خير وأبقى، وأن الله تعالى سوف يجازيهم على جهادهم فى سبيله الحسنى، إن الله يغلظ اللائمة على من هم عن الجهاد لاهون ساهون ويكره منهم دلك ويستنكره، كما يذكر الرسول ﷺ ، الذى عصمه الله من كل ما لا ينبغى أن يكون، فكان مجاهدا معهم، فما قعد عن الجهاد كما قعدوا كما أن عدم خروجهم معه إن عد تفرقا عنه وتخلفا عن نصره فهذا منهم وهم لأنه ﷺ فى غنية عن شدهم أزره والله وحده هو ناصره.

والآية تبصر كذلك بضرورة أن يقاتلوا مع النبى ﷺ لأن ذلك أوجب الواجب وإلا فسقوا عن الدين وتلك أكبر الكبائر وأعظم المآثم.

وترشد الآية كذلك إلى حتمية أن يتعلق المسلمون بنبيهم لأنه هاديهم، فهم إذا شاركوه فى القتال دلوا على أنهم معه فى تلك الشدة التى سوف تتكشف عما قريب؛ لأن بها ترتفع كلمة الحق والنصرة للدين الحنيف وللباطل البوار والخسران. وهذا كان حق الكفاية فى التعرف إلى فضل الجهاد فى سبيل الله. وآخر ما نلحظه من تلك الآية الكريمة وتفسيرها أن الله فى إيعاده يذكر المتخلفين عن الجهاد بعذابهم فى الدنيا وليس فى الآخرة وحسب، وهذا تشديد فيما يستحقون من عقاب.

وقال تعالى: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾.

يقول النسفى: "إن معنى الهمزة فى (أم) الإنكار أى لا تحسبوا، ﴿ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ﴾ أى لما تجاهدوا لأن العلم متعلق بالمعلوم فنزل نفى العلم منزلة نفى متعلقه لأنه منتف بانتفائه. ويضرب المثل بقول، نقول (ما علم الله فى فلان خيرا) أى ما فيه خير حتى يعلمه، ولما بمعنى (لم) إلا أن فيه ضربا من التوقع. وبذلك يكون قد دل على نفى الجهاد فيما مضى وعلى توقعه فيما يستقبل[1].

والآية الكريمة تبين أن الجهاد شرط من أهم شروط دخول الجنة وهذا يبدو فى تعميم وشمول، ولكن لا ننسى حديثا شريفا جاء فيه أن المسلم جدير بأن يحدث نفسه بالجهاد حتى ولو لم يجاهد، لذا تبرز أهمية هذا الجهاد الذى يفرضه سبحانه وتعالى على كل مسلم

(١) النسفى تفسير القرآن الجليل ص ٢٥٦ جـ ٤، القاهرة سنة ١٩٣٦م

ولو كان ضربا من حديث النفس، ومن ثم يرتبط الجهاد ارتباطا فى وثاقة ما بعدها وثاقة بالإيمان الذى يفضى بالمؤمن إلى جنة الخلد، وبعد هذا التعميم تخصيص لأنه تعالى يجعل أن من يرغب فى دخول الجنة لن يدخلها ما لم يعلم الله سبحانه وتعالى أنه من المجاهدين.

وقال تعالى: ﴿ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين. قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين﴾.

وبالنظر فيما ترشد إليه الآية الكريمة يفهم أنها تحضيض وإغراء على قتال المشركين الناكثين بأيمانهم، فقد هموا بإخراج الرسول ﷺ من مكة، أما قوله تعالى ﴿هم بدءوكم أول مرة﴾.

قيل المراد بذلك يوم بدر حين خرج المشركون لينصروا قوما سواهم فلما نجت القافلة وتناهى العلم بذلك إليهم داموا على رغبتهم فى القتال تكبرا منهم وعتوا، كما قيل إن المراد نقضهم العهد وقتالهم مع حلفائهم بنى بكر لخزاعة أحلاف رسول الله ﷺ ، وقوله تعالى ﴿أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين﴾ فالله تعالى يقول لا تخشوهم فأنا الأولى أن يخشى العباد من سطوتى وعقوبتى؛ فبيدى الأمر، ما شئت كان وما لم أشأ لم يكن، ثم قال تعالى بيانا لحكمته البالغة فيما شرع لهم من جهاد مع قدرته على إهلاك الأعداء بأمر من عنده ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين﴾[1].

إن هذه الآية تظهرنا على كثير من مفاهيم الجهاد فى سبيل الله، ونحن نفيد من تفسير ابن كثير ونضيف إليه من عندنا حسب ما ندركه منها بدورنا أن الله أمر بالقتال، وما دام أمر بالقتال وهو هذا الجهاد فعلى المؤمنين أن يأتمروا بأمره، لا معدى لهم عن ذلك. ويبين لهم ضرورة أن يكيلوا لهم صاعا بصاع لأن هذا ما يقيم الأمر ويصلحه ويؤدى إلى أن ينال المسيء عاقبة إساءته، كما أن الله أراد للمؤمنين أن يتولوا بأنفسهم أخذهم بالعقوبة التى هم بها جديرون فأن يكون على يدهم يذكرهم بضرورة أن يقوموا الباطل بيدهم ومن قوم مثل هذا الباطل، الذى كان من قبلهم، إنما عرف أنه باطل. وينبغى للمؤمن أن يميز بين الحق والباطل، فهذا توجيه رشيد من رب العالمين للمؤمنين. وجميل أن يقول إنه قدير على

(١) ابن كثير. تفسير القرآن العظيم ص٣٣٩ جـ ٢ القاهرة

ما يشاء وكان في قدرته جل وعلا أن يهلكهم فهم مأخوذون بنكث أيمانهم وبإخراجهم الرسول ﷺ من مكة، ولكنه تعالى آثر أن يكون ما أمر به بيدهم أي بقتالهم – وهذا يعرفهم بكيفية العقوبة على مستحقيها، وذلك أمر له أهميته في رياضة الحياة على العموم، لقد نبه تعالى إلى أن البادى أظلم وعقوبته أوجب. وفرق أى فرق بين معتد ومعتدى عليه، وهو يكره لهم الخشية منهم ما داموا على الحق المبين، ولا يرتضى لهم هذه المخافة لأن المخافة؛ لا تكون إلا من الله وبذلك يتحرك فيهم الشعور بالقوة والاعتزاز بالنفس.

والنقلة بعد كتاب الله المبين إلى أحاديث الرسول ﷺ ولا غرو، فما ورد في القرآن مجملا ورد في الحديث مفصلا، وهما يجتمعان على الهداية إلى مستقيم الصراط.

قال عليه الصلاة والسلام: (والذى نفس محمد بيده لوددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل ثم أغزو فأقتل)[1].

وهذا من قوله ﷺ فيه التأكيد الأقوى لشرف الجهاد إنه ﷺ يقسم جهد أيمانه مع أنه الصادق المصدوق أنه يريد الجهاد في سبيل الله، ولكنه يذكر ذلك على نحو يؤكد شدة رغبته فيه ولا يقتصر على أن يريد النصر المبين على المشركين وكفى، بل يتجاوز ذلك إلى أبعد مدى، بل يقول إنه يريد أن يقتل شهيدا لا قتلة واحدة كغيره من المؤمنين بل أكثر من قتلة لينعم بمثوبة الشهيد على كل قتلة، وما من ريب في أن تلك رغبة لا رغبة بعدها ولا عرضا لأسوة تتبين منها نعمة الشهادة، كما أن في ذلك حضا على أن يبادر المؤمن إلى القتال وهو على يقين جازم بأن له الجنة.

ومن ترغيبه ﷺ في الجهاد أيضا قوله: (مثل المجاهد في سبيل الله، كمثل الصائم القائم الدائم، الذى لا يفتر من صلاة ولا صيام، حتى يرجع). فمثل هذا التشبيه يبين إلى أى مدى بعيد يؤكد ﷺ منزلة الجهاد في العبادة، إنه يجعله ذروة التقوى فما دام المؤمن مجاهدا، جرت عليه صفة الصوام القوام، أما قوله: " إلى أن يرجع" فمما قد نستبين منه أن هذه الصفة فيه ضعفت شيئا ما عما كانت عليه من قوة إبان كونه مجاهدا، هذا ما ندركه بالحصر والتخصيص في الجهاد.

---

(١) د. عبد الحليم محمود: الجهاد والنصر ص٣١ القاهرة سنة ١٩٧٤م.

ويؤيد ذلك قوله ﷺ : (ألا أخبركم بخير الناس منزلا؟ رجل أخذ بعنان فرسه، يجاهد فى سبيل الله. ألا أخبركم بخير الناس منزلا بعده؟ رجل معتزل فى غنيمته، يقيم الصلاة، ويؤتى الزكاة، ويعبد الله، لا يشرك به شيئا)[1].

فهذا من قوله ﷺ يورد فى الخيال صورة رائعة للمجاهد وهو على صهوة فرسه الذى يعدو ملء فروجه فى سوح الجهاد، وعدوه هذا يرسم حركة تفيد قوة العزيمة، وشدة الرغبة والحرص على إلحاق الهزيمة الماحقة بأعداء الدين، ولهذا الفارس المغوار السباق إلى الجهاد أرفع منزلة للمؤمن الموقن وهو يفضل فى هذه المنزلة العابد المتبتل يقف عند حدود الدين، وهو التقى النقى بكل ما تتسع له الكلمة من معنى.

ومما يقوى به الدليل فى الحديث الشريف السالف الذكر أن الله تعالى أقسم بخيل الغزاة، وبين صفاتها على نحو يصورها فى الخيال تصويرا هو كل الجمال، ومعلوم أن الفرس والمجاهد فى سبيل الله لازم وملزوم، لقد جعل تعالى فرس هذا المجاهد يصعد صوتا من أنفاسه عند العدو وسنابكه إذ تصطدم بالأحجار تورى النار كما أنه يغير صبحا ليسارع إلى النبى فى مطلع الفجر ملتمسا منه غفلة.

وحسبنا هنا أن ندرك معنى القسم بخيل الجهاد وما يمكن أن يكنى عنه هذا الوصف للخيل من معنى وهو يؤيد ما ذكر النبى ﷺ أن هذه الخيل التى أقسم الله بها هى الخيل التى تعدو وتجرى بفرسانها فى سبيل الله إلى العدو من الكفار[2]. قيل فى نفسير السورة وهى سورة العاديات أنها نزلت عندما بعث ﷺ خيلا فمضى شهر ولم يأته منهم خبر[3].

وكأنما شاء الله أن يلقى الطمأنينة فى قلب الرسول من جهة هذه السرية ويذكره بأن المجاهدين بخير ولا ينبغى له أن يقلق عليهم فإنهم فى غزوهم ماضون ولا بأس أن يطول وقتهم ما دام فى ذلك نصرهم.

ومما يدرك منه أن المؤمنين انتصحوا بنصح نبيهم ﷺ وكانوا على ذكر مما بينه لهم وحثهم عليه فيما يختص بالشهادة ما قيل من أن سعد بن معاذ رضى الله عنه قال وقد تحجر جرحه: "اللهم إنك تعلم أن ليس أحد أحب إلى أن أجاهد فيك من قوم كذبوا

---

(١) مالك بن أنس: الموطأ ص٤٤٥ جـ٢ القاهرة.

(٢) سليمان عبد الله الأشقر: زبدة التفسير ص ٨١٨، الكويت.

(٣) البيضاوى: تفسير البيضاوى ص٨٠٨ القاهرة

رسولك وأخرجوه. اللهم فإن كان بقى من حرب قريش شيء فأبقني أجاهدهم فيك، اللهم فإني أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم، فإن كنت وضعت الحرب فافجرها واجعل موتى فيها".

فانفجرت من لبته فلم يرعهم إلا والدم يسيل إليهم، وكان فى المسجد معه خيمة من بنى غفار، فقالوا يا أهل الخيمة ما هذا الذى يأتينا من قبلكم فإذا سعد جرحه يغذ دما فمات منها[1].

وعن أبى الدرداء رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: "من اغبرت قدماه - فى الجهاد- فى سبيل الله حرم الله سائر جسده على النار". وهذا بين الدلالة على ذلك الجزاء الأوفى الذى سوف يناله المجاهد بما بذل من جهد وتحمل من مشاق وهو يقاتل أعداء الدين. إن الإشارة إلى القدمين واغبرارهما فى هذا المقام مما يدل على كثير، لأنه كناية واضحة عن الكر والفر وخوض الأهوال، والوقوع سحائب العجاج إنها صورة رائعة للمقاتل، أما أن يكون ذلك منه مدعاة لتحريم سائر جسده على النار ففوز عظيم وإكرام من ربه على ما أبلى من بلاء حسن، والنبى ﷺ يزف البشريات إلى المجاهدين مما فيه ولا شك ترغيبهم فى الجهاد طلبا للجزاء.

ومما يجرى هذا المجرى ما رواه أبو هريرة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ فى فضل الجهاد، أن رجلا من أصحاب الرسول ﷺ مر بينبوع صغير فأعجبه؛ فقال متمنيا لو اعتزلت الناس فأقمت فى هذا الشعب! ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله ﷺ ، فقال: "لا تفعل، فإن مقام أحدكم فى سبيل الله افضل من صلاته فى بيته عاما، الا تحبون أن يغفر الله لكم، ويدخلكم الجنة؟ اغزوا فى سبيل الله، من قاتل فى سبيل الله فوق ناقة وجبت له الجنة"[2].

رواه الترمذى وقال: "حديث حسن، و"الفواق" ما بين الحلبتين.

فهذا الرجل الذى أعجبه ذلك الينبوع وود لو أقام له دارا إلى جانبه ويعتزل الناس لينعم بأطيب عيش وهو يجد الرى من ماء الينبوع واختار العزلة فى ذلك الشعب على أن يعبد الله فى ذلك الوادى الخصيب، وكان هذا الرحل مفتونا بجمال الموضع الذى وقعت عليه عينه

---

(١) مسلم: صحيح مسلم ص٩٦ المجلد الرابع القاهرة سنة ١٩٨٧م

(٢) الشوكانى: نيل الأوطار ص ١٠٨ المجلد السابع القاهرة.

إلا أن الشك ساره فى إمكان أن يعتزل الناس فى ذلك المكان، ورأى أن يستأذن الر
ﷺ ، إلا أن النبى أثناه عن هذا العزم ونهاه أن يؤثر العافية واعتزال الناس والعيشر
السرب فى مكان يغمره بالسكينة ويكفل له رغد العيش، وكان ﷺ على الحق والص
حين ذكره بالجهاد وضرورة أن يكون من المجاهدين خير له عند الله من أن يكون
العاكفين العابدين الذين تطول بهم أعوام العبادة.

ولا شك أن هذا يؤكد أن الجهاد خير عبادة، خاصة أنه قال من بعد إن من جاهد
ولو كانت جد يسيرة أدخله ذلك جنات النعيم. وبعد هذا التخصيص جنح ﷺ إلى الت
فأمر بالجهاد المؤمنين، وكره لهم أن يتخلفوا عنه حتى ولو شغلوا بالصيام والقيام.

وبعد هذا الترغيب مال ﷺ بالترهيب فقال: "من لم يغز، ولم يجهز غازيا، أو يخلف
فى أهله بخير، أصابه الله تعالى بقارعة قبل يوم القيامة".

وهنا يتسع المجال فى تصور الجهاد، ويؤخذ من قوله ﷺ أن المؤمن قمين كذلك
يجهز غازيا ليمكنه من الغزو فى سبيل الله، وإذا لم يفعل ابتلاه الله بقارعة قبل يوم القيام
أن الله يأخذه بالعقوبة فى دنياه قبل أخراه ليكون عبرة لأولى الألباب.

وتلك هى الغاية فى الدعوة إلى الجهاد والحث عليه، والوعيد الشديد لمن ينصرف
جهاده، وإن حسنت نيته ولم يتراخ ويتقاعس عن عدم رغبة فيه، بل عما يحسبه فى
عنه.

وفى هذا الصدد قول النبى ﷺ : " وإذا تركتم الجهاد سلط عليكم ذلا لا ينزعه
حتى ترجعوا إلى دينكم". وهذا صريح فى أن التخلف عن الجهاد خروج عن الدين
يوقع فى الإثم، والإثم يستوجب عليه العقوبة والذل الذى يسلط من قبل الله مما يوقع
فى القلوب.

ونمضى فى ذكر فضل القتال فى سبيل الله من حقائق ودقائق إلى أخرى.

عن أبى قتادة أن رسول الله ﷺ قام فيهم فذكر لهم أن الجهاد فى سبيل الله والإيمان
أفضل الأعمال، فقام رجل فقال: يا رسول الله أرأيت إن قتلت فى سبيل الله تكفر
خطاياى؟ فقال له رسول الله ﷺ "نعم إن قتلت وأنت صابر محتسب مقبل غير مد
الدين، فإن جبريل عليه السلام قال لى ذلك"[1].

---

(١) ابن كثير. تفسير القرآن العظيم ص ٢٩٤ جـ٢ القاهرة

فى هذا الحديث الشريف إطلاق وتقييد، أما الإطلاق فإن من قتل فى سبيل الله حطت عنه خطاياه وغفر الله له ما تقدم من ذنبه. فبالقتل ينال المؤمن من ربه المغفرة، وأما التقييد فهو ضرورة أن يكون المجاهد صابرا محتسبا مدخرا عند الله الثواب؛ وفى هذا ما فيه من الإشارة إلى أن يكون المجاهد مؤمنا بمعنى الجهاد لا مجرد مقاتل لا يعرف مدعاة ولا غاية لقتاله وموته، وعليه كذلك أن يكون صابرا على الكريهة وأن يتقدم ولا يعود القهقرى، وهذا حث على الصمود فى القتال والضراوة فيه؛ فبمثل هذا من صفة القتال يكون له غايته وجدواه.

ونلتفت إلى تقييد آخر وهو الدين، وبذلك يتصل الجهاد بالمعاملات بين الناس، فالشهيد مع ما سلف ذكره من صفات تجرى عليه يستحق المغفرة فى شمول إلا إذا كان مدينا فإن الدين لا يكون إلا برضاه واختياره، وأمارة ذلك أن الرسول ﷺ لم يصل على من عليه دين، فيدرك من ذلك أن كل ذنب له يغتفر منه ما عدا ذنبا واحدا هو عدم أداء الدين، إلا أن الشوكانى يتصدى شارحا فيضيف إلى ذلك قوله إن بقاء الدين فى ذمة الشهيد لا يمنع من الشهادة، بل هو شهيد مغفور له كل ذنب إلا الدين، وغفران ذنب واحد يصح جعله ثمرة للجهاد، فكيف بمغفرة جميع الذنوب إلا واحدا. ومسارعة الشوكانى إلى هذا الاستدراك أن الشهيد يجزى الحسنى على شهادته ولا يمنع من ذلك أن يحاسب على عدم أداء دينه وارتباط ذكر ثواب الشهادة بجزاء الدين يتوضح به أن الدين أمر ينبغى الالتفات إليه والتحرز منه.

أما اشتراط خلوص النية فى الجهاد فأمر مستوجب، وبذلك نلحظ الفارق بين القتال على إطلاقه والجهاد فى خصوصيته (وهذا ما ندركه من أنه ﷺ سئل عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء، فأى ذلك فى سبيل الله؟ فقال: "من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله". رواه الجماعة.

وذلك ما يرشد فى جزم وتأكيد إلى أن قتال المجاهد بينه وبين قتال غيره بون شاسع، والمقاتل فى سبيل الله إنما يقاتل لنصرة الدين ورفع كلمة الحق، وهذا ما يجعله خالص النية محدود الغرض مشرق القلب أملا فى أن يموت شهيدا أو ينصر الدين الحنيف، وبذلك تتوضح لنا نفسية المجاهد الذى عمر الإيمان قلبه وعمره باليقين، فما كان بدعا بعد ذلك أن

يكون للجهاد فى سبيل الله كل ما له من فضل، وللمجاهد كل ما له من إكرام عند ربه وثواب هو أهل له.

وروى أحمد والنسائى فى هذا الصدد، عن أبى أمامة قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: أرأيت رجلا غزا يلتمس الأجر والذكر - ما له؟ فقال رسول الله ﷺ : "لا شيء له". فأعادها ثلاث مرات يقول له رسول الله ﷺ لا شيء له، ثم قال: "إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصا، وابتغى به وجهه".

وهذا من قوله ﷺ يزيد فى معنى الجهاد كثيرا لأنه يحصر ثوابه حصرا فى نية المجاهد، ولإيضاح ذلك نقول إن المجاهد عليه أن يجعل قتاله فى سبيل الله دون توقع لأجره عند ربه، وربه هو من يتولى جزاءه، أما هو فما عليه إلا أن يقاتل ويدع أمره كله لله، وفى مثل هذا دليل على وجوب أن يقاتل من حيث هو قتال لرفع راية الدين ودفع عادية المشركين وكفى، ولتعف نفسه عن طلب الأجر، بل عليه أن يتمثل الأمر دون تفكر فى مصيره وعاقبة أمره فإذا طمع فى أجر أو فى نفل شوه ذلك من جمال إيمانه وجعله مثل من يعمل لقاء أجر أى أجر كان، وفرق أى فرق بين من يقاتل لمجرد رفع راية الدين ومن يقاتل وله من وراء قتاله غاية أخرى كائنة ما كانت، وهذا ما يذكرنا قول بعض المتصوفة إنه يعبد الله لا خوفا من ناره ولا طمعا فى جنته وإنما يحبه حبا لذاته، وهذا هو الحب فى أسمى درجاته وأجمل معانيه؛ لأنه لا يسأل عليه أجرا وحسبه أن يحب الله لأنه حقيق بمحبته.

ويجرى هذا المجرى ويؤكد وجوب تجريد القلب من كل رغائبه وأمانيه، وتوطين النية على أن يكون كل ما للعبد من صنيع لوجه الله الكريم وتلك روحانية مشرقة يا لها من روحانية، بل إن الأمر يتجاوز ذلك إلى الوقوع تحت طائلة العقوبة إن لم تكن هذه الصفة جارية على العبد حتى ولو جزم بأنه من المؤمنين.

قال أبو هريرة رضى الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأتى به فعرفه نعمته فعرفها، قال فما عملت فيها؟ قال قاتلت فيك حتى استشهدت، قال كذبت ولكن قاتلت ليقال جريء فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى يلقى فى النار.

ورجل تعلم العلم وعلمه، قرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها، فقال ما عملت فيها؟ قال تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل، ثم أمر فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار.

ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها، قال فما عملت فيها؟ قال ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال كذبت، ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه فألقى فى النار". رواه أحمد ومسلم.

وليس يخاف أن هذا أبعد الآماد فى استيجاب أن يكون عمل العبد لوجه الله دون تفكر فى شيء سوى الله ومرضاة الله والامتثال لأمره ليس غير، إن الاستطراد بعد ذكر القتال فى سبيل الله إلى ما سوى ذلك من أعمال يبين أن الاستشهاد فى سبيل الله على رأس الأعمال التى ينبغى أن تكون لوجه الله ولذلك ذكر فى صدر الكلام.

عن أبى المثنى العبدى قال سمعت السدوسى يعنى بشير بن معبد قال أتيت النبى ﷺ لأبايعه فاشترط على شهادة أن لا إله إلا الله. وأن محمدا عبده ورسوله، وأن أقيم الصلاة، وأن أؤدى الزكاة، وأن أحج حجة الإسلام، وأن أصوم شهر رمضان، وأن أجاهد فى سبيل الله. فقلت يا رسول الله أما اثنتان فوالله لا أطيقهما (الجهاد والصدقة) فإنهم زعموا أن من ولى الدبر فقد باء بغضب من الله فأخاف إن حضرت ذلك خشعت نفسى وكرهت الموت.

والصدقة فوالله ما لى إلا غنيمة وعشر ذو دهن رسل أهلى وحمولتهم، فقبض رسول الله ﷺ يده وقال: "فلا جهاد ولا صدقة فبم تدخل الجنة إذن؟" قلت يا رسول الله أنا أبايعك فبايعته عليهن كلهن[1].

ويستخلص من ذلك الحديث أن الجهاد ركن من أركان الإسلام كما يدرك من قوله ﷺ، أما تردد الرجل فى أن يكون مجاهدا فى سبيل الله فمخافته، لعلمه أن رجوعه القهقرى فى الزحف مجلبة لغضب الله عليه، وهو من ذلك يستعيذ وبذلك يكون الجهاد مشروطا بعدم الرجوع إلى خلفه فى قتال وهذا ما لا يضمنه لنفسه ولا يطيقه من عقد أكيد

---

(١) الشوكانى. نيل الأوطار ص ١٢١ المجلد السابع القاهرة.

العزم على الإقدام، وعليه فلا قهقرى فى أية حرب كائنة ما كانت لأن فيها الكر والفر إلا القتال فى سبيل الله الذى ينبغى أن ينطلق فيه المقاتل مندفعا كأنه سيل لا يعترض شيء مجراه، وهذا خاص بالجهاد الذى يتميز فيه القتال من كل قتال.

وكره النبى ﷺ منه هذا الخوف فلم يبايعه وكانت العلة فى عدم المبايعة، مع أنه دخل تحت معظم شروطها.

"كما يروى عن النبى ﷺ أن ثلاثة لا ينفع معهن عمل: الشرك بالله وعقوق الوالدين والفرار من الزحف".

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رجلا قال: يا رسول الله علمنى عملا أنال به ثواب المجاهدين فى سبيل الله.

فقال رسول الله ﷺ : هل تستطيع أن تصلى فلا نفتر، وتصوم فلا تفطر؟ فقال: يا رسول الله، أنا أضعف من أن أستطيع ذلك.

فقال النبى ﷺ : "ولو طقت ذلك ما بلغت المجاهدين فى سبيل الله".

وهذا من قوله ﷺ أصدق تعبيرا عن مكانة الجهاد بين أركان الإسلام وما له من ثواب هو أوفى من صلاة يداوم علبها من لا يكل، وصيام لا إفطار له، ثم إن قوله ﷺ: "إن طقت ذلك ما بلغت المجاهدين" فى جزيل أجرهم عند الله. وهذا تأكيد ما بعده تأكيد، وإعظام للجهاد إلى أبعد مدى.

ومن علماء السلف الصالح عبد الله بن المبارك وكان ذا شغف بالقتال الذى قيل فى رفعة مكانته على لسان سفيان بن عيينة: نظرت فى أمره وأمر الصحابة فما رأيتهم يفضلونه إلا بصحبتهم لرسول الله ﷺ .

ومن شعره الذى يتحدث فيه عن عظمة الجهاد قوله:

من كان يخضب خده بدموعه	فنحورنا بدمائنا تتخضب
ريح العبير بكم ونحن عبيرنا	وهج السنابك والغبار الأطيب
ولقد أتانا من مقال نبينا	قول صحيح صادق لا يكذب
لا يستوى غبار خيل الله فى	أنف امرئ ودخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بيننا	ليس الشهيد بميت لا يكذب[1]

---

(١) د. حمزة الشرنى الجهاد فى الإسلام ص٦٤ القاهرة سنة ١٩٨٩م

ومما فيه دلالة من دلالات على أن القتال فى سبيل الله كانت له أصول مرعية ينبغى الأخذ بها وعدم الغفلة عنها أن النبى ﷺ "كان إذا أمر أميرا على جيش أو سرية أوصاه فى خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا، ثم قال اغزوا بسم الله فى سبيل الله قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدة، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم، كف عنهم وادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين، وعليهم الذى يجرى على المسلمين، فإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم وإن أبوا فاستعن بالله عليهم وقاتلهم".

فى هذا الحديث نرى بما لا مراء فيه كيف أن قتال المشركين لم يكن قتالا بالمفهوم العام للقتال فى الحروب، وكيف أن النبى ﷺ أوصى من يقود المسلمين المحاربين بعدم قتل الولدان رحمة بهم، كما نهى عن الغدر والتمثيل، ومثل هذا الوصايا لا عهد لنا بمثلها فى تاريخ الحروب، وكان السابق إلى الفهم أن المجاهد فى حرصه على أن يقتل أو يقتل لا يرعى مثل هذا من قول النبى ﷺ إلا أن ما أمر به ﷺ مخالف لذلك وهذا من وصية النبى هو الرحمة فى أجل معانيها والنبل والقدرة على كظم الغيظ وكبح جماح النفس والصبر على الكريهة حين تبلغ الكريهة مداها فى شدتها، كما فيه النصح بالملاينة قبل المخاشنة، واستفاد كل الأسباب التى تمنع القتال، فلا قتال إلا بعدها فى الضرورة القصوى، فقتال المجاهدين ليس ككل قتال إنه حرب حين لا ينفع السلم وشدة حين لا ينفع اللين كما فيه الرغبة إلى الموادعة والتفاهم فى تؤدة، أما إذا لم يكن فى هذا كله جدوى فقد خابت الحيلة فى دفع الشر بما هو خير، فلم يبق إلا أن تتسع المعذرة للمسلمين فى قتال المشركين، والمسلمون وهم على هذه الصفة فى محاربتهم للمشركين لا شك تجرى عليهم أسمى صفات الشهامة والكرم والأريحية، وحسبنا أن نذكر ما جاء فى صدر كلامه ﷺ وهى الوصية بتقوى الله والغزو باسم الله وفى سبيل الله، وذلك لإعلاء كلمة الدين، وكل ما جاء بعد ذلك من كلام مندرج تحت مفهوم التقوى.

ومما يستدل منه على أن الجهاد فى سبيل الله كان أمرا لا مندوحة عنه ولقد فرضته فرضا أوضاع وملابسات خاصة، ما قيل من أنه لما استقر ﷺ بالمدينة بين الأنصار؛ تكفلوا بنصره،

وشد أزره ومنعه من الناس أسودهم وأحمرهم، فكان من العرب أن رمتهم عن قوس وتعرضوا لهم من جانب، وكان الله قد أدن للمسلمين في الجهاد بقوله تعالى: ﴿أذن يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير﴾.

فلما صاروا إلى المدينة وكانت لهم شوكة وعضد كتب الله عليهم الجهاد بقوله س ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم وعسى أن شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ وكان أول لواء عقده رسول الله ﷺ حمزة بن عبد المطلب على ثلاثين راكبًا فبلغوا سيف البحر يعترضون عيرًا لقريش[1].

ومن الباحثين من قال إن المعنى الصريح للجهاد هو قتال الذين يفتنون المسلم ع ويصدون عن سبيل الله، وهذا هو القتال في سبيل حرية الدعوة إلى الله وإلى دينه، الدفاع عن الرأى بالوسائل التي يقاتل بها أصحاب الرأى.

فإذا أراد أحد أن يفتن رجلاً عن رأيه بالدعاوى والمنطق دون أن يحمله على تر الرأى بالقوة، لم يكن لأحد أن يدفع هذا الرجل إلا بدحض حجته وتفنيد منطقه.

لكنه إذا حاول بالقوة المسلحة أن يصد صاحب الرأى عن رأيه وجب دفع القوة ا بالقوة المسلحة[2].

وهذا كلام يعوزه شيء من توضيح وتحديد، فما كان الخلاف بين المؤمنين والم في الرأى بل في العقيدة الدينية، فهؤلاء على الإيمان وأولئك على الكفر وهما بذلك طرفي نقيض لا سبيل إلى تقارب بينهما، فالأولى أن يقال في العقيدة الدينية لا في مطلقًا، ومجرد الاختلاف في العقيدة الدينية لا يفضي إلى القتال بين طائفتين، لقد اليهود المسلمين في المشرق العربي وفي الأندلس، كما عايش المسيحيون المسلمين في العربية في سلام ووئام. أما ما ينبغي تحديده في هذا الصدد فهو أن المشركين تصدوا للمؤمنين، لقد شرع الله الجهاد إثر هجرة المسلمين إلى المدينة وأذن لهم في قتا يقاتلونهم، فما كان ثمة مجال للتفاهم بينهم لأن المشركين كانوا أسرع إلى العدوان، بالضرورة إذن أن يصد المسلمون عنهم عدوان عدوهم، ولكن هذا الخلاف الشد

---

(١) المقريزى: إمتاع الأسماع ص ٥١ القاهرة سنة ١٩٤١م

(٢) الدكتور محمد حسين هيكل: حياة محمد ص ٢١٦ القاهرة ١٣٥٤هـ

الطائفتين هو الفرق بين الحق والباطل والنفع والضر، وأن للمجتمع فى ذلك العصر وتلك البيئة أولاً أن يصلح من فساد، فما كانت محاربة المؤمنين للمشركين إلا ضرورة لا معدى عنها؛ لأن جميع الأوضاع والواقع من الأمور تضافرت على استيجابها، وحسبنا أن نذكر ما كانت عليه أحوال المسلمين فى مكة وما آلت إليه وهم فى المدينة لندرك أن الحرب كانت لا مناص عنها.

وجملة القول أن القضية لم تكن قضية تخالف فى الرأى وكفى، ولكن الوجه أن يقال إن أهل الضلالة والمشركين وقفوا موقف العداء من المسلمين المؤمنين، والأحرى أن يكون المشركون معتدين ظالمين، أما المسلمون فما وسعهم أن يستسلموا، بل دافعوا عن بيضة دينهم، وكفوا أذى الكافرين عن إيمانهم.

ومن ذوى الأغراض والملاحدة من توهموا أن الإسلام قام على حد السيوف وأن المسلمين أكرهوا الكافرين عليه قهرًا وقسرًا، وهذا ما لا يستقيم فى الفهم ولا يثبت على النقد لأنه يتعارض تمامًا مع قوله تعالى ﴿لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى﴾ كما يتنافى كل التنافى مع ما رواه ثقات المسلمين منذ ظهور الإسلام، فمن المعلوم على الحقيقة أنه ﷺ دعا بعض أصحابه ممن كانوا موضع ثقته إلى الهدى من أمثال أبى بكر الصديق وعثمان والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص[1] وتبعهم غيرهم فتقبلوا الدين الحنيف عن رضا وطواعية بعد أن تدبروا أصوله واقتنعت به عقولهم ورقت له قلوبهم فى وقت معًا.

كما أنه ﷺ كان يعرض دعوته فى موسم الحج على القبائل رغبة منه فى أن يرفضوا الشرك ويقبلوا الإيمان، ويرغبهم فى قبول الخير ورفض الشرك، ومنهم من كان يقبل الإسلام عن رضا وطواعية.

ومن هؤلاء جماعة الأوس والخزرج الذين عمرت قلوبهم بالإيمان واليقين، ولما عادوا إلى المدينة عرضوا دعوتهم على قومهم، وهذا قاطع الدليل على أن من الناس من استجاب للدعوة، وهم خيارهم، ومن عادوها، وهم شرارهم، وفى هذه الفترة المبكرة من تاريخ الدعوة ندرك تمام الإدراك أن الأمر لم يكن فيه إلا اللطف والملاينة وما كان فيه قط عنف ومشاحنة.

---

(١) د. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام ص ١٠٤ حـ١، القاهرة ١٩٥٧م

وإن نسينا فلا ينبغي أن ننسى أنه ﷺ أرسل الرسل إلى الملوك يدعوهم ويحببهم فيما خيرهم ونفعهم، ولكن قريشًا كشحت له بالعداوة فكان ذلك أول شر، ونذيرًا بما تر عليه في مقبل الأيام؛ فأمره تعالى بقتال المشركين فامتثل وأطاع، ولله في ذلك حكمته لا يدرك ما وراءها إلا هو.

ومما ندركه من أول غزوة غزاها ﷺ حين هم باعتراض عير قريش، وخرج في سـ رجلاً من المهاجرين خاصة حتى بلغ ودان فلم يلق كيدًا، فلم يقاتل لأنه لم يصادف يكيد له ويريد شرًا به، فما وضع العنف في موضع اللطف فعقد حلفًا مع عمرو بن ـ الضمري، وكان سيد بني ضمرة، وهذا نص ما عاهد بني ضمرة عليه:

(هذا كتاب من محمد رسول الله لبني ضمرة، فإنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم، لهم النصر على من رامهم إلا أن يحاربوا دين الله ... وأن النبي إذا دعاهم إلى نص أجابوه)[1].

ونظرة تدبر في هذا تقيم الدليل على أن المسلمين لم يكونوا بادئين بالعدوان حتى مع أضمروا لهم حقدًا وبيتوا لهم شرًا.

إنه أمنهم ما أمن شرهم وعدوانهم ولكنه بصرهم بسوء العاقبة إذا حاربوا دين الله، يقظ الوعي يرقب بعين يقظى إلى ما سوف يتكشف عنه الغد، فلما أمن جانبهم زف إل البشرى بالأمان، ومما يتأيد به ما أسلفنا ذكره في تعقيبنا على ما ذكرناه ما جاء في كتـ من كتب التراث ورتبنا عليه رأيًا لنا.

من حديث أبي منيب الجرشي قال إنه ﷺ قال: "بعثت بالسيف بين يدي، لحتى يعبد وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذل والصغار على من خـ أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم"[2].

والمدرك من قوله ﷺ أنه مأمور من قبل ربه بنصرة الدين وهو يحمل سيفه ويرد ـ الشرك البادئ بالعدوان إلى رأيه، وما كان له إلا أن يصدع بما أمر به صادعًا، إلا أنه بسـ رأيه وحسن تدبيره رأى في ذلك الأمر سعة في الإمكان تضييقها، ورخصة يمكن الا بها، وتطبيقًا للحكم على نحو يراه ويتصوبه في الأحايين، ولذلك لما أمكنه التفاهم مع

---

(١) صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم ص٢٣٣ القاهرة سنة ١٩٨٨م.

(٢) ابن قيم الجوزية: زاد المعاد في هدى خير العباد الكويت سنة ١٩٨٥م.

خالفوه أغمد حسامه عنهم، ونيل باللين ما لم ينل بالشدة وكفى الله المؤمنين القتال، وهذا ما يتكشف عنه صفة القتال فى الإسلام، ولكن لا ينبغى تناسى أن الدين لا بد له من حسام يحميه ما مست الحاجة إلى الصراع والصدام فالقتال فى بعض الملابسات لا بد له من وقوع لنصرة الدين كما لا بد من الشدة إذا لم ينفع اللين.

ويمضى بنا السياق فى هذا المقام فنقول إنه جاء فى كتاب الأغانى أن أبا سفيان حين مضى من مكة المكرمة إلى المدينة قال أبياتًا من الشعر يحرض فيها قريشًا قال فيها:

كروا على يثرب وجمعها	فإن ما جمعوا لكم نفل
إن يك يوم القليب كان لهم	فإن ما بعده لكم دول
آليت لا أقرب النساء ولا	يمس رأسى وجلدى الغسل
حتى تبيروا قبائل الأوس وال	خزرج إن الفؤاد مشتعل[1]

وهذا من قول أبى سفيان يبديه لنا فى صورة طاغ باغ أكل الحقد قلبه، واندفع اندفاع سيفه إلى العدوان وما اكتفى بأن يورد الموارد الهلاك واحدًا، بل سولت نفسه الخبيثة أن يفتك بعدوه ذريع الفتك ويقضى عليهم مبرم القضاء.

فما يستقيم فى العقل ألا تصد عاديته ويلتقى سيفه بسيف من اعتدى عليه.

وإذا ما تمثلنا مغازيه وسراياه ﷺ ألفينا أن القدماء والمحدثين تجتمع كلمتهم على أنه ﷺ إنما قام بها اتقاء لشر المعتدين عليه، ويقول ابن هشام مثلاً: "إنه بلغه ﷺ أن بنى فلان يجمعون له، فبعث إليهم سرية لتفاجئهم". وفى هذا واضح الدليل على أنه ﷺ شاء أن يدفع عن المؤمنين شرهم قبل أن يستشرى. وحقيقة الحال أن المغازى والسرايا دامت متعاقبة مستهدفة غاية لا وجود لسواها، كما أن خططها مدبرة بحكمة ملحوظة وأعقبت ما شاء الله تعالى ورسوله ﷺ للمؤمنين من أمر عظيم، إلى أن جاء العام الثامن للهجرة بفتح مكة وانضمامها للجماعة، فالغزوات والسرايا الأولى من سرية سيف البحر التى كانت تحت إمرة حمزة بن عبد المطلب فى رمضان من العام الأول للهجرة حتى سرية نخلة فى رجب من العام الثانى، أريد بها أن تكون السيطرة للمدينة على الطريق التجارى الذى يربط مكة بالشام كيما تقسر مكة على الاستسلام دونما قتال بعد أن تقع فى شدة من بوار تجارتها.

---

(١) السهيلى: الروض الأنف ص٤٢٨ القاهرة سنة ١٩٦٧م.

وهذا تدبير سديد، ورغبة في التباعد عن القتال ما دام ثمة ما يغني عنه، وبعد ما نزلت الشدائد لبوار تجارتها تهيأت للدخول في الإسلام، وكان للرسول ﷺ نية أخرى هي أن يلزم المؤمنين الدربة على الحرب وأصولها، وقد تبينت الحكمة في ذلك من بعد حين اتسع المسلمون في الفتوح، ورفعوا كلمة الحق بين الخافقين، ورتب على ذلك أن ظهر من القادة من شهد لهم بالبراعة في قيادة جيوش المسلمين على نظام محكم وأصول معلومة مما تأتي لهم به أن ينصرهم الله في أكناف الأرض نصرًا مبينا.

ومن هؤلاء الفرسان المغاوير والقادة المظفرين علي بن أبي طالب – كرم الله وجهه – وحمزة بن عبد المطلب، وسعد بن أبي وقاص، وأبو عبيدة بن الجراح، وقمين بالذكر أن وجد بينهم من قاموا بمراقبة السرايا وتجهيزها بالزاد والسلاح بل رعوا أسر المقاتلين، ولا شك أن هذا نظام محكم مرعي، ويسعنا القول بأن الغزوات لم تكن رغبة في التقتيل إنما كانت لها أصول وسنن لا بد من رعايتها[1].

وما كان ﷺ يطيب نفسًا بالقتال بل على النقيض من ذلك كان تواقًا إلى السلم، فموقفه من الحرب موقف من يبغضها بغض من يبغض شيئًا على اضطراره إليه.

إنه كان يسعى إلى السلم جهد المستطاع فقد شاء أن يعجز المشركين عن القتال بأن يوقعهم في الضيق والشدة، كما رأينا في قطع طريق القوافل على قريش، وهذا منه خلق عظيم، وميل ملحوظ إلى الخير وإيثاره على الشر حتى وإن وجب القيام بعمل يراه شرًا.

وكان رحيمًا رحيما في حروبه، فما قتل طفلاً ولا شيخًا ولا امرأة في خبائها ولا راهبًا في صومعة ولا عاجزًا عن الحرب، وقد رأينا من قبل كيف أوصى أصحابه بذلك وألزمهم به إلزامًا وقد كان مظفرًا في مغازيه، على أنه لم يخض حروبًا إلى أن بلغ من عمره ثلاثًا وخمسين سنة اللهم إلا حرب الفجار التي هاجت بين قريش وكنانة، وكان آنئذ في العشرين من سنيه، وفي هذه الحرب لم يشترك في القتال، بل كان يجمع السهام لعمومته. ولنا أن ندرك من ذلك بما لا يحتمل من شك أن الله هو الذي هيأه لمثل هذا ومكنه منه لينصر الدين الحنيف، وقد كان[2].

---

(1) د. حسين مؤنس: دراسات في السيرة النبوية ص ٦٥ القاهرة سنة ١٩٨٤م

(2) د. عبد العزيز غنيم: محمد صلى الله عليه وسلم بين الحرب والسلام ص ١٥٤ القاهرة سنة ١٩٨٩م.

ولنا أن نستدل بما أسلفنا قوله، أن هذه الغزوات إنما كانت تدور رحاها بقدر مقدر، وأن وحيًا إلهيًا وجه المحاربين فيها من المسلمين ودبر لهم أمرهم، ذلك لأن معجزات تجلت فيها. حكوا قالوا إن النبى ﷺ نعى زيدًا وجعفر وابن رواحة للناس قبل أن يبلغهم خبرهم، فقال أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذ جعفر فأصيب ثم أخذ ابن رواحة فأصيب، وعيناه تذرفان، حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله إلى أن فتح الله عليهم[1].

وقع هذا فى مؤتة والنبى ﷺ فى المدينة، فلا بد أن يكون الله – عز وجل – ألهمه معرفة خبر هؤلاء الشهداء الذين قتلوا فى سبيل الله، وتلك معجزة خصه الله بها كما أظهرها فى تلك الغزوة، ومما جاء فى خبر هذه الغزوة أن جعفرًا لما قتل أخذ الراية عبد الله بن رواحة، وتقدم بها وهو على فرسه، فجعل يتردد بعض التردد ثم قال:

أقسمت يا نفس لتنزلنه	كارهة أو لتطاوعنه
إن أجلب الناس وشدو الرنه	ما لى أراك تكرهين الجنة

ثم نزل عن فرسه، فأتاه ابن عم له بعرق من لحم فقال: شد بهذا صلبك، فإنك لقيت فى أيامك هذه ما لقيت، فأخذه من يده فانتهس منه نهسة، ثم ألقاه من يده ثم أخذ سيفه فتقدم، فقاتل حتى قتل. وكان فى هذه الغزوة ثلاثة آلاف مسلم حيال مائتى ألف.

وهكذا تبدى هذه الغزوة المعجزة، وتضفى على هذين الشهيدين أعرق ما يكون فى الإيمان وأسمى ما يكون فى معنى الشهادة. فما كان بدعًا أن يعرف النبى ﷺ خبرهم وهم عنه غياب عن بصره بتلك النورانية التى ألقاها الله فى رحاب نفسه.

ومعجزة أخرى فى غزوة بدر. فقد ألهم الله تعالى رسوله الكريم أن يأخذ بحفنة من تراب ويرمى بها فى وجوه المشركين قائلاً "شاهت الوجوه"، فملأ التراب عيونهم، وحجبت عن الرؤية، ثم قال للصحابة شدوا عليهم، فدارت الدائرة على المشركين فمنهم من قتل ومنهم من أسر، وقد أشار الله إلى ذلك بقوله: ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾ فتلك الآية الكريمة تؤيد هذه المعجزة ما فى ذلك من مراء.

ومما يجرى مجرى المعجزة الخاصة بالغزوات وأن النبى ﷺ كان يوجهها بوحى من ربه تعالى ما قيل من أن عاتكة بنت عبد المطلب رأت رؤيا حدثت بها قالت: "رأيت راكبًا أقبل

(١) إبراهيم خليل إبراهيم. المعجزات المحمدية ص ٢٤ القاهرة سنة ١٩٧٤م

على بعير له، حتى وقف بالأبطح، ثم صرخ: ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم فى ثلاث. فاجتمع الناس إليه، ثم دخل المسجد وبيما الناس حوله مثل به بعيره على ظهر الكعبة، ثم صرح بمثلها: ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم فى ثلاث، ثم مثل به بعيره على رأس أبى قبيس، فصرخ بمثلها ثم أخذ صخرة فأرسلها، فهوت وتهشمت وما بقى بيت من بيوت مكة إلا ودخلته، منها فلقة. وما مر يومان على تلك الرؤيا حتى جاء من يرفع عقيرته قائلاً: يا معشر قريش أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد وأصحابه، الغوث الغوث[1].

وإذا حاولنا لهذه الرؤيا تعبيرًا أن ذلك الذى يدعو قريشًا لمصارعهم هو النبى ﷺ ، وتهشم هذه الصخرة، ودخول كل فلقة منها بيتا من بيوت مكة دليل على أن يكون كل بيت سوف يكون فيه قتيل أو أسير.

وهذا ما قد وقع وكان غيبا تحقق بالشهادة. ورأى ﷺ ذات ليلة فى منامه أن فى سيفه ثلمة، وأن بقرا له تذبح وأنه أدخل يده فى درع حصينة، فتأولها أن نفرا من أصحابه يقتلون وأن رجلا من أهل بيته يصاب، أما الدرع الحصينة فهى المدينة المنورة.

فأشار الرسول ﷺ ألا يخرجوا إليهم وأن يتحصنوا فى المدينة فإن قربوا منهم قاتلوهم على أفواه الأزقة.

ووافق رسول الله ﷺ على رأيه عبد الله بن أبى بن سلول، غير أن أكثر الأنصار أبوا إلا أن يخرجوا إليهم لينالوا الشهادة.

فلما رأى ﷺ ذلك من رغبتهم دخل بيته ولبس لأمته وخرج وكان اليوم يوم جمعة والغزوة غزوة أحد[2].

ففى هذه الرؤيا ألهمه الله معرفة ما سوف يتكشف عنه الغيب متعلقا بتلك الغزوة وما دامت رؤى النبى لا شك تتحقق وترشده إلى ما أراد الله أن يعمل فذلك يتوضح به أنه كان ملهما فى كثير من مغازيه ومسلكه فيها موجه من قبل الله.

إنه ﷺ صاحب معجزات وهى ما اختصه الله بها وحده دون سائر البشر إكراما وإعظاما له من جهة وإقناعا لمن يهديهم بأنه إنما يصدر عن وحى يوحى وأنه بشر إلا أنه ليس ككل بشر.

---

(١) د. محمد عبد المنعم خفاجى. السيرة النبوية الخالدة ص٢٠٨ القاهرة.

(٢) د. سجادى: فرهنگ لغات واصطلاحات وتعبيرات عرفانى تهران سنة ١٣٥٤م.

وما من ريب في أن المعجزة دليل قاطع وليس ككل دليل على نبوة الرسول ﷺ وأنه كان يأتمر بما أمر الله تعالى به، وحاجته في الأحايين إلى أمارات غيبية – لا مجال فيها للمراء – تخفف من غلواء المغالين وتلزم الحجة المكذبين، إنها دلائل حسية تشاهد بأم العين بقدر ما هي دلائل عقلية لمن كانوا يعقلون. مثال ذلك أن خمسة من المشركين كانوا يضمرون له الحقد وإيقاع الأذى به ليشفوا موجدتهم وينفسوا عن خبث طويتهم وفساد قلوبهم، هؤلاء هم:

١ – أبو زمعة الأسود فلما بلغه أنه يتربص به الدوائر ويريد به السوء دعا الله عليه قائلاً: "اللهم أعم بصره، وأثكله ولده" واتفق أن أتى جبريل رسول الله ﷺ إذ هم يطوفون بالبيت فقام وقام رسول الله ﷺ إلى جنبه، فمر به أبو زمعة الأسود هذا، فرمى النبي ﷺ في وجهه بورقة خضراء، فذهب بصره.

٢ – ومر به الأسود بن عبد يغوث وهو ثانيهم فأشار إلى بطنه فاستسقى بطنه، فمات.

٣ – ومر به الوليد بن المغيرة وهو ثالثهم فأشار ﷺ إلى أثر جرح بأسفل كعب رجله وكان هذا الجرح قد أصابه بضع سنين، فانتفض به، فقتله.

٤ – أما رابعهم فهو العاص بن وائل فأشار إلى أخمص رجله، فدخل فيه شوكة فقتلته.

٥ – ومر به الحارث بن الطلاطلة الخزاعي، فأشار إلى رأسه، فامتخض قيحًا فقتله[1].

هذه أخبار يستدل بها على كثير، لقد أكرم الله نبيه إكرامًا وشاء أن يكف عنه شر شانئيه فاستجاب دعاءه وأهلك عدوه على نحو عجب بقدرته، وقدرة الله فوق المستحيل، إن النبي ﷺ لم يشد على هؤلاء من أعدائه بسيف ولا رشقهم بسهم ولكنه شكا أمرهم إلى الله راعيه وحاميه، وفي مثل هذا عبرة لمن يعتبر وعظة لمن يتعظ وإشارة إلى الله وحده، وقمين بالمكذب أن يصدق، وبالكافر أن يؤمن، والمتدبر المتفكر أن يقتنع بأن ثمة قوة إلهية غيبية وهي تلك القوة الغيبية التي ارتفعت بها كلمة الحق والدين، وقد تجلت تلك القوة فيما يبدو للعيان وغيره مما لا يدرك إلا بالإيمان.

وهذا رحالة تركي من أهل القرن السابع عشر ذكر في معرض كلامه عن أن الله يظهر المسلمين على المشركين ثم زاد قوله إن الله إنما أدال المسلمين من المشركين ببركات ومعجزات رسوله ﷺ [2].

---

(١) د. عبد المنعم خفاجي: السيرة النبوية الخالدة ص١٢١ القاهرة

(٢) اوليا چلبي. مصر وحبش سياحتنامه سي اونجي جلد ص٨٨ استانبول سنة ١٩٣٨م

فهذا الكاتب ذكر انتصار المسلمين على المشركين فى أول كلامه أصلا لا عرضا ولكن سرعان ما أضاف قوله إن ذلك كان ببركات النبى ﷺ .

وفى هذا نظر لأنه بمثل هذا من كلامه لا بد أنه كان على ذكر من غزوات النبى ﷺ . لأنه برهان قاطع على أنه كان على يقين جازم من أن هذه الغزوات إنما تجلت فيها معجزات، وكان ذلك ملء داكرته، وهو يقول هدا مطلقا عن موقف المسلمين من المشركين، ولكنه تحفظ فى كلامه وجنح إلى القول دون وعى منه إلى أن نصر المسلمين على عدوهم كان من معجزات النبى ﷺ ، إنه أشار إلى ذلك عرضا فى إشارة لامحة إلا أن إشارته تلك تدل على كثير.

ونذكر ما روته عنه عائشة رضى الله عنها (إن أول ما بدئ به ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح).

ومن ثم ندرك الصلة بين رؤياه وبين الوحى، يقول الكاشانى إن النفس إذا اتصلت بالنفوس العلوية تترسم فيها نقوش، وتعرف ما سوف يتكشف عنه الغيب، وهذا ما يقع فى عالم الرؤيا كما يقع فى عالم اليقظة وما يقع فى المنام هو الرؤيا الصادقة، وما يقع فى اليقظة يسمى المكاشفة وأما ما يقع بين المنام واليقظة يسمى الحسنة وإن رؤيا النبى ﷺ جزء من نبوته[1].

ومما قيل فى الرؤيا يراها المؤمن، أو ترى له وهذا تفسير قوله تعالى ﴿لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة﴾ ومع ذلك فإن تلك الرؤيا رؤيا صدق وتأويلها حق، وأن الرؤيا نوع من أنواع الكرامات[2].

هو ذا قول المتصوفة فى حد الرؤيا، والمتصوفة كلامهم أدخل ما يكون فى الروحانيات وأبعد ما يكون عن الماديات، فالرؤيا عندهم هى مصدر إلهامهم وهم على الدوام متعلقون بالإلهام، والمعرفة عندهم لا تكتسب ولا تجتلب وإنما هى نور يلقيه الله فى قلوبهم وحيا، وهذا الصوفى يقرر أن الرؤيا أول أمارة نعرفها له فى بدايته الأولى على أنه سوف يتلقى الوحى من بعد، وهما ربط بين الرؤيا والنبوة عند النبى ﷺ على الأخص، والمترتب على

---

(١) د سجادى فرهنگ لغات واصطلاحات وتعبيرات عرفانى تهران سنة ١٣٥٤م.

(٢) القشيرى الرسالة القشيرية ٣٦٤ — ٣٦٥ بيروت سنة ١٩٩٠م

ذلك فى الفهم أن ما رآه في منامه كان رمزًا يرشد إلى ما وقع لحمزة فى الغزوة التى لقى فيها مصرعه شهيدًا.

وكان ﷺ فى مغازيه رابط الجأش ثابت الجنان، فما وقعت فى قلبه خشية إذا ما انخلعت قلوب من حوله رعبًا فى يوم الكريهة، لأنه ﷺ إنما كان يصدر عن إيمان ويقين ويعلم أنه مؤتمر بأمر رب العالمين وإنما جاء بالهدى فما كان ﷺ محاربًا بالمفهوم المتعارف، بل كان محاربًا من طراز على حدة لا نعرف له فيه من شبيه، وهذا كله يضفى على معانيه خاصًا، فهى ليست بغزوات ولا بحروب وكفى، بل هى تتجاوز ذلك إلى غيوب لا يعرفها إلا علامها سبحانه وتعالى.

ونأخذ فى تمثل تلك الغزوات وتعرف بدايتها مع إيراد ما اختلف فيه أهل التاريخ من روايات وبذلك نكون قد مهدنا للتعرف على حد هذه الغزوات.

ففى العام الثانى للهجرة النبوية نزلت الآية الكريمة ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير﴾.

وبنزول تلك الآية كانت بداية الجهاد فى سبيل الله. وتضاربت أقوال أصحاب السير فى ذلك الجيش الذى أعده ﷺ سواء نشب القتال أو لم ينشب فهذا ما يسمونه غزاة أو غزوة أما إذا جمع فوجًا ليمضوا إلى أهل الشرك فهذا ما يسمى سرية.

وقال بعضهم إن الرسول ﷺ فى هذا العام، بعث بعبيدة بن الحارث على رأس ستين رجلاً من المهاجرين وقيل إنهم ثمانون إلى طائفة من قريش الذين كانوا خارج مكة وكان لهذه السرية علم أبيض قدمه إلى مسطح بن أثاثة كما ذكر غيرهم، وقال غيرهم إن هذا العلم هو أول علم من أعلام الإسلام رفع، وقطع هؤلاء المقاتلون المراحل إلى أن يلقوا المشركين وعدتهم مائتان وفى بعض الروايات أن أهل الشقاق والعناد كانوا تحت إمرة أبى سفيان، ولما تقارب الجمعان تراشقوا بالسهام، وأول من رمى من المسلمين سهمًا هو سعد ابن أبى وقاص وقد توهم عبدة الأوثان أن فئة أخرى من المسلمين تترصدهم ففروا هرابًا.

وكان سعد بن أبى وقاص يومئذ يحمل عشرين سهمًا وقد أصاب بها المشركين ولم يطش منه سهم واحد.

ويقول سعد: لما أشرفت قريش على الهزيمة قلت لعبيدة بن الحارث ينبغي أن نتعقب المشركين حتى نلحق بهم فقد انخلعت قلوبهم رعبا منا إلا أن أبا عبيدة لم يرتض منه هذا وخالفه فى رأيه، فلا جرم رجعوا إلى المدينة.

كما قيل إن حمزة كان أول من أمر ﷺ على الجيش وأول لواء عقد له، والسبب أنه طاف بسمع الرسول ﷺ أن جمعا من قريش مضوا فى تجارة إلى الشام، ثم عادوا فأمر حمزة بن عبد المطلب أن يمضى فى ثلاثين من المهاجرين ويحثوا خطاهم إلى القافلة، وإنه ﷺ قبل غزوة بدر لم يأمر أحدا من الأنصار بالجهاد فى سبيل الله على أنهم لن يبذلوا عونا إلا عندما يغير المشركون على المدينة ومجمل القول أنه أمر حمزة بالتوجه إلى القافلة[1].

هذا ما قاله مؤرخ فارسي وافق فيه كتب السيرة العربية ونأخذ فى بيان ما ذكر طرفا منه فنقول إنه يتفق مع ابن عبد البر فى أن السرية الأولى كانت سرية حمزة أو سرية عبيدة بن الحارث، إلا أن من أهل العلم المحدثين من قطع بأن السرية الأولى هى سرية سيف البحر لحمزة، وذلك فى رمضان من العام الأول للهجرة، أما سرية رابغ لعبيدة بن الحارث فكانت فى شوال من العام نفسه[2].

وكان عدد غزوات الرسول ﷺ التى كان فيها بنفسه غازيا سبعا وعشرين، ولقد قاتل فى تسع منها وهى: بدر، أحد، المريسيع، الخندق وقريظة، وخيبر، وفتح مكة، وحنين، والطائف. أما بعوثه وسراياه فسبع وأربعون، وقيل بل هى نحو من ستين.

ويقول أصحاب السير والرواة: "إن الغزوة هى تلك الحرب التى يحضرها النبى ﷺ بنفسه. أما البعث أو السرية فأن يبعث فيهما بأصحابه". ومنهم من عرف الغزوة محملا فقال: "الغزو الخروج إلى محاربة العدو"، وقد غزا[3] يغزو غزوا فهو غاز وجمعه غزاة وغزى، قال تعالى ﴿أو كانوا غزا﴾[4].

والمغازى مناقب الغزاة، وقد تكون مواضع الغزو أو الغزو نفسه[5].

---

(١) مير خواند. روضة الصفا ص٢٠٧ جلد دوم تهران سنة ١٣٢٨م

(٢) د. حسين مؤنس: دراسات فى السيرة النبوية ص١٢١ القاهرة سنة ١٩٨٤م.

(٣) ابن عبد البر الدرر

(٤) الراغب الأصفهانى. المفردات فى غريب القرآن ص٣٦٦ القاهرة

(٥) ابن منظور لسان العرب ص١٢٤ جـ٦١ بيروت

وفي قول أن الغزوة في اصطلاح أهل السير والحديث تطلق على الجيش الذى فيه النبي، أما الجيش لا يكون فيه فيعرف بالسرية.

وفي رواية أن غزوات النبي ﷺ أى التى حضرها تسع عشرة غزوة، وفي قول إحدى وعشرون. ويقول جماعة من أهل السير إنها أربع وعشرون. وفي رأى آخر سبع وعشرون. كما أن سرايا خير البرايا تزيد على الخمسين. إلا أنه قاتل بنفسه في تسع غزوات ليس غير، وأهل العلم يختلفون في أول سرية واختلفوا فى أى عام وقعت، أفي العام الأول أم في بداية العام الثاني[١].

ومما سلف ذكره يلحظ أن المؤرخين وأصحاب السير لم يجمعوا، على كلمة فى عدد غزوات الرسول ﷺ ، كما أن صاحب (حبيب السير) وابن عبد ربه اتفقا على تعريف الغزوة التى يحضرها النبى ﷺ بنفسه ورأوها تسعا. وننظر بعد ذلك في معجم أوردى لنجده يعرف الغزوة بأنها محاربة المشركين، وفيها يشترك النبى ﷺ بنفسه، وفي معجم تركى أن حد الغزوة أنها حرب من أجل الدين والحرب لتوطيد دعائم الإسلام ونشره فى غير المسلمين[٢]. غزوات أى أن يكون الإنسان محاربا جيدا من أجل الإسلام[٣] وفي معجم فارسى أن الغزوة هي الحرب مع عدو الدين[٤] وفي موسوعة فارسية أن الغازى هو قاتل الكفار[٥].

والملحوظ أن الغزوة ذكرت بمعناها الاصطلاحى ولكن في معظم ما أوردنا ذكره لم يذكر أن النبى ﷺ حضرها، وهذا خطأ صراح لا نميل إليه كما أننا لا نميل إلى معنى الغزوة على أنها محاربة الكفار سواء حضرها النبى أم لم يحضرها.

وهناك اعتراض على ما أورد دهخدا في موسوعته من أشعار لبعض شعراء الفرس يمدحون فيها ملوكا حاربوا كقول الشاعر:

"في غزوة واحدة غنم ألفا من الفيلة وكان له ثلاثمائة وخمسون في حمله"[٦].

---

(١) حوالد امير: حبب السير ص٣٣٤ جلد اول تهران سنة ١٩٥٣م

(2) Ferozsons. Urdu English Dictionry P 516 (Lahor).
(3) Develhovlu, Kilen' enyeni Biiyuk Turkce sozluk S 434 Istambul.
(4) Red hause: Turkish and English lexicon s. 1343: London 1896

(٥) حسن عميد: فرهنگ عميد تهران.

(٦) دهخدا: لغت نامه ص٢١ شماره مسلسل ٢٧ جـ ٣٦ تهران ١٣٣٥

بيك غزات قريب هزار پيل آورد   از آن كرفته پيك حمله سيصد وپنجاه

"يا كم له من غزاة غير ما ذكرت، هلا عدت وفى عزك ورفعتك استقررت"(١).

"بغزوة غزوتها وتغزو مائة عام الكفار، عرفت أرض الكفر الفرق بين الماء والنار"(٢).

وبالتعقيب على هذه الأبيات نقول إنها قيلت فى مدح السلطان محمود الغزنوى من أهل القرن الرابع الذى اتسعت فتوحه في أرض الهند.

ومما يلحظ أن الشعراء يمدحونه على الأخص معجبين بجبشه اللجب وفيلته العظام الضخام التى تغير على العدو فتورده موارد البوار والخسران.

ويتغنون بمجده وما بعده مجد ويقولون إنه أخذ على يد الكفار ودوام على غزوهم لا ينقطع عنه.

والمستخلص من هذا أنهم لم يشيروا إلى أنه جاهد فى سبيل الله، ولا أنه صرف شر وأذى المشركين عن المسلمين بل كان قصاراهم أن يجعلوا اتساعه فى الفتح من محامده ومناقبه، كما أنهم لم يذكروا أنه كان فى معية جيشه غازيا تواقا إلى الشهادة التى تبلغه الجنة.

والمترتب على ذلك فى الفهم أنهم عرفوا الغزو ولكن لم يبرزوا أهم صفاته، أى أنهم عرفوه ضمنا فى عموم وشمول، وبذلك كان الغزو فى كلامهم متطورا فى معناه عن معناه الذى ألفناه فى غزوات المسلمين على عهد النبى ﷺ ، وما دام الشيء بالشيء يذكر نقول إن معنى الغزو يتوضح معناه عند الترك على نحو آخر. فمما يروى عن السلطان سليم وهو أمير قوله أنه عاهد الله على أنه إن قدر له أن يعتلى عرش آل عثمان أن يغزو الشراكسة فى مصر على أنهم قوم فاسقون كافرون.

ولسليم أن يقول ما شاء، ولكننا لا نعرف هذا من صفتهم كما نعلم أنه قاتلهم لأسباب أخرى يطول الكلام فيها ولا يتسع المقام له.

والمعول عليه الذى يعنينا فى مقامنا هذا انه ادعى أن كفر الشراكسة هو داعيته إلى غزوهم.

فكأن الكفر وحده هو الذى أضفى على غزوه مصر خاصا من صفاتها.

وهذا الشاعر التركى (باقى) قال فى رثاء السلطان القانونى ذاكرا ما أنجز من مهام وما نال من مجد وسؤدد:

---

(١) حرايكه كعتم حمدان عروات ديكر كرد   نيا ركشتن سوى مقام عـرو مقـر

(٢) نيك عرات كه كردى وهم كر صد سال   كرفت نفعهء كفر اعناواز آتش وآب

"فى كل موطىء لحافر فرسك إذا غدا وراح، بذل الملوك فى طريقه الأرواح، كأنك سيف له فى أطراف الأرض صيال، وبه شددت على كل متمنطق بالحديد من الأبطال. استوليت على ألف بيت صنم جعلت منها مساجد، وفى موضع الناقوس صوت الأذان صاعد"(١).

وبهذا من قول هذا الشاعر التركى يستبين لنا كيف أن معنى الغزو اتسع معناه فأصبح جهادا فى سبيل الله وبين أنه محاربة المشركين خصيصا وليس محاربة غيرهم.

ويقول لامعى فى مقدمة كتابه المترجم عن الفارسية (نفحات الأنس) واصفا فتح السلطان سليمان القانونى لقلعة بلغراد: "إن عساكر الإسلام تحمل الأعلام وبها للنصر أعلام انقضت على قلعة بلغراد، تلك القلعة التى هى لدار الكفر ركن ركين ولديار الشرك حصن حصين. فقال السلطان سليمان ﴿لا عاصم اليوم من أمر الله﴾ ففتحها فى أدنى زمان وكان ذلك فى شهر رمضان من عام تسعمائة وسبع وعشرين(٢).

ومن هذا الوصف للامعى لفتح السلطان سليمان القانونى لقلعة بلغراد يتبين لنا أن ذلك الفتح أشبه شىء بغزوة لسلطان من سلاطين الإسلام لأرض قوم غير مسلمين، يقول إن عساكر الإسلام خصوصا، ويجرى على لسان السلطان آية قرآنية ويجعل القلعة قلعة فى بلاد الكفر، وذلك كله أكيد الدلالة على أن تلك الحرب إنما تجرى عليها صفات الحرب الدينية أى الغزوة.

وهنا مجال لعقد المقارنة مما يجرى به السياق، فنقول إن سلاطين الغزنويين كانوا يخرجون لغزو الهند على رأس جيوشهم والسلطان محمود الغزنوى من أهل القرن الرابع عرف التاريخ له أنه هو (بت شيكن) بمعنى محطم الصنم ذلك الصنم هو (سومنات) فى الهند وبذلك يكون سلطانا غازيا لأن الله نصره نصرا مبينا على عبدة الأوثان الذين خرج إليهم لتقويض ملكهم وإذهاب ريحهم.

---

(١) هرقنده باصه باى سمندكو شا الحون   خانلر يولكده حمله روان ايتدى جانلرى
شمشير كبى روى زمينه طرف طرف   الدكودمور توشاقلو جهسان بهلوانلرى
الدك هزار بتكده لى ايلدك ناقوس برنده او قوتدك اذانلرى.

(٢) لا معى: نفحات الأنس ص٩ اسطنبول سنة ١٢٧٠هـ.

وبعد محمود الغزنوى جاء مسعود، وحارب مثله حروبا فى الهند، والغزنويون مسلمون سنيون.

ونلتفت بعد ذلك إلى السلاجقة فى إيران فنجد أن سيرتهم هى سيرة الغزاة المسلمين، فهم سنيون أتراك، ونذكر منهم (ألب أرسلان) وكان له وزير سديد الرأى عظيم الحكمة يسمى (نظام الملك) فشاوره فى تحديد سياسة الدولة فاتفقت كلمتهم على أن تفتح الدولة السلجوقية بلادا حتى تتسع رقعة ملكها ويعظم شأنها.

وكان أرسلان كعمه أرطغرل قائدا فاعتزم أن يفتح بلاد المسيحيين كبلاد الأرمن وبلاد الروم وجورجيا. ذلك أن فتح بلاد المسيحيين سوف يمنح سلاطين السلاجقة شرف الجهاد فى سبيل الله ونشر كلمة الحق فى الآفاق وبذلك ترفع راية الإسلام عاليا فى أرض الله الواسعة واتجه ألب أرسلان غربا ففتح بلاد الأرمن وجورجيا والروم.

ولما أدرك (رومانوس) البيزنطى خطته جمع جيشا عظيما من عدة شعوب مسيحية وتبين ألب أرسلان أن المسيحيين إلب عليه، ورأى من الحكمة أن يرسل رسولا إلى رومانوس الرومى يعرض عليه الصلح، ولكنه أباه وكرهه كرها شديدا.

فما كان من ألب أرسلان إلا أن قام فى جنده خطيبا فأخبرهم أن أرمانوس الرومى يتهددهم بخطر داهم، ولزام عليهم أن يهبوا للقضاء المبرم على تلك العصبة الفاجرة، ليأمن الإسلام كيدها ومكرها، وبذلك أثار حميتهم وألهب حماستهم ودعاهم إلى الجهاد فى سبيل الله[1].

أما خلفاء بنى العباس فعلى حد علمى لم يخرجوا للجهاد بمفهوم معناه، وإن خرج منهم المعتصم لفتح عمورية، وسبب الفتح أن ملك الروم خرج إلى بلاد المسلمين فنهب حصنا من حصونها، يقال له (زبطرة)، وقتل من به من الرجال، وسبى النساء، وقيل إنه كان فى السبى امرأة هاشمية، صاحت قائلة: وامعتصماه.

وبلغ المعتصم ما صنع ملك الروم بالمسلمين، فاستعظمه واستشبعه وكبر عليه، كما بلغه ما قالت المرأة فى استغاثتها، فقال وهو فى مجلسه: لبيك لبيك!! ونهض وصاح الرحيل الرحيل ثم امتطى صهوة فرسه وتجهز للحرب، فتوجه المعتصم إلى عمورية فجمع عساكره عليها، وحاصرها، ثم فتحها وقتل وسبى[2].

---

(١) د. عبد المنعم حسنين: سلاجقة العراق وإيران ص ٥١ – ٥٦ القاهرة سنة ١٩٧٠م

(٢) ابن طباطبا الفخرى ص ١٧٢ القاهرة سنة ١٩٢٧م.

ولا نعرف عن الخلفاء العرب فى الأندلس أنهم فى حربهم مع الملوك المسيحيين كانوا على نية الجهاد.

وإذا انتقلنا إلى الفرس، ونعنى بهم ملوك الدولة الصفوية فى القرن العاشر الفينا أنهم فرضوا المذهب الشيعى فرضا على الدولة، واضطهدوا كل مذهب سواه وكانوا على رأس جيشهم يحاربون العثمانيين والأوزبك وهم من الترك هؤلاء وهؤلاء على المذهب السنى وبذلك تكون حربهم حربا مذهبية وإن جعلوها جهادا.

كما أن أمراء الدولة الحمدانية فى الشام حاربوا بأنفسهم ورغبتهم فى المقام الأول فى الفتح وتوسيع رقعة دولتهم وصد من يغيرون عليها.

ونضيف إلى ذلك أن الطوائف المعروفة (بقزلباشى) الذين كانوا على المذهب الشيعى، وذلك ما بعثهم على أن يظاهروا ويؤيدوا الأسرة الصفوية فى إيران، قد التفوا حول الشاه إسماعيل الصفوى فنصروه وشدوا أزره فيما خاض فيه من غمرات الحروب والفتح والجهاد فيما يزعمون، ولقد تردد الصدى لهذا من نزعة الصفويين إلى ما عدوه غزوا وجهادا فى شعر[1] عهدهم. فها هو ذا الشاه إسماعيل الصفوى يذهب بنفسه ويتيه تيها ويدخله الغرور.

فيقول بيتا من الشعر التركى هو [أنا الشاه إسماعيل سر البارى، ولى السيادة على كل غاز مغوار][2].

إنه يريد أن ينصب نفسه على رأس أتباعه ممن يغزون فى رأيه من ليسوا على المذهب الشيعى، وقال شاعر من شعراء الفارسية:

[حمدا لله رب العالمين، لقد تحققت لى رغبتى فى أن أكون من الفدائيين المقتولين][3].

فهذا الشاعر يريد أن يبذل روحه فداء لمذهبه لا لإسلامه. وقال شاعر فارسى يصف ممدوحه بالنجدة والبسالة فى حومة الوغى بالغزاة وهو إن لم يصرح بأنه يشبهه بالغازى

---

(١) د. عبد السلام فهمى القزلباشى ص٣ القاهرة سنة ١٩٩٢م

(٢) منهم شاه إسماعيل حقنك سريم   كه مرجه غازيلرنك سروريهم

د. نصر الله فلسفى زندكنى شاه عباس اول – المقدمة ص – ط١ تهران.

(٣) مست اردراكه بروفق مراد خويشتنى   رود درحيل فدائى كشتكان كشتم دخيل

المسلم على عهد النبى ﷺ إلا أن يكون غازيا مجاهدا ولكن بالمفهوم الراسخ فى عقيدته ويشبهه فى ذلك من يعرض صورة لممدوحه على النحو التالى:

[مجاهد يهدد بما أوعد، فيكحل بتراب طريقه عيون عباد الصمد عبيد الصنم][(1)].
والمستخلص من كل ما سلف فى تصور الجهاد أن سلاطين العثمانيين جعلوا هذا الجهاد أصلا من أصول سياسة دولتهم لا معدى عن إغفاله وإهماله، فكانوا يخرجون على رأس جيوشهم وهم يعدون أنفسهم حماة الإسلام الذين يبذلون قصاراهم فى الحفاظ على كيانه، وكانوا يطلقون على سلاطينهم لقب الغازى على هذا الأساس والاعتبار.

إلا أنهم فى القرن السابع عشر أو ما يقرب لم يخرجوا بأنفسهم محاربين، وقيل إن ذلك كان العلة فى أن دب دبيب الضعف فى جيوشهم خصوصا ودولتهم عموما، إلا أنهم مع ذلك لم ينسوا مفهوم الجهاد، لأنهم أطلقوا لقب الغازى تشريفا حتى على من لا يحارب بنفسه، كالسلطان عبد الحميد مثلا، وأطلقوا هذا اللقب على أتاتورك تعظيما وإجلالا، وهو الذى حارب دون أن يكون على ذكر من معنى الجهاد.

أما سلاطين السلاجقة فتولوا قيادة الجيوش وهم مؤمنون بالجهاد وبضرورة أن يتسعوا فى الفتوح ليكون المجد لدولتهم الإسلامية.

أما خلفاء العباسيين فلا نتبين أنهم قادوا جيوشهم بأنفسهم للجهاد وما كان من المعتصم لا يعد جهادا بصريح المعنى؛ لأنه إنما اشتد عليه أن يغير الروم على حصن له وأن تستغيث امرأة وتستعديه على الروم دون أن يحرك ساكنا ويخرج محاسبا.

وملوك الصفويين الشيعة إنما حاربوا أهل السنة من العثمانيين والأوزبك المسلمين مثلهم، وما كان ذلك منهم سوى تعصب لمذهبهم الشيعى الذى أرادوا له البقاء والازدهار وحده دون وجود مذهب سواه للمسلمين.

وتأسيسا على هذا كله ننظر نظرة أخيرة إلى حد الغزوات والجهاد فى سبيل الله فنقول:

الغزو: هو قصد القتال مع العدو (لغة) وشرعا: خص بقتال الكفار؛ وفى اصطلاح أهل السير: هو الجيش القاصد لقتال الكفار الذى كان النبى ﷺ فيه؛ وأما الجيش الذى لم يكن فيه النبى ﷺ فيسمى سرية وبعثا[(2)].

---

(1) مجاهديكه رتهديد او يانيده كشعـد عـار رواه عـاد صمد عبيد صنم

(2) التهانوى كشاف اصطلاحات العلوم والفنون ص١٠٩٩ لسان حـ٥

وفيما أسلفنا من قول عن الغزوات والجهاد كل الدلالة على أن الجهاد لحق به تطور ملحوظ على مر العصور، وتفاوت أدب الملوك فى رؤيتهم لما يعملون؛ فقد رأيناه يتسع فى المعنى اتساعا يصرفه عما كان عليه فى صدر الإسلام، كما وجدناه يضيق على نحو لم يكن له من قبل وجود. وإن مفهوم الجهاد يتضح لنا فى أجمل مظهر وأكمل معنى وأصح تفسير إذا ما ذكرنا قوله ﷺ فى غزوة أحد وقد جرحت إصبعه الشريفة:

"هل أنت إلا إصبع دميت وفى سبيل الله ما لقيت".

وبالنظر إلى هذا من قوله ﷺ نذكر أن الله تعالى نفى عنه قول الشعر بقوله فى محكم آياته ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغى له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين﴾ وكان ﷺ لا يقيم وزن الشعر إذا تمثل بيتا منه بل يتمثله مكسورا، ومع كونه أفصح فصحاء العرب قاطبة لم يكن ينشد بيتا تاما على وزنه، بل كان ينشد صدره أو عجزه وهذا ما قال به الجاحظ والروايات به متواترة(١).

وإن هذا من شأنه – صلوات الله وسلامه عليه – ليستدرجنا إلى الرغبة فى مزيد من معرفة به.

ولقد ساق الألوسى فى هذا كلاما يطول، ونحن نوجزه ونستلخص منه.

قال فى نفى قول الشعر عنه: إنه لو كان يقول الشعر لتطرقت التهمة إلى كثير من الناس فى أن ما جاء به إنما هو من عنده ومن قبل نفسه، والقرآن الكريم من شاعريته، ولذلك قيل: ويحق القول على الكافرين؛ لأن الريبة إذا انتفت لم يبق إلا المعاندة، فيحق القول عليهم.

ومن أهل العلم من ذكر أن قول الشعر محرم على الأنبياء قاطبة، ومن قال إنه خاص به ﷺ إكراما له وإعظاما.

وإن أعظم معجزاته القرآن الكريم، فربما تحصل التهمة فيه لو أنه قال الشعر.

وكان ﷺ إذا تمثل ببيت من الشعر لم يقرأه على وجهه فقد قرأ قول الشاعر:

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك من لم تزود بالأخبار

ولما ذكر البيت على هذا الوجه قال له أبو بكر ليس هكذا يا رسول الله، فرد عليه قائلا، والله ما أنا بشاعر ولا ينبغى لى.

---

(١) مصطفى صادق الرافعى: إعجاز القرآن ص ٤٠٠ القاهرة سنة ١٩٢٨م.

وروت عائشة – رضى الله عنها – أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يحب الشعر.

كما روى عنه ﷺ أنه قال: "لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا خيرا من أن يمتلئ شعرا"(١).

غير شك أن هذا بحذافيره يؤكد تلك الحقيقة ويقررها.

وهنا ما لا ينبغى إغفال ذكره على أنه ﷺ مع أنه لم يقل شعرا إلا أنه بفضل سلامة طبعه وأصالة ملكته وما وهب له الله من فصاحة ولسن كان يتذوق الشعر ويطرب له.

قيل إن أحد الصحابة عاد من إحدى الغزوات وكان مثخنا بجرح فحاول بعض الصحابة أن يضمدوا جرحه إلا أنهم لم ينفعوه بشىء.

فما كان من حسان بن ثابت إلا أن قال ائتونى بكافور، وأخذ قبضة منه ووضعها على جرحه الدامى، فانقطع جريان الدم، وسأله الرسول ﷺ عن ذلك فقال حسان سمعت الشاعر يقول:

فكرت ليلة وصلها فى هجرها ... فجرت بقايا أدمعى كالعندم

فطفقت أمسح أدمعى فى نحرها ... إذ عادة الكافور إمساك الدم

فما سمع هذين البيتين صلوات الله وسلامه عليه حتى قال: "إن من الشعر لحكمة وإن من البيان لسحرا"(٢).

لقد وقع هذان البيتان وهما من الروعة فى أعلى مرتبة – موقع الإعجاب عنده ﷺ مما ينهض دليلا على أنه ﷺ كان ذاوقة يبصر الشعر.

أما نحن فلنا رؤية خاصة فى ذلك منعقدة الصلة بمفهوم المجاهد وبنفسيته وعقليته وبشعوره وتفكيره وهو يجاهد فى سبيل الله كأننا به وهو يشاهد إصبعه ومنها الدم جار يرى أن الله أكرمه بنعمة سابغة وهو يقاتل، فسر لذلك سرورا ما بعده من سرور، وسبحت روحه الطاهرة فى الملكوت الأعلى وراح فى نشوة إيمانية لا تعدلها نشوة وأحس كأنه أشبه ما يكون بالشهيد وهو يخر صريعا فى ساحة الجهاد، لينال الأجر الأجزل الأوفى عند ربه وهو جنات النعيم كأنه ﷺ تخيل ذلك وامتلأت به رحاب نفسه فانفعل.

---

(١) الألوسى روح المعانى، ص٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٥. جـ٧ ط. بولاق ١٣٠١هـ.

(٢) الحبيب شيبوب. الجانب الشعرى عند خرز بن خلف ص١٨٣ تونس ١٩٩٤م

ومن المعلوم أن الانفعال تمس الحاجة فيه إلى تعبير، والتعبير عن الانفعال أغلب ما يكون صورة مختلجة أو حركة أو كلاما فى إيقاع وتنغيم، ولذلك جرى على لسانه هذا الكلام، وهو من الرجز وليس شعرا بالمعنى الصحيح الحق، وإنما دفعته نشوة الفرح ببذل قطرة من الدم فى سبيل نصرة الإسلام فقال كلاما لم يقصد به إلى أن يكون شعرا، بل ليقول إن إصبعه دميت وما أهون عليه أن تجرح إصبعه بل ما أحب إليه أن تجرح إصبعه فى سبيل الله.

البيت ليس من عيون الشعر ولا تجرى عليه صفات الشعر فهو تقرير عن شىء وقع وتعبير عن شعور فى عبارة غاية فى يسرها وسهولتها، ولا أثر فيه لخيال الشعراء الذى طالما حجب الحقيقة وصرفها عن العقل صرفا، فلم يبق إلا أن يكون هذا البيت من الشعر صورة لشعوره وتفكيره وهو يجاهد أعداء الدين، إنه أروع مثال لتعبير المجاهد وتفكيره وهو يبذل الروح ويود أن تسيل تلك الروح على حد سيف من يقاتله ليرتفع بذلك إلى مرتبة الصديقين والشهداء، والنبى ﷺ يعرض الأسوة عرضا جميلا.

ويا ليت كل مجاهد مثله فيما عبر وتفكر لو أنه ﷺ كان ممن يقولون الشعر لسبق إلى الفهم أن خياله صور له ما كان من قوله، أما أن يتأكد نفى الشعر عنه بقول الله وصحيح الخبر فتلك معجزة حقا من معجزاته، وصورة جلية للروحانية الإيمانية التى ينبغى أن نلتفت إليها، وندرك الفياض من معانيها، ونرى من الخير بعد ذلك أن نتناول بالتعقيب والتعليق رأى بعض كتاب الغرب فى غزوات النبى ﷺ .

هو ذا من يقول: "إن الإسلام دين انبثق من الصحراء وهو تصور الصحراء لله، والنبى نظر إلى العالم حوله نظرته إلى من جاوره من القبائل الوثنية وكان العالم مجالا واسعا يمد جيشه بالغنائم، ولذلك قسم إلى دار سلام ودار حرب وصنيعه فى الحرب، كان صنيع شيخ قبيلة يسعى إلى سلب ونهب ما قبيله من قبائل، وكان البادئ بالعدوان، وقاد أتباعه إلى خوض حروب، ومن الدليل على ذلك اعتداؤه على يهود خيبر وبنى قريظة"[1].

وقول هذا المؤلف منقوص من أساسه، ظاهر البطلان، يدل دلالة واضحة على أنه لم يفهم ما وقع له من معرفة بالدين الحنيف ورسول الله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، إنه ﷺ لم يحارب رغبة فى فتح وتوسيع رقعة أرض، بل حارب ليرد كيد ومكر وأذى المشركين عن دعوته إلى الهدى.

---

(1) Wilson: The Expansion Of Islam PP 16, 18 (London 1928).

وكان له فضل المنافح الذائد عن دينه، وتشبيهه بشيخ قبيلة يغير على قبيلة أخرى سالبا ناهبا لا يقول به عاقل، إنه – وكذلك أصحابه المجاهدين – لم يطمعوا في غنيمة بل طمعوا في ثواب الآخرة بالدفاع عن دينهم وصد أذى المشركين عنه.

ونعود إلى موقف اليهود منه ﷺ لنرد هذا المؤلف إلى نحره.

أول ما يقال في هذا الصدد أن عجوزا من يهود دست له السم في كراع شاة فتأذى به، وكان السقم منه يعاوده في كل عام، ومما لا ريب فيه أن هذا أخس عدوان ودليل على أن قوم هذه المرأة جميعا كانوا يضمرون الشر والضر.

حكوا قالوا: "إنه صلوات الله وسلامه عليه كان ذات يوم جالسا في صحبه، واتفق أن مرت جنازة ليهودي، فما كانت منه إلا أن وقف إجلالا لهيبة وحرمة الموت، وأخذ العجب مأخذه من صحبه، فما صبر قائلهم أن قال له إنها لرجل يهودي، فما كان من قوله له إن اليهودي وغيره عنده في هذا بمنزلة سواء. فالبون بعيد بين سماحته وكرم سجيته وبين ما لعجوز يهودية من خبث وكيد.

ومن الأجدر في هذا المقام أن نشير أول ما نشير إلى أنه قد خد في نفوس اليهود أن يكون خاتم الأنبياء من العرب لا منهم، فدب دبيب الحسد في نفوسهم وهم الذين عيل صبرهم في انتظار نبي، بل أغضبهم من الله تعالى أن يبعث نبيه الكريم، ولما رأوا أن القرآن جاء مصدقا لما جاء في التوراة، تعلق أملهم بأن يحاربوا مشركي العرب أول الأمر ولم يؤمنوا بالقرآن، وبذلك اشتد عداؤهم خصوصا بعد أن قامت للإسلام دولة في المدينة وكان عداؤهم للإسلام يبدو بين الفينة والفينة حتى بعد تحالفهم مع المسلمين وما كان هذا ليخفى عن النبي ﷺ ولذا كانت رغبتهم في الدخول مع النبي ﷺ في نزاع وصراع[1].

أما ما يتعلق بيهود خيبر فقد خرج أول العام السابع للهجرة لقتالهم، وقد حاصرهم وقسرهم على أن يسلموا بعد أن نصره الله عليهم. وشرط بناء على التسليم منهم أن يحقن دماءهم[2].

---

(1) Ihsan Suroyasırma Islam Tobhyın medıne Donemi Ve Cihad S (4142) Istanbul 1986

(٢) عبد الشافي عبيم و د. محمد عبد الحميد عيسى. التاريخ الإسلامي ص ٩٢ القاهرة سنة ١٩٨٥م

ولما خرج ﷺ إليهم؛ خرج يهود خيبر بمساحيهم ومكاتلهم فلما رأوا الجيش، قالوا: "محمد والله محمد والخميس". ثم رجعوا هاربين إلى مدينتهم، فقال ﷺ : "الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين".

فجهد المسلمون وذبحوا الحمر فنهاهم عن ذلك ثم صالح يهود على أن يجلوا وله ما حملت ركابهم. هذه خيبر فتح شطرها عنوة وشطرها صلحا[1].

فالمتحصل مما سلف ذكره أن النبى ﷺ فى محاربتهم لم يعنف بهم وما كانت فى حربه بشاعات ولا شناعات مما يدعوا إلى القول بأن محاربتهم لهم كانت أمرا إدا كما يدعى بعض المغرضين المتعصبين.

ولقد كانت رغبة المسلمين أن يصدق اليهود محمدا ﷺ وأن يكون علمهم بالكتب السماوية وإلفهم لأحاديث الأنبياء سببا فى إقناع العرب الأميين بأن الرسالات السماوية حق والإيمان بها واجب.

ومن أسف أن اليهود كانو يضمرون الحقد ولهم أسوأ الظن. فكانوا يعينون عليهم ويتربصون بهم الدوائر، ولو لم يكن هذا من جانبهم لتركهم النبى ﷺ وشأنهم يتعبدون فى بيعهم وهم آمنون، وكفوا عن مذمة الأنبياء وتجريحهم. أما أن يسعى اليهود فى هدم دولة الإسلام وينضموا إلى أهل الشرك ليصبحوا إلبا على المسلمين فهذا ما لا يكون أبدا، وكان لزاما أن ينصدى المسلمون لهم وبوقفوهم عند حدهم ويصدوا عنهم عاديتهم.

وبلغ من عداوتهم للنبى ﷺ قولهم له بعد أن نصره الله فى بدر نصرا مبينا:

"لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة. أما والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس"[2].

أما يهود بنى قريظة فقد عاهدوا الرسول – صلوات الله وسلامه عليه – على أن يكونوا معه، وألا يمالئوا عليه عدوا، بالانضمام إليه رغبة فى أن تكون الغلبة لهذا العدو. بيد أنهم نكثوا عهدهم وخانوا أمانتهم وتخونوا ما ائتمنوا عليه، ولكن الله تعالى حفظ دينه الحنيف وأنجاه من مكرهم وكيدهم.

---

(١) محمد بن عبد الوهاب: مختصر زاد المعاد، القاهرة ص ١٦١ ، سنة ١٩٨٧م

(٢) محمد الغزالى. فقه السيرة، ص٢٥٨ ٢٥٩، القاهرة، سنة ١٩٨٧م.

وخبر ذلك على وجه الإجمال أن المشركين حشدوا حشودهم من كل صوب بتحريض من اليهود وانضموا إلى أعداء الدين لأنهم رأوا فى انضمامهم إلى المشركين قوة لهم وعونا على المسلمين.

وقد عقدوا نيتهم على أن ينصر الله دينه ويهلك عدوه، فسلط عليهم ريحا صرصرا عاتية. عصفت بهم، وشتت جمعهم أباديد؛ ولم يكتف اليهود بذلك بل تحينوا هذه النهزة وتكاتفوا مع المشركين متخونين ما بينهم وبين النبىﷺ من عهد فما كان لهم إل ولا ذمة؛ وطاف بسمع النبى ﷺ ما كان من خيانتهم ونقضهم لعهدهم، وانضموا إلى الأحزاب فكانوا إلبا عليه، إلا أنه ﷺ شاء له كرمه وسماحته أن يستوثق من أمرهم فأرسل إليهم من يتعرف خبرهم. إلا أنهم ردوا عليه بذم النبى ﷺ وأكدوا أنهم يضمرون له العدواة والخيانة وبلغ بهم الأمر أن يصرحوا قائلين إنه لا عهد بينهم وبين النبى ﷺ ولا عقد[(١)].

وهكذا كان يهود بنى قريظة غدارين ختارين ووقفوا من النبى ﷺ هذا الموقف المخزى.

ومع هذا مما صنعوا وبئس ما صنعوا، وما ينصب ذلك المؤلف من نفسه مدافعا عنهم ومنصفا لهم فيعرضهم فى صورة المغلوبين وهم الظلامون فيمسخ الحق ويطمس الصدق ويبرئ ساحة قوم من الظلم وهم أظلم من ذئب.

وكأنما شاء أن يدافع عن أبناء دينه فى الزمان الخالى فقال عنهم ما قال.

أما قوله فى صدر كلامه "إن الدين الإسلامى هو دين الصحراء وإنما هو خاص بأهلها" فهذا منه بهتان عظيم وجهالة جهلاء.

إن الوحى نزل على النبى ﷺ فى مكة والمدينة فهما مدينتان عظيمتان ولم ينزل عليه فى الصحراء ولا فى العراء، كما أن هذا الدين الحنيف هو الأصل الذى أنتجت عنه الحضارة الإسلامية تلك الحضارة التى سودت المسلمين فى أكناف الأرض وهى أعظم حضارة عرفتها الدنيا.

ولو تذكر ما قال علماء الغرب خصوصا عن هذه الحضارة ما خفى عليه أن أوربا استمدت من حضارة المسلمين فى الأندلس أهم عناصر حضارتها، وللباحثين فى هذا كلام بطول ويكفى فى التدليل على ازدهار الحضارة الإسلامية فى الأندلس وفضلها على أوربا ما قيل من أنه اعتبارا من القرن الرابع عشر للميلاد، استخدم الصابون فى حمامات إنجلترا وفرنسا وألمانيا، وذلك أخذ عن عرب الأندلس.

---

(١) ابن هشام: سيرة ابن هشام ص ٢٢٠، ٢٢١ القاهرة سنة ١٩٣٦م

وكان اليهود والمسيحيون يشتغلون بترجمة الكتب العربية إلى اللاتينية، وبذلك نشروا فى أوربا علوم العرب، وكان الباحثون عن الحكمة والفلسفة فى جميع أوربا يتوافدون على الأندلس للدراسة فيها، ففضل العرب على حضارة أوربا غير مجحود[1].

ومثل هذا المؤلف غير واحد. فمنهم من أخرج كتابا بعنوان (سيف الإسلام) متهكما مستخفا، وهو يرمى من وراء ذلك أن يدعى أن الإسلام إنما قام على حد السيف، ومما أورده فى كتابه خبر يمهد له قائلا إنه أضحوكة الأضاحيك.

أما مجمل هذا الخبر فهو أن فتاة عربية كانت واقفة فى السوق فإذا بيهودى يرفع ذيل ثوبها إلى عنقها، مما أثار ضحك من كانوا فى السوق حولها من اليهود وما رأى ذلك عربى حتى ثارت حفيظته والتهبت حميته واشتد عليه من يهودى أن يصنع هذا مع فتاة عربية، فما كان أسرع من أن يقتل اليهودى، وأفضى ذلك إلى أن تتحمس العرب واليهود لأن يقاتل بعضهم الآخر، والمؤلف يتوهم أن ذلك سبب من أسباب حملت العرب على محاربة اليهود، ويقول إن النبى ﷺ إنما كانت رغبته أن يستأصل شأفتهم[2].

ومن عجب أن يذهل هذا المؤلف عما هو فى بداءة العقول. لقد ذهب عنه أن ما صنعه هذا اليهودى مع الفتاة العربية إنما كان الدافع إليه أن يؤذى العرب فى عرضهم، وأن يلحق العار والشنار على مثل هذا منه، فمثل هذا أول ما يثير حفيظتهم ويشعرون كل الشعور بأن فيه كل مهانة لهم، فانبعثوا يثأرون لكرامتهم وما من عجب بعد ذلك فى أن يقتلوا ذلك المعتدى وأن يجتمعوا على دفع ما لم يستطع عليه صبرا ولا وسعهم أن يجدوا له مبررا ولا عذرا.

أما أن يدعى المؤلف أن ذلك عمدة السبب فى سخط العرب على اليهود ورغبتهم فى القضاء عليهم فوهم لا يستقيم فى عقل عاقل.

والمؤلف يبنى عليه أحكاما فيقول: " إن غزوة بدر التى نصر الله فيها المسلمين كانت تجربة ناجحة للنبى ﷺ فى حرب اليهود والمشركين وهو الذى أراد أن يبدد شملهم ويذهب ريحهم، فما أغمد حسامه من بعد هذا كله من مفتريات وضلالات من يتصدوا لإبداء رأى فاسد وهم أعجز ما يكون عن دعم الدعوى بدليلها.

---

(1) Macabe, The splendour of moorishspain, SS 193 377 London 1935

(2) Wollaston The sward of Islam S 62 London 1905.

لقد تناسى المؤلف الغربى ما جبل عليه المسلمون من سجية وما تركز فى ط
وتقاليدهم. إن لنا شاهدا لغويا يبين موقف المسلم من المرأة، فكلمة (عورت) بمعنى
تأتى فى الفارسية والتركية بمعن الزوجة أو المرأة، فالمستفاد من ذلك أن المسلم يعا
أشبه شيء بالسوءة التى لا سبيل إلى الكشف عنها، فعنده أن المرأة ينبغى أن تحتج
عين الغرباء حفاظا لها مما يسيء إلى كرامتها وبذلك يبين أن العرب كانوا على الحـ
صنعوا حيال ذلك اليهودى الذى أراد أن يستفزه وكأنما ما صنع تحريشا أفضى
أفضى إليه إلا أن ما وقع لم يكن وحده سبب سخط النبى ﷺ والمسلمين على ا
ومحاربته لهم.

ومن مؤلفى الغرب من أراد أن يتعمق نفسية المجاهدين فى سبيل الله فجعل يست
يتجافى عن الحق والصواب، وكان كلامه مجرد رجم بالغيب، إنه يتوهم أن الطـ
الغنيمة والرغبة العارمة فى السلب والنهب الكامنة فى نفسية العربى كان ما أدرك
ﷺ، فأغراهم بالجهاد وكان هذا الإغراء أو الوعد أعمق أثرا فى نفوسهم من ك
وعظهم به وهداهم إليه[1]. فهذا المؤلف غفل عن مفهوم الجهاد فى الإسلام وما
أنصار النبى ﷺ إنما كانوا يخوضون الغمرات لا رغبة فى غنيمة بل رغبة فى الا
الذى يرفع درجتهم عند ربهم ويدخلهم جنته، وذكره للغنائم لا وجه له، فأن يغنم ا
من المغلوب فى الحرب متعارف مألوف مشروع، ولا يصح فى الفهم أن يكون الدا
القتال هو مجرد الظفر بالغنيمة، حتى إذا تذكرنا حملات المغول الذين كانوا يهدمون و
ويحرقون ثم يعودون وهذا قصاراهم من حربهم وإذا عدنا إلى كتاب الله المبين ونظ
سورة الأنفال وجدنا فى مفتتحها قوله تعالى:

﴿يسئلونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم و
الله ورسوله إن كنتم مؤمنين﴾.

فالأنفال هى الغنائم وهى فى التفاسير عطايا من الله والرسول ﷺ يأتمر بأمر
تقسيمها على مستحقيها ولذلك كان رسول الله ﷺ يقسم الغنائم عليهم بالسوية، وا
يقتضى أن يطيعوا الله والرسول فى أخذ كل منهم نصيبه فى الغنيمة. وروى عن النب

---

vier. Islam and The psychology, P56. London 1964.

أنه كان يتنازل تكرما منه في الغنيمة. والمستخلص من ذلك أن الغنائم لم يكن أمرها كما توهم هذا الكاتب لم تكن أسلابا تسلب ويظفر كل محارب بما يسعه أن يحمله منها، بل هذه الغنائم مقننة بقانون سماوى ينبغى الوقوف عند حدوده والعمل به على نحو منظم مقيد، وهذا ما يخرج بها خروجا بعيدا عن أن تكون ما أغرى المسلمين بالحرب، قيل: إن السبب في هزيمة المسلمين فى أحد أن جماعة من الفتيان سارعوا إلى الغنائم فشغلهم ذلك عن مواجهة عدوهم، وتحين المشركون هذه النهزة منهم فشدوا عليهم وكانت لهم الغلبة.

وتأسيسا على هذا يكون هؤلاء الفتيان قد ترددوا فى خطأ ما كان لهم أن يترددوا فيه، وقد أعقب ذلك هزيمتهم، ولكن القرآن الكريم أيقظ وعيهم وعلمهم أى مسلك يسلكون.

وبذا يترجح ألا تكون تلك الأنفال سبب المغازى كما زعم الزاعم، وكان كلامه ضربا من الخبط والخبط.

وبذكر أحد يرد على الخاطر قول مؤلف آخر إن انتصار النبى ﷺ فى بدر ثبت من قلبه وقوى من شجاعته، وحفزه إلى خوض معركة أحد التى كانت الكسرة فيها للمسلمين(1).

لأنه ﷺ إنما كان يحارب بوحى من الله وناصره ربه، ومعنى التشجيع هو الدفع إلى الإقدام بعد التردد أو الإحجام، وما كان يسعه إلا أن يتقدم رافعا مشعل النور والإيمان ليبدد به غياهب الكفر مؤتمرا بأمر الله جل جلاله حاملا الأمانة منطلقا فى المسيرة التى أراد الله بها إعلاء كلمة الحق وإصلاح حال الخلق وتوجيه سلوكهم إلى ما فيه فلاحهم فى دنياهم وأخراهم.

هذا هو صنيع الرسول ﷺ وذلك معنى جهاده فى سبيل الله ومن فى معيته من المؤمنين. إن هذا من قول القائل يجعل النبى ﷺ محاربا ككل محارب ومن الحق أنه مختلف بذلك عن المحارب كائنا من يكون ولذلك كان أوجب الواجب أن نكون على علم بوصفه مجاهدا لا أن نعده محاربا وحسب.

وهذا مؤلف آخر يجرى على الرسول ﷺ صفات فما يقول إلا حقا.

إنه يقول إنه لين العريكة رقيق القلب رحيم، والحق ما قال، إلا أننا نضيف إلى ذلك إنه الرحمة المهداة ولو كان على غير ذلك لانفضوا من حوله.

---

(1) Lammens. L,Islam. Croyancos et Institutions P.P 52. 53 Beyrouth 1926.

ويمتد الكلام بالمؤلف فيقول: إنه فى حروبه حظر أن يقتل المسلمون شيخا أو طفلا أو امرأة، أو يباعد بين أم وولدها ويحرموه من حنوها، كما كره منهم ونهاهم عن أن يقطعوا شجرة مثمرة.

وهذا غاية الغايات فى كرم النفس ورقة القلب. وأردف المؤلف قائلا: إننا قلما نجد له فى التاريخ نظيرا تجرى عليه صفات رحمته، ونضيف إننا إذا قلبنا صفحات التاريخ، ألفيناه فى هذا منقطع القرين، ثم يفضى القول بالمؤلف إلى أنه كان فى الأحايين يبدى الميل إلى الانتقام[1].

ونحن ننفى عنه ذلك لأنه يتعارض تماما مع ما سلف من قول ولم يسق لذلك مثلا لدعم دعواه بدليلها، ونحن لم نعرف هذا عنه ولم يجرب عليه صلوات الله وسلامه عليه.

هذا ما توافر لى من أسباب لمعرفة تلك المغازى وإنزالها منزلتها وإجراء ما لها من صفات عليها، وذلك تمهيدا لدراستها دراسة مقارنة فيما نظم عنها شعراء العربية والتركية والفارسية والأوردية.

ويخيل إلى أنى كنت على الحق والصواب حين انعقدت نيتى على اختيارها موضوعا للدراسة المقارنة فى الأدب الإسلامى.

فلقد اجتمع شعراء الشعوب الإسلامية على صنيع واحد، هو قولهم شعرا فيها، وتباينوا فى كيفية تناولهم للموضوع ورؤيتهم إليها فيما اتسمت به من خصائص وأخرجوا فيها كتبا قائمة بنفسها أو قالوا أشعارا تفرقت فى أشتات الكتب.

ولا شك أن ما صنعوا أمارة على أن الوحدة الإسلامية عقدت بينهم من الوشائج ما جعلهم يتشابهون فى عموم ويختلفون فى خصوص وذلك منهم يجعل نظرة التأمل فى شعرهم مادة سخية للدراسة المقارنة فى شعر إسلامى أعرق ما يكون فى إسلاميته.

وهذه الدراسة هى تلك التى أفنيت عمرا طويلا فى العكوف عليها وتلمسها وتتبعها، وعاهدت الله ونفسى على ألا أكف عن مواصلتها إلى أن تنقضى عنى من الدهر أيامى، بيد أنى صادفت فى دراستى تلك ما تعثر وشق.

---

(1) Emile Dermenghem La vie de Mahomet S.199 Paris 1929

فلما ذهبت أتلمس النصوص في مظانها، وجدتها وفيرة سخية في العربية والأوردية على حين ألفيتها قليلة شحيحة في التركية والفارسية، كما أن وسيلتي انقطعت إلى كثرة من المراجع لم أجدها في مصر وطلبتها من بعيد فبعث إلى بها من بعثوا وكانوا قلة، ولزم الصمت من لزموا وكانوا كثرة.

اشتد على أن عيل صبري في انتظاري، وساءني أن يكون الكلام في باب الشعر العربي طويلا وفي باب الشعر الأوردي أطول، وفي المقابل أن يكون في الشعر التركي مقيدا وفي الشعر الفارسي أقصر، ورأيت في ذلك عدم تناسب وتناسق بين أطراف المقارنة.

وتأرجحت في التردد بين إضافة ما يمكن إضافته، وطرح ما يمكن طرحه.

ولكنني أحمد الله أن ألهمني الحكمة والصواب فارتضيت واقع الحال، وشعرت بالبراءة أمام نفسي اللوامة، وإن كان ما كان على غير تراخ ولا تقصير مني، وذكرت أنه ينبغي لي إن لم يكن ما أريد، أن أريد ما يكون، وما كل ما يتمنى المرء يدركه، كما أن لكل حسن أحسن ولا يجدر الانصراف عن الحسن انتظارا لما هو أحسن.

خاصة أني في سن عالية وهامة اليوم أو الغد وإنما أخرج هذا الكتاب محتسبا إياه عند الله.

وأسأل الله الرشاد والسداد.

د. حسين مجيب المصري

الباب الأول

الغزوات فى الشعر العربى

الفصل الأول

الغزوات فى الشعر العربى القديم

وإذا أرخينا نظرة إلى سيرة ابن هشام ألفينا أنه في القسم الثاني منها يورد ما قيل من شعر في الغزوات ويبدو أنه أوردها حصرًا وتحديدًا لأنه حريص على ذكرها على أنها جزء لا يتجزأ من تلك الغزوات التى يؤرخها، ولا غرو فإن الشعر يعد بحق تأريخًا ولو ورد عرضًا، ولكن ابن هشام يورده أصلاً مما يجعل من الأشعار التى أوردها حقائق تاريخية ليس فى الإمكان على أى حال من الحال فصلها عن الواقع التاريخى، لأنها تؤيده وتؤكده.

إن ابن هشام فطن إلى ما للشعر من أهمية، ولذلك عقب فى تاريخه لكل غزوة بما قيل فيها، وبذلك جمع التاريخ من أطرافه ورفع الشعر إلى ديوان العرب[1].

وقوله ﷺ أنه ديوان العرب، من قواطع الأدلة على أنه جمع كل شيء عن العرب وعرف بحياتهم فى شتى جوانبها، ونطق عنهم فى كل ما وصفوا به الحياة من حولهم، وما شغلهم من شواغل، فهو بهذه المناسبة تاريخهم المفصل الجامع.

وقال ابن سلام: وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات[2].

وبهاتين المقولتين وبناء عليهما فى الإمكان أن نطلق حكمًا جامعًا ينسحب على شعر الغزوات العربية الذى نتصدى لدراسته، فهذا الشعر تأريخ لهذه الغزوات وإن لم يقصد ابن هشام إلى ذلك، ولكن ما أورده منه مما قيل فى الغزوات يؤرخها، وبذلك يكون هذا التاريخ غير منسوب إلى مؤرخ عقد العزم على أن يسرد الحوادث بل هذا الشعر نعده نحن تاريخًا لتلك الحوادث خاصة أن صاحب السيرة إنما جعله جزءًا متممًا مهمًا لسيرته ﷺ.

أما صفات هذا الشعر فليست على وصف ابن سلام، أى ليس ذلك للشعر الذى نظمه الشعراء يحاولون فيه البلاغة ويبالغون ما شاء الله أن يبالغوا، أو يطوعوا شعرهم لغرض

---

(١) أبو زيد القرشى: جمهرة أشعار العرب، ص١٤ (القاهرة ١٩٢٦)

(٢) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ص٥١٣ (القاهرة).

خاص بهم وحدهم. فالشعراء الذين قالوا شعر الغزوات قالوا ما قالوا من وحى البديهة متأثرين بما رأوا أو سمعوا فى تلك الغزوات وما أرادوا إلا تعبيرا عما ماجت به نفوسهم وتأثرت به مشاعرهم، ولذلك كان شعرهم خلوا من التنميق والتزويق وخلا مما يجريه الشاعر مجرى الواقع وهو أبعد ما يكون عنه.

فنظرتنا إليهم فى كتابنا هذا نظرتنا إلى المؤرخين الذين أرخوا بالشعر وكان هذا قصاراهم، فتلقبنا عنهم ما تلقينا كما نتلقاه عن المؤرخ الثبت المحقق المدقق.

إنهم لم يكونوا من المشاهير، اللهم إلا إذا استثنينا منهم سيدنا حسان بن ثابت ولا (ربيع من زهرة واحدة) كما يقول المثل الفارسى. ومرد السبب فى ضعف شأن الشعر فى فترة الغزوات إلى أن العرب - ومن هم فى بلاغتهم ولسنهم - جعلوا يتأملون آيات الله المحكمات وما فيها من بلاغة لا تتعلق بمثلها عبقرية شاعر منهم، وجعلوا يتأملون ويتعجبون فألهاهم ذلك عن الشعر، ولم يجدوا فى عصرهم من الكرماء من ينتجون كرمهم ويأملون جزيل العطاء منهم كما كان الشأن فيما مضى، وكان عصرهم عصر تحول من حال إلى حال، مما استوجب منهم التفكير فيما لم يفكروا فيه من قبل، وهذا مما صرفهم عن الشعر.

ونسوق لذلك مثلا الشاعر لبيد بن ربيعة العامرى الذى ملأ الجاهلية ببدائع شعره، عاش حتى أدرك الإسلام وأسلم، وكان أول من ألقى سلاح شعره أمام القرآن الكريم فلم يقل فى عمره الإسلامى إلا بيتا واحدا فقال ﷺ إنه كان يقول الصدق. وسأل سائل ماذا تصنع فى حياتك الإسلامية الآن، فقال أكتب القرآن. ولو امتد العمر بالأعشى إلى لقاء الرسول ﷺ لدافع عن الرسول ونافش فى ذلك حسان فى قصائده الرسولية[1].

كما أنه مما زهد فصحاء العرب وغير فصحائهم فى الشعر ما نسوقه خبرا يؤيد ذلك. فى رواية أن رجلين تهاجيا على عهد النبى ﷺ، ومع كل منهما غواة من قومه وهم السفهاء فنزل قوله تعالى: ﴿ ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾

أى فى كل واد من أودية الكلام يهيمون.

قال ابن عباس إنهم فى كل لغو يخوضون.

---

(١) د. زكى المحاسنى: الأدب الدينى ص٤٨ القاهرة سنة ١٩٧٠م.

كما قيل إنهم يمدحون بالباطل ويهجون بالباطل، أما معنى قوله: ﴿وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾ فهو أنهم يكذبون في شعرهم، أو يمدحون الكرم ويحثون عليه، وليسوا من الكرماء، ويذمون البخل وهم البخلاء[1].

ويؤخذ من تقليب تلك المعاني التي أوردها المفسرون على وجوهها أن الكلام إنما يسحب على فئة بعينها من الشعراء ذموا في القرآن بضلالهم ونقائصهم ومقابحهم، وفي عداد هؤلاء الشعراء هبيرة بن أبي وهب وكعب بن الأشرف، وقد بكى كعب قتلى بدر من المشركين وشبب بنساء المسلمين، فأمر ﷺ رهطا من الأنصار بقتله جزاء وفاقا.

وهنا نورد رأيا لأحد القدماء من أهل البصر بالشعر وهو أن الشعر إذا دخل في باب الخير لان، فحسان بن ثابت علا شأنه في الجاهلية والإسلام، ولما دخل شعره في باب الخير لان[2].

وعلى ذكر حسان قيل أن النبي ﷺ يتطيب شعره في تأييد الإيمان بالله.

روى أنه كان ذات ليلة في سفر فقال: "أين حسان بن ثابت؟" فقال حسان: لبيك يا رسول الله وسعديك. فقال: "أحد" فجعل حسان ينشد من شعره والرسول يصغى إليه فما زال يسمع وهو سائق راحلته حتى كاد رأسها يمس الورك. ولما فرغ حسان من نشيده قال ﷺ : "لهذا أشد عليهم من وقع النبل"[3].

ذاك ما يقف بنا على منزلة حسان عند النبي ﷺ وفي فترة الغزوات والصراع بين الحق والباطل ويبين لنا كيف أنه اتجه بشعره وجهة خاصة لا عهد للعرب بمثلها من قبل.

ولقد تميزت شخصية حسان بعد إسلامه وبعد اتصاله بالرسول ﷺ ، بتلك الخصائص التي اتسم بها شعره، وبالمواقف التي وقفها من الدين الحنيف في بزوغ فجره، فقد غلب على الشعر في تلك الفترة فن الهجاء على أنه تعبير عما اكتمن في نفوس المشركين على سواء، وكان هذا الهجاء عاما أظهر منه خاصا، لأنه كان عند المسلمين على الأخص دفاعا شرعيا فهؤلاء المسلمون دافعوا عن دينهم مجاهدين بالسنان واللسان وأدى حسان مهمته

---

(١) الخازن: لباب التأويل ص ٣٧٤ القاهرة سنة ١٣٢٨هـ.

(٢) المرزباني: الموشح ص ٦٢ القاهرة سنة ١٣٤٧.

(٣) ابن واصل الحموى: تجريد الأغاني ص ٥٢١ حـ٢ القاهرة سنة ١٩٥٥.

وهى قهر أعداء الرسول ﷺ ، فشعره مصدر له قيمته وأهميته من التاريخ الإسلامى، وعلى الأخص سندا تاريخيا لمن يتوفرون على دراسة ما ماج من أحداث فى السنوات العشر الأخيرة من حياته صلوات الله وسلامه عليه. ففى هذه الفترة بالذات انقطع لمدح الرسول وجاهد من عادوه، ولقد نافح وناضل عن المؤمنين فى غزوتى بدر وأحد، كما أنه فى اختصاصه بجهاد المسلمين رثى حمزة رضى الله عنه عم النبى وبكى شهداء المواقع الإسلامية ومنهم خبيب بن عدى وزيد بن حارثة، وجعفر بن أبى طالب، وعبد الله بن رواحة، وأخيرا رثى رسول الله ﷺ[1].

وشعر حسان يتسم بالصدق والواقعية، وهذا من صفته يوجب التعويل عليه كمصدر للتاريخ، فهو يذكر الحقيقة لا ريب فيها وإن وشاها بمسحة من خيال، وذلك ما يقتضيه التعبير بالشعر، إنه لا يبالغ تلك المبالغة التى تحجب الحقيقة التاريخية. مثال ذلك قوله فى رثاء خبيب بن عدى الذى استشهد فى إحدى الغزوات الأولى والأوجب أن يصفه فى شجاعته وخوضه المعركة لنصرة الإسلام، فقال:

ما بال عينك لا ترقا مدامعها	سحا على الصدر مثل اللؤلؤ الفلق؟
على خبيب وفى الرحمن مصرعه	لا فشل حين تلقاه ولا نزق
فاذهب خبيب جزاك الله طيبة	وجنة الخلد عند الحور فى الرفق

إنه يصدقنا القول فى وصف هذا المجاهد الشهيد فى مصرعه، ويبين كيف أنه نال الشهادة لينال بها جنة الخلد وكيف كان مقداما رابط الجأش لا يتراجع أمام تقدم العدو، وهو يبكيه وحق لشهيد أن يبكى عليه. وفى هذا كله لم يبعد حسان عن الحقيقة فى شىء، بل أجمل القول فى مصرعه ولم يكد يدع مجالا لقائل يطيل ويطيل ويهيم فى الخيال حتى ينسى واقع الحال.

نقول هذا ونورد شعرا فارسيا للفردوسى فى شاهنامته التى نظمها فى القرن الرابع الهجرى مؤرخا بها تاريخ الفرس من أول عهدهم إلى فتح العرب لبلادهم مأمورا بذلك من السلطان محمود الغزنوى الذى أراد أن يبعث تاريخ الفرس القديم ويقيم الدليل على أن لهم سابقة فى المجد، كما يريد ضمنا أن يقرن اسمه باسم هذا الشاعر ومنظومته التى تقع فى

---

(١) عبد الجواد سليمان: شاعر الرسول حسان بن ثابت ص٣٢، ٣٣ القاهرة .

ستين ألف بيت، والفردوسى كان شعوبيا يتعصب للفرس على العرب، ويريد أن يباهى بأسلافه وما كان لهم من مجد فى الزمان الخالى مباهيا بهم العرب وغير العرب.

إنه يصف بطل الفرس الأسطورى رستم فى معركة له مع الترك فيقول:

(بالقتال رستم أديم الأرض يحمر، وفى يده عمود على هيئة رأس البقر أينما يمضى ويسوق الجياد، تسقط كأوراق الخريف رءوس العباد. إذا أمسك بالسيف الحسام أخفض ما للصيد من هام. ومن تجميع الشجعان فى البيداء، ماجت الأرض كالبحر بالدماء بما أثارت سنابك الخيل من غبار فى جوف الصحراء نقصت الأرضون أرضا وزادت فى السموات سماء. ولى الترك عن الفرس هاربين، واتخذوا سبيلهم إلى دامغان سارين. ومنها نحو جيحون ولوا وجوههم، وقد فطر الأسى قلوبهم فرفعوا باللغط أصواتهم، فانحطم سلاحهم وانقصم وسطهم، لا طبل ولا بوق معهم، ولا قدم ولا رأس لهم)[١].

ورستم هو البطل الفارسى الأسطورى الأشهر، والفرس يحبونه كل المحبة ويعجبون به كل الإعجاب. وبلغ من فرط إعجابهم به كأنما هو معجزة أنهم يسمون قوس قزح (قوس رستم[٢] ويسمون فرسه (رخش) بمعنى انتشار الشعاع. وشغل المصورون الفرس أنفسهم برسم صور له وهو على فرسه يصول ويجول ويبطش بالأعداء بطشا، والمصورون شأنهم شأن الشعراء معتزون بقوميتهم وهو ذلك الاعتزاز الذى عبر عنه الفردوسى[٣].

وهكذا يبلغ الفردوسى المدى فى خياله ويرفع ذلك البطل الأسطورى على جناح من الأوهام والأحلام ليعرضه فى صورة صنديد ذى بأس شديد وذى بأس صاحب خوارق ومعجزات. إن المبالغة عنصر هام من عناصر الأدب ما فى ذلك ريب؛ إذ إنها تقوى المعنى وتبرزه، ولكنها ينبغى أن تكون مقبولة فى الفهم والذوق وتقف عند حد، لأنها إذا تجاوزته

---

(١) زمين كرده بدسرخ رستم زجنگ   يكى گرزه گاو پيكر بچنگ
سپهر سوكه مركب برانگيختى   چو برگ خزان سر فروريختى
بشمشير سران چو بگذاشت دست   سر سروران همى كرد پست
زجون دليران بدشت اندرون   چو دريا زمين سرخ رن شد زخون
رسانم ستوران بدشت اندرون   زمين شش شد وآسمان گشت هشت
برفتند تركان زپيش مغان   كشيدند لشكر سوى دامغان
وزانجا بجيحون نهادند روى   خليده دل وساغم وكمنكوى
شكسته سليح وگسسته كمر   نه كوس ونه بوق ونه پاى ونه سر

(2) Lepkın: Shakh-Nome 231 (Moskva 1955).

(3) Behomın. Perna ondphe Pesrsıonsıamr P 301 (London 1887).

فقدت أهميتها والغرض منها، فأنا مثلا لا يعجبنى أن أرى رستم وهو يحس فرسه يسقط رءوس الأبطال من المحاربين وكأنها أوراق الخريف تتهاوى، ولا أجد من الحقيقة التاريخية فى هذه الطائفة من شعره إلا أنه محارب ألحق هزيمة ساحقة ماحقة بالترك فولوا وجوههم قبل جيحون، ومضوا إلى دامغان. أقول هذا لأنى أرى مع الإيرانيين المحدثين أن شاهامة الفردوسى كتاب تاريخ لأنه صرح فى كثير من مواضعها أنه اغترف مادته التاريخية من مصادر تاريخية فارسية قديمة وعربية ومما مر بسمعه من قصص الملوك والأبطال على من يتحلقون حولهم ويأخذون عنهم وهم يفخرون بما كان لأسلافهم فى الماضى السحيق من مجد وسؤدد، إننا لا نكاد نجد مؤلفا إيرانيا من المحدثين يتصدى لذكر شىء من تاريخ إيران قبل الإسلام إلا استشهد بأبيات من شاهنامة الفردوسى على أنها مصدر تاريخى له الأهمية.

وهذا ما يشعرنا بالفارق بين الفردوسى وبين حسان بن ثابت فيما أسلفنا له الذكر، مس شعر رثى فيه خبيب بن عدى، إن هذا الشاعر العربى ذكر الحقيقة دون أن يتجاوزها إلى الخيال البعيد. لقد شبه الدموع باللآلىء وهذا قريب الشبه بالحقيقة كما كان أكثر اهتماما بالإشارة إلى أن هذا المجاهد استشهد فى سبيل الله وزف إليه البشرى بدخول الجنة.

وهنا نقف وقفة لنذكر قضية هى الفرق بين خيال الساميين والعرب منهم وخيال الآريين والفرس فى طليعتهم، فالخيال العربى تقرير فى الأغلب الأعم، أى أن الشاعر يصف الشىء كما يراه بأم عينيه وإن شبهه بما شاء. أما الشاعر الفارسى فخياله إبداعى خلاق أى أنه يخلق مما يراه بعينه ما يراه بخياله ويفقده طبيعته وحقيقته.

ونخلص من هذا كله إلى القول إن شعر الغزوات أدخل فى التاريخ منه فى الأدب وشعر الغزوات فيه أخذ ورد بين حسان المدافع عن النبى ﷺ وبين الشعراء الذين عبروا عن عدائهم للنبى ﷺ.

ونسوق أمثلة لذلك شعر حسان فى الرد على أبى سفيان وفى الرد على كعب بن الأشرف والرد على ميمونة وعلى ابن الزبعرى.

وهذا ما يذكرنا عند العرب فى الجاهلية بالمنافرات، والمنافرة هى إذا تنازع العرب فى الجاهلية فى الشرف تنافر الرجلان إلى حكمائهم، ونافر بمعنى حاكر فى النسب، وسميت منافرة لأنهم كانوا يقولون عند المفاخرة أنا أعز نفرا. وقد ألف أبو عبيدة وغيره من الأئمة

البارعين في اللغة كتبا في منافرات العرب، وأشهر منافرة في الجاهلية منافرة عامر بن الطفيل مع علقمة بن الأحوص، قال له علقمة: الرياسة لجدي الأحوص، وإنما صارت إلى عمك أبي براء من أجله، وقد قعد عمك عنها فأنا أولى بها منك وإن شئت نافرتك، فقال له عامر: قد شئت والله لأنا أشرف منك حسبا، وأثبت منك نسبا، وأطول قصبا، فقال علقمة: أنافرك وإني لبر وإنك لفاجر(١).

هذا مما كان بين حسان والشعراء من أعداء النبي ﷺ يقرب من الفهم أن حسان أوجد هذا الفن الشعري وهو يدافع عن النبي ﷺ وهو مندرج في شعر الغزوات.

كما يلفتنا تبادل الأخذ والرد بين الشاعرين بما نجده في الشعر التركي وهو فن قائم بذاته يعرف بفن المناظرات، فالمناظرة في الشعر الفارسي والتركي تتخذ مقدمة ينتهي الشاعر منها إلى الدخول على المدح، فهي ديباجة يراد بها إثارة الانتباه إلى غرض الشاعر والتشويق إليه كما الشأن في التمهيد للقصائد بالغزل. وقد وازن بعضهم بين المناظرة والغزل فقال إنه أي الفرق بينهما هو أن الشاعر في الغزل يتحدث عن نفسه ويصور حاله وليس الشأن كذلك في المناظرة(٢).

وللشاعر التركي فضولي البغدادي من أهل القرن العاشر الهجري مناظرة بين الخمر والبنج منظومة بالتركية ومحاورة بين الصوفي والزاهد والصحة والمرض في نثر فارسي.

وللشاعر الفارسي أسدي من أهل القرن الخامس الهجري قصائد في المناظرات كمناظرة السماء والأرض والمجوسي والمسلم وغيرهما(٣).

أما ما نلحظه فإن المنافرات التي لها صفة المناظرات في العربية إنما تدور في دائرة من الحقائق والمناظرات فيها من البشر، وعلى النقيض من ذلك نجدها عند الفرس والترك واقعة بين طرفين من غير البشر وإذا أجريت على لسان البشر كانت متخيلة. ومن ثم ندرك الفارق الواضح بين ما دار بين حسان بن ثابت وبين من رد عليهم وبين ما يشبه ذلك من مناظرات في شعر الفرس والترك ونثرهم.

---

(١) الألوسي: بلوغ الأرب ص٢٨٩ جـ١ (القاهرة سنة ١٩٢٤م)

(2) Ethe: uber Pesnsrishe Tenzonbn, vesnhendlungen desix interndtionalen orienetalistein Kongresses. 5.50 (Beslin 1882).

(٣) زهران خانلري. فرهنك ادبيات فارسي دري ص٥١ (تهران)

لقد قام حسان بن ثابت بمهمته على الوجه الأكمل، وشرف برضا الرسول ﷺ عنه وهو يناضل بلسانه الفصيح الذى يؤثر أعمق الأثر فى النفوس.

وحسبنا أن نورد قوله ﷺ له (اهج قريشا ومعك روح القدس والله إن كلامك لأشد عليهم من وقع السهام فى غلس الظلام).

هذه مقولة مشهورة ونحن ننظر إليها فضلا عن أنها دعوة للذود عن الإيمان بالهجاء كما قال الصادق المصدوق يمكن أن تدخل فى باب المنافرة والمناظرة، وبذلك يكون حسان بن ثابت صاحب فضل فى تمييز شعره بلون خاص به لا عهد لنا بمثله فى فترة من الزمان يؤرخ بها خصائص الشعر العربى فمن غرر شعره التى يقول فيها ردا على من هجا الرسولﷺ :

هجوت (محمدا) فأجبت عنه ... وعند الله فى ذاك الجزاء

قال صلى الله عليه وسلم: (جزاؤك على الله الجنة)، فلما انتهى إلى قوله:

فإن أبى ووالده وعرضى ... لعرض محمد منكم وقاء

قال عليه الصلاة والسلام: (وقاك الله هول المطلع)، ولما انتهى إلى قوله:

أتهجوه ولست له بند ... فشركما لخيركما الفداء

قال من حضر: هذا والله أنصف بيت قالته العرب.

ولنا أن نعد مثل ذلك مثالا لتلك الروحانية الإيمانية التى غمرت شعر المغازى وبينت على الحقيقة أهميته وجدارته بنظرة تأمل وتمحيص، فقد عبر شعر حسان عن تلك الغزوات، وأجرى عليها صفاتها، وبين أنها ليست حروبا وكفى، بل هى حروب لها ما لها من ملامح وسمات ينبغى التنبه إليها.

ومن قول حسان بن ثابت فى غزوة بدر، وهو يتجه بخطابه إلى الحارث بن هشام:

تبلت فؤادك في المنام خريدة ... تسقى الضجيع ببارد بسام

كالمسك تخلطه بماء سحابة ... أو عاتق كدم الذبيح مدام

أقسمت أنساها وأترك ذكرها ... حتى تغيب في الضريح عظامى

إن كنت كاذبة الذى حدثتنى ... فنجوت منجى الحارث بن هشام

ترك الأحبة أن يقاتل دونهم ... ونجا برأس طمرة ولجام

عند هذا الحد يتهكم حسان بالحارث بن هشام ويصفه بالجبن والنكوص عن المعركة، بل والفرار منها وعجزه عن أن يذود عن حريمه وفى هذا كل العار والشنار وهو فى ديباجة قصيدته يقول إنه لا جانب فيه للغزل فهو رجل جد ورجل حرب ويعيبه أن يشغله شاغل من عشق أو غير عشق عن خوض الهيجاء مستبسلا مقداما، وهذا معنى جديد من معاني البطولة يدركه حسان ويبين كيف ينبغي للمقاتل أن يكون شديد البأس رابط الجأش لا يحجم ويصمد ما استطاع سبيلا إلى الصمود.

وبذلك صور لنا البطل العربى المحارب فى صورته الصادقة الناطقة عن جميع صفاته:

وبنو أبيه ورهطه فى معرك	نصر الإله به ذوى الإسلام
طحنتهم والله ينفذ أمره	حرب يشب سعيرها بضرام
بالعار والذل المبين إذا رأى	بيض السيوف تسوق كل همام
بيض إذا لاقت حديدا صممت	كالبرق تحت ظلال كل غمام

فى هذه الطائفة من الأبيات يعبر حسان الحارث بن هشام بعجزه كل العجز أن يحمى حريمه ويعد ذلك من مقابحه ونقائصه. كما يتغنى فى نشوة المنتصر بغلبة المسلمين على المشركين فى معركة ضارية يحسن وصفها وهو يصف تلك الحرب التى اشتعل ضرامها بأمر الله، لأن المؤمنين يحاربون لنصرة دين الله وكان الله عونا وسندا لهم فأذهبوا ريح أعدائهم، وجميل منه أن يجعل السيوف تسوق أمامها كل همام لأن هذه هى المعركة فى حركتها، وما أجمل تشبيهه لها فى بريقها بالبرق فى الغمام.

فهذه صورة جميلة للمعركة وهو يتناول ذكرها ووصفها على نحو فيه تميز وتفرد، والمعانى فيها آخذ بعضها برقاب بعض ووحدة القصيد واضحة فيها، إنه لا يجنح إلى الخيال إلا فى أقل القليل وهذا ما يدفع إلى القول بأن أحسن الشعر أصدقه فما قال حسان إلا حقا.

أما رد الحارث بن هشام على حسان فرد جد ضعيف، وهو اعتذار أوهى من بيت العنكبوت يقول فيه:

الله أعلم ما تركت قتالهم	حتى حبوا مهرى بأشقر مزبد
وعرفت أنى إن أقاتل واحدا	أقتل ولا ينكى عدوى مشهدى
فصددت عنهم والأحبة فيهم	طمعا لهم بعقاب يوم مفسد

إنه يجهد الجهد كله ليبرر نكوصه عن القتال، وفى عين الحال يقر بأنه لا طاقة له بمن يناجزهم ويبارزهم، وهذا منه خور فى العزيمة وقلة فى الحيلة، وما لا يليق بالمقاتل الحق، وله فى يوم بدر قصيدة تعد سندا تاريخيا، لأنه ذكر أسماء القتلى من قريش مباهيا بنصر المسلمين المبين، وتعيينه للأسماء على التحديد يدل على أنه كان معنيا بتقصى الحقائق وتعرف الأخبار، إنه أشبه بمن يرقب المعارك ليأتى بأخبارها ويعلم أصحاب الشأن بما يهمهم من أمرها.

لقد علمت قريش يوم بدر	غداة الأسر والقتل الشديد
بأنا حين تشتجر العوالى	حماة الحرب يوم أبى الوليد
قتلنا ابنى ربيعة يوم سارا	إلينا فى مضاعفة الحديد
وفر بها حكيم يوم جالت	بنو النجار تخطر كالأسود
وولت عند ذاك جموع فهر	وأسلمها الحويرث من بعيد

وهنا نقف وقفة ينفسح لنا مجال المقارنة بين حسان بن ثابت وبين البارودى فى قصيدة له قالها فى بعثة الجيش المصرى لتأديب أهل كريد بأمر السلطان؛ فقد كان يأتى بضروب من الحيل والمخاتلة حتى يوقع العدو فى مهواة لا يجد له منها خلاصا[1].

قوم أبى الشيطان إلا نزغهم	فتسللوا من طاعة السلطان
فالبر أكدر والسماء مريضة	والبحر أشكل والرماح دوان
والخيل واقفة على أرسانها	لطراد يوم كريهة ورهان
وضعوا السلاح إلى الصباح وأقبلوا	يتكلمون بألسن النيران
فإذا الجبال أسنة وإذا الوها	د أعنة والماء أحمر قان

فالبارودى يستندى شاعريته فتوحى إليه بهذه الأبيات التى لا شك فى جودتها وجمالها، إنه يجنح إلى الخيال والصناعة ويصف لنا جو المعركة وصفا جميلا وبذلك يختلف عن حسان فى الطائفة الأخيرة من أبياته؛ لأنه يكتفى فى قوله أنه حارب قوما خالفوا طاعة السلطان ولم يزد على ذلك ما يدرك منه أسباب خلعهم طاعته أو يعرف بفادتهم وجندهم، فشعر

---

(١) الإمام المنصورى. ديوان محمود سامى باشا البارودى ص ح القاهرة.

حسان هو الخبر اليقين عن معركة، أما وصف البارودى فرائعة من روائع شعره فى وصف المعركة، وهو يذكرنا بوصف الفردوسى للمعركة التى أوردناها له فى وصف البطل الفارسى الأسطورى رستم. فحسان والبارودى يتكاملان فى وصف معركة دائرة الرحى وحسان لم يقاتل فيها وقاتل البارودى فى معركة كريد بصفته قائدا للجيش المصرى، وكأنما شاء البارودى أن يمجد مصر وجيشها ويجامل السلطان آنئذ مبشرا بالنصر، أما حسان فهو ينطق عن المؤمنين المجاهدين الذين لا رغبة لهم فى فتح ولا غنم وإنما تاقوا إلى أن يكونوا مستشهدين.

ومن قول حسان فى هجاء بنى جمح ومن أصيب منهم:

جمحت بنو جمح لشقوة جدهم	إن الذليل موكل بذليل
قتلت بنو جمح ببدر عنوة	وتخاذلوا سعيا بكل سبيل
جحدوا الكتاب وكذبوا بمحمد	والله يظهر دين كل رسول
لعن الإله أبا خزيمة وابنه	والخالدين، وصاعد بن عقيل

فحسان يتمسك بالمنهج الذى اختاره لنفسه فى شعره، وهو ذكر الواقع والتذكير بأسماء الرجال والتعرف إلى ما ينعقد بينهم وبين الأحداث ليجعل من شعره صحيفة ينبغى أن ينظر فيها المؤرخ، إنه يميل إلى التسبيب، والتسبيب هو الوقوف على الحقيقة ثم عرضها عرضا تفسر به أمورا، إنه يلعن من كذبوا رسول الله ﷺ وبذلك يصدقنا التعريف بكونه شاعر الرسول المنافح عنه بلسان عضب، وهو يذكر بنى جمح فيذكرنا بأسماء فى التاريخ ويبين كيف حاربوا فى بدر ودارت الدائرة عليهم وكيف تخاذلوا فعيرهم بتخاذلهم، ثم يذكرهم بأقبح القبائح وأبشع المآثم وهو جحدهم كتاب الله المبين فأخزاهم الله وأذهب ريحهم، ثم يقول إن هزيمتهم كانت بسبب فساد عقيدتهم، وانتصار المسلمين إنما كان نعمة من الله عليهم، والله مؤيد رسوله بنصر من عنده، وإنه يكثر من الأسماء وهذا كله يعود بالنفع على من ينظر فى السيرة النبوية الشريفة ويرى فى حسان مؤرخا لها فى كثير من جوانبها.

ويحدثنا حسان عن غزوة بدر فيقول:

فما نخشى بحول الله قوما	وإن كثروا وأجمعت الزحوف
إذا ما ألبوا جمعا علينا	كفانا حدهم رب رءوف

سمونـا يـوم بـدر بـالعوالى	سراعا ما تضعضعنـا الحتـوف
ولكنـــا توكلنـــا وقلنـــا	مآثرنـا ومعقلنـا السـيوف
لقينـاهـم بهـا لمـا سمـونـا	ونحـن عـصابـة وهم ألـوف

إن الشاعر لا يتخيل ولا يتمثل، بل يقف بنا على الحقيقة بحذافيرها، ويصدقنا الخبر، فهو يحدثنا عن غزوة بدر لا يزيد في صفاتها ولا ينقص منها، إلى كونه يتعمق بنا نفسية المؤمن المجاهد الذى لا يرهب الردى لأنه مندفع إليه بإيمانه الراسخ، وفى يقينه الجازم أن الله سوف يؤيده وينصره، لأنه بذلك إنما ينصر الحق ويعديه على الباطل، ويغلب الإيمان على الكفر، فهو يقاتل لا برغبة منه فى القتال وكفى، بل بقوة غيبية تدفعه وهو لا يعى، وحسبه أن يتوكل على الله وهذا التوكل ما بد من أن يكون له واضح أثره فيما يقدم عليه، إنه لا يخشى كثرة الأعداء ما دام موقنا بأن الله وحده من يذود عنه شرهم ويرتب على هذه النزعة الإيمانية التى تملأ رحاب نفسه، إنه ماض لطيته لا يلقى بالا إلى شيء يتهدده أو يفت فى عضده ويذكر بما عاهد هذا المجاهد الله ونفسه عليه فيقول إنه انطلق قدما والله يحميه كما أن سيفه يحميه، كما تطيب نفسه بقوله حامدا لله نعماءه عليه وتأييده له، وممتلئا تيها بأنه كان فى فئة قليلة نصرها الله على فئة كثيرة، وتلك معجزة الإيمان التى أمن بها من يجاهد فى سبيل الله، وذلك من قول حسان لا بد مذكرنا بمنظومة لمحمد عاكف (الشاعر التركى المعروف بشاعر الإسلام) عنوانها: (شهداء جناق قلعه) نظمها فى الحرب التى قامت بين الأتراك والحلفاء عند مضيق الدردنيل فى أواخر الحرب العالمية الأولى، وقد استبسل جنود الترك فيها واستشهد فيها منهم مائتا ألف وخمسمائة، قد نقلناها إلى الشعر العربى وقد نشرت[(١)].

وهذه منظومة طويلة لها شهرة مستفيضة لا لجمالها الفنى فحسب، بل للمناسبة التى قيلت فيها؛ لأنها وثيقة تاريخية يعتز الأتراك المحدثون بها، وهم فى ذلك على الحق والصواب.

إنها طويلة، ومعظم أبياتها فى وصف المعركة، وقد حلق محمد عاكف بالخيال فوفق وأبدع وجاء بتشابيه لم يسبق إليها. وهو فى ذلك مشبه للفردوسى وللبارودى فيما عرفنا عنهما من شعر سلفت الإشارة إليه.

---

(1) Kaya. Islam Edabıyat Alenmde Duyur bısım (Islamedebiyat.) S.24 Sayı.4 hazıran ıstanbul 1990

ونحن هنا لا نورد هذه الأبيات التى وصف فيها المعركة، ولكن اهتمامنا هو إيراد أبياتها الأواخر، يصف فيها المجاهد التركى وهو يجاهد فى سبيل الله ويضفى عليه صفاته وهى عين الصفات التى أضفاها حسان فى ما أسلفنا ذكره من شعر له فى بدر ولا غرو، وقد وقف محمد عاكف، المتوفى عام ١٩٣٨ والملقب بشاعر الإسلام، حياته وكرس كل جهوده لينظم الشعر فى أغراض إسلامية، وهو متأثر بالتراث الإسلامى فى عامة شعره. فلا جرم تأثر بتاريخ الإسلام أعمق التأثر، ولذلك نجده فى تلك القصيدة يذكرنا بالمجاهدين فى معركة بدر ويشبه المجاهدين الأتراك بهم على أنهم من أبناء دينهم ويصدون عن المسلمين عادية غير المسلمين.

إنه كمسلم لا يفرق بين تركى وعربى فحكمه عليهما واحد، ونظرته إلى هذا لا تختلف عن نظرته إلى ذاك.

يقول محمد عاكف:

فـــى ســـبيل الله يـــأمن فـــى الـــثرى   بعنـــاق الجـــد كنـــت الأجـــدرا

منقـــذ التوحيـــد لكـــن بالدمـــاء   مشـــبه فـــى يـــوم بـــدر الشـــهداء

يـــا عظيمـــا فـــى حفـــير لا أراك   إنمـــا التـــاريخ قـــبر مـــا احتـــواك

وبمـــا أبليـــت قـــد ضـــاق المقـــام   إنـــه فـــى الخلـــد حتمـــا بالتمـــام

حجر الكعبـة ان وشـدت رأسـك للسـماء   خـدك الدامـى تسـجى بالضـياء

يا ســعـيدا لــك قـــبرا لا تسلـــنى   قد حـباك المصطفى منه بحضن[1]

وجميل من هذا الشاعر التركى أن يتفق مع الشاعر العربى فى وصف المجاهد التركى بالنجدة والبسالة، وهذا متوقع منه، إلا أنه يختلف عن الشاعر العربى بأنه يتجه بالخطاب إليه ويناجيه بما يقوم دليلا على حبه له وإعجابه به وإعظام لما أبلى من بلاء حسن لا جزاء له إلا الجنة، فعاكف يتقلب كلامه فى المعنويات والروحانيات ويبدع من الخيال بدائع. لذا

---

(١) اى. بوطوبراقلر اچون طوپراغه دوشمش عسكرا   كو كون احداد ايه ركـ اوسه او پاك الكى ديكر
سه بيو كـككه فنالك فور تريمور توحيدى   بدرك ارسلانلرى انحق بوقدر شانلى ايدى
سكا دار كلميه جنك مقبرى كيملر قازسك   كوملى كل سنى تاريخه ديسم حبقمسا رسك
هرج ومرج ايند يكن ادواره ده يتمز لو كتاب   سنى انحق ابـد تيلـر ابدر استيعاب
بوطا شمدر، وبه ركـ كعبه ديكسم باشكا   قاپـان لحدكـه جكسم بونـون احرامـك
اى شـهيد اوغـلو شـهيد ايسنمه مندن مقبر   سكا اغشـنى آحـمش دريـور بيعمير

ihan gecer, Cumhuriyet donemınde Turh ssırt s.s 12. 13 Istanbul

يسعنا القول بأن الشاعرين متكاملان فيما يختص بالمقاتل العربى والمقاتل التركى، كما أن هذا من موقفهما من المقاتل يفرق بين كلام العربى والتركى. فالعربى يذكر الحقيقة لا يكاد يعدوها إلى الخيال، أما التركى فيذكر الحقيقة ويأبى إلا أن يفسرها بالمجاز.

ونعود إلى غزوة بدر فنقول إنها فتحت صفحة جديدة فى تاريخ غزوات الرسول ﷺ، فيها رجحت كفة المسلمين على المشركين، وبفضلها دخل كثير من المسلمين فى دين الله أفواجا، وكان من المشكلات أن يحدد ﷺ موقفا له من اليهود، لقد عاملهم معاملة طيبة إلا أنهم جازوا الإحسان بالإساءة، وعاملوا المسلمين ورسولهم بقسوة وجفاء، مثال ذلك أن شاعرة يهودية تسمى أسماء بنت مروان نظمت قصائد بطولها فى هجاء الرسول ﷺ ، أما الشاعر اليهودى كعب بن الأشرف فنظم من القصائد ما نظم فى مكة بعد موقعة بدر يحث فيها القريشيين على التأثر لقتلاهم، وبلغ من قحته أن ينشد هذه القصائد بعد عودته إلى المدينة وفى حضور بعض المسلمين، فما استطاع الرسول ﷺ أن يداوم على مهادنة اليهود[1].

قال كعب بن الأشرف:

طحنت رحى بدر لمهلك أهله	ولمثل بدر تستهل وتدمع
قتلت سراة الناس حول حياضهم	لا تبعدوا إن الملوك تصرع
كم قد أصيب به من أبيض ماجد	ذى بهجة يأوى إليه الضيم
نبئت أن بنى المغيرة كلهم	خشعوا لقتل أبى الحكيم وجدعوا
نبئت أن الحارث بن هاشمهم	فى الناس يبنى الصالحات ويجمع
ليزور يثرب بالجموع وإنما	يحمى على الحسب الكريم الأروع

هذا من كلام ابن الأشرف رثاء لمن قتلوا فى بدر، وهو رثاء ما كان متوقعا من رجل لأنه رثاء ممزوج بالبكاء وقمين بمن يرثى عظيما أن يشيد بمناقبه ومحامده وكفى، لا أن يسترسل فى البكاء كالنساء، وهذا ما يذكرنا بقول ابن رشيق فى كتابه (العمدة) من أنه لا فرق بين الرثاء والمدح إلا بإيراد شىء يدل على أن المقصود به ميت مثل ما كان أو عدم منا به كيت وكيت[2].

---

(١) د. على الخربوطلى: الرسول فى رمضان ص ١١٠ القاهرة سنة ١٩٦٨م.

(٢) ابن رشيق القيروانى: العمدة ص ١١٧، القاهرة سنة ١٩٢٢م.

كان القمين بهذا الشاعر ألا يدمع للهزيمة فى بدر إن كان ذا بأس وقوة وجلد ولكن يبدو أن المصاب كان أشد عليه من أن يصبر أو يتصبر، ثم يعرف بالفجيعة فى قومه ويصفهم بالسراة ويلتمس شيئا من العزاء والسلوى وهو يحاول أن يواسى من فجعوا فيقول إن الملوك تصرع، ثم يذكر ذل القوم الذين جزعوا لمقتل سيد من ساداتهم فجدعت أنوفهم. وهو عند هذا الحد من قوله يذكر ما وقع إلا أنه بعد ذلك يشحذ الهمم ويقول إن هؤلاء المنهزمين قووا من عزيمتهم وعقدوا النية على معاودة القتال وهذا من كلامه واقع لا شك فيه. وانبرى له حسان معارضا بقوله:

أبكى لكعب ثم عل بعبرة	منه وعاش مجدعا لا يسمع
ولقد رأيت ببطن بدر منهم	قتلى تسح لها العيون وتدمع
فابكى فقد أبكيت عبدا راضعا	شبه الكليب إلى الكليبة يتبع
ولقد شفى الرحمن منا سيدا	وأهان قوما قاتلوه وصرعوا
ونجا وأفلت منهم فى قلبه	شغف يظل لخوفه يتصدع

فحسان يعارض كعب بن الأشرف بأبيات من نفس البحر والروى متحديا، كما يذكر البكاء وكأنما يريد أن يعيره ويعير قومه بهذا البكاء وإن قال إن فى بدر من القتلى من يرثى لحالهم. وكأنما يريد حسان أن يظهر الشماتة بهم وهو يضرب له على الوتر الذى ضرب عليه، ويريد له أن يبكى ولكن بكاءه ليس على عظيم قوم بل على عبد رضيع وهو أذل من يكون ويشبهه بكليب إمعانا فى التحقير، وربما أراد بالكليبة التى تبعها هذا العبد عاتكة بنة أبى العيص بن أمية وهى التى قصدها كعب بن الأشرف ونزل عندها فى مكة فأكرمت وفادته وأكرمته، فحسان يهجوها لأنها تستحق الهجاء ثم يتحدث عن الحارث بن هشام الذى فر من المعركة وبذلك يشع به ويعيره. فحسان يذكر ما وقع كما وقع ويقف منه موقف المؤرخ الذى يعبر عن الواقع التاريخى بالشعر.

وكان للهزيمة ببدر فى نفس كعب بن الأشرف أثر كحد السيف، فأكل الحقد قلبه وملأت الضغينة أرجاء نفسه، وما كاد يهتدى أى سبيل يسلك ليشفى غيظه ويشفى أوار موجدته إلى أن تفتقت حيلته عن أن يشبب بنساء المسلمين وله النية الخبيثة الخسيسة لإثارة المسلمين بما يطعن فى عرضهم ويخدش كرامتهم فى نسائهم. وهنا ذكر مقتل كعب بن الأشرف.

قال ﷺ: من لى بابن الأشرف؟

فأجاب محمد بن مسلمة: أنا يا رسول الله، أنا أقتله، فقال ﷺ فافعل. فانضم إليه سلكان بن سلامة وهو أخو كعب من الرضاعة، ومعهما عباد بن بشر والحارث بن أوس، وأرسلوا جميعا سلكان إلى كعب فتحدث معه ساعة وتناشدا الشعر ثم قال: ويحك يابن الأشرف! فقال عادتنا العرب ورمتنا عن قوس واحدة وقطعت عنا السبل، واستدرجه سلكان حتى خرج معه فمضى الرجال معهم إلى شعب العجوز، فأخذ سلكان برأسه، وقال: اضربوا عدو الله، فضربوه بسيوفهم فلم تغن شيئا، وصاح كعب صيحة أيقظت أهل الحصون من حولهم، فأخذ سلكان سكينا فغرزها فى بطنه فوقع عدو الله.

فقدموا على رسول الله ﷺ ، وأخبروه الخبر وذلك لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الأول من السنة الثالثة[1].

وقال كعب بن مالك فى مقتله:

فغودر منهم كعب صريعا	فذلت بعد مصرعه النضير
على الكفين ثم وقد علته	بأيدينا مشهرة ذكور
بأمر محمد إذ دس ليلا	إلى كعب أخا كعب يسير
فما كره فأنزله بمكر	ومحمود أخو ثقة جسور

هذه أبيات لا مدخل لها فى الرثاء بل هى ذكر للواقع على التفصيل فهى تاريخ بالمعنى الصحيح، والشاعر يصف ما وقع كما سلفت الإشارة إليه وبضيف إلى ذلك أن يهود بنى النضير ذلوا بعد مصرعه، أما أن يقول إن أخاه هو قاتله فتدل على أن كعبا كان يستحق القتل فإن أخاه لم يلق بالا إلى ما بينه من رحم بل كان الحق عنده أحق أن يتبع، وهذه قيمة معروفة من القيم الأخلاقية.

وقال حسان بن ثابت فى مقتل كعب بن الأشرف وقتل سلام بن أبى الحقيق:

لله در عصابة لاقيتهم	يابن الحقيق وأنت يابن الأشرف
يسرون بالبيض الخفاف إليكم	مرحا كأسد فى عرين مغرف
حتى أتوكم فى محل بلادكم	فسقوكم حتفا ببيض ذفف
مستنصرين لنصر دين نبيهم	مستصغرين لكل أمر مجحف

(١) د. عبد المنعم خفاجى: السيرة النبوية الخالدة ص ٢٤٨ القاهرة

فحسان فى هذه الطائفة من الأبيات يؤرخ لنا حدثا تاريخيا خاصا وبذلك يقف منا موقف المؤرخ الشاعر، إنه يصف مقتله ولا يسرف فى استخدام البديع لأنه إنما أراد الإفادة، إنه يذكرنا بالشاعر الفارسى الفردوسى ولكن مع فارق فى باعث الشاعرين على قول الشعر. فالفردوسى يريد التمجيد والإعلان عن مجد الفرس فى القرون الخوالى كما يريد أن يثبت أن الفارسية تقف على قدم المساواة إلى جانب العربية دون أن تستعير منها، وتلك نزعة قومية له وللسلطان محمود الغزنوى الذى أمره بنظم الشاهنامه، لإقامة الدليل على أن الفرس أعظم من العرب مجدا وأحق بالملك منهم، كما أن الفردوسى أراد أن يعبر عن شعوبيته أى تعصبه للفرس على العرب، أما حسان فقد ذكر هذا الحدث وهو حدث هام فى تاريخ الفترة التى عاشها وجزء هام من السيرة النبوية الشريفة. إن قتل هذين الشاعرين اليهوديين يعد نصرا للمسلمين لما عرفنا من هجائهما للنبى ﷺ وتأليبهما للمشركين عليه. وفى الوقت عينه يحدثنا أن من أقبلوا على قتلهما إنما قتلوهما يبغون أجر كريما عند الله لأنهم نصروا الإسلام ورسوله ﷺ وإنما أراد حسان لنفسه أن يكون معبرا عن كل ما يموج من حوله تعبيرا يقصد فيه إلى الواقع التاريخى، إضافة إلى أنه نصب من نفسه مدافعا عن المسلمين ورسولهم الكريم واقفا بالمرصاد لكل من حدثته نفسه بإلحاق الأذى به فى شخصه أو نبوته أو دعوته وبذلك يكون بحق شاعر هذه الفترة الأوحد الذى استوفى كل تلك الخصائص والشروط.

وننتقل ثانية إلى الرثاء، وما دمنا ندرس شعر المغازى فالمستقيم فى الأفهام أن يتصل شعرها بالرثاء، لأن فيها من ينتصر ومن ينهزم، ومن يمدح ببسالته ومن يبكى عليه لسيادته فى قومه. وفى حد المرثية قيل إن الشاعر تسمو روحه لأنه يواجه سر الموت وهو سر مغلق ويفضى به هذا إلى التفكر فى أسرار الحياة وصروف القدر. إنه يقف موقف الحيرة تجاه الموت ويا له من سر أبدى يرتد العقل عنه وهو حسيرا غير أنه فى أساه وبلواه تغمره روحانية تغمر نفسه بالصفاء[1]. والرثاء عند العرب لا بد يلفتنا للرثاء عند الترك قبل الإسلام، وكانت مرثيتهم طويلة حافة بمظاهر ما يهتمون بقوله، كانت تتضمن مآثر الميت

---

(1) Knaldles The Experiemce op Raetry P 43. (London).

وأوصافه فى حروبه على الأخص، مع تصوير دقيق للقتال والنضال ثم وصف الهيئة التى قتل عليها، والقول فيما خلف من فراغ فى قومه، والإشارة إلى فجيعتهم فيه. ولكم بالغوا فى وصف حزن الأشجار والأطيار والسماء والأرض عليه[1].

ومقتضى السياق من بعد أن ننظر فى المراثى التى قيلت فى المغازى.

يقول ابن الزبعرى فى قتلى بدر:

مـاذا علـى بـدر ومـاذا حولـه	مـن فتيـة بيـض الوجـوه كـرام
تركـوا نبيـها خلفـهم ومنبـها	وابنـى ربيعـة خـير خصـم فئـام
والحـارث الفيـاض يـبرق وجهـه	كـالبدر جلـى ليلـة الإظـلام
وإذا بكـى بـاك فأعـول شـجوه	فعلـى الرئيـس الماجـد ابن هـشام

إن الشاعر لقتل قومه لمحزون، ولكن حزنه حزن الرجال وفى عينه دموع الأبطال لأنه يذكر القتلى بأسمائهم ويخص كلا منهم بصفاته، ثم يستسلم وهو عاجز الرأى قليل الحيلة.

ولكن حسان يتهكم به ويستنكر منه بكاءه فيقول:

ابـك بكـت عينـاك ثـم تبـادرت	بـدم تعـل غروبـها سـجام
مـاذا بكـيت بـه الذيـن تتابـعـوا	هـلا ذكـرت مكـارم الأقـوام

وهذا من كلام حسان هجاء لمن بكاهم ابن الزبعرى لأنه لا يراهم جديرين بالبكاء عليهم، إنه يعنف به ويصدمه فى حزنه.

ولقد تلقت مكة أنباء هزيمتهم فى بدر واشتد ذلك عليهم كثيرا إلى حد أنهم منعوا النياحة على القتلى، من خشية أن يشمت المسلمون بهم. واتفق فى يوم بدر أن الأسود ابن المطلب أصيب ثلاثة من أبنائه يوم بدر وكان يود أن يبكى عليهم وهو ضرير، وسمع ذات ليلة صوت نائحة فبعث غلامه، وقال: انظر هل أحل النحب؟ وهل بكت قريش على قتلاها؟ على أبكى على أبى حكيمة - ابنه - فإن جوفى قد احترق، فرجع الغلام وقال: إنما هى امرأة تبكى على بعير لها ضل، فلم يتمالك الأسود نفسه وقال[2].

---

(١) كوبريلى زاده محمد فؤاد: تورك ادبياتى تاريخى ص٨٧ (استانبول ١٩٢٦).

(٢) صفى الرحمن المباركفورى: الرحيق المختوم ص٢٦٦ - القاهرة ١٩٨٨م.

أتبكـــي أن يضـــل لهـــا بعـــير ويمنعـــها مـــن النـــوم السـهود

فـلا تبكـي علـى بكـر ولكـن علـى بـدر تقـاصرت الجـدود

علـى بـدر سـراة بنـى هصيـص ومخـزوم ورهـط أبـي الوليـد

وبكـي أن بكيـت علـى عقيـل وبكـي حارثـا أسـد الأسـود

وبكيـهم ولا تسـمي جمعـا ومـا لأبـي حكيمـة مـن نديـد

ألا قـد سـاد بعـدهم رجـال ولـولا يـوم بـدر لم يسـودوا

فهذا شعر فى الرثاء إلا أنه خلو من الحزن بمفهومه الصحيح؛ إنه يذكر أسماء كثير من القتلى ولم يذكر أبا حكيمة ولده إلا عرضا وقال إنه منقطع الند وهذا كل ما رثاه به، إن مثل هذا الرثاء رثاء جماعى إن صح هذا التعبير، أى أن الشاعر لا يذكر فجيعته فى عزيز عليه كما هو الشأن إذا خص عزيزا عليه بالرثاء، ولذلك كان الكلام خبرا من الأخبار لا أثر فيه لعاطفة، ولا وصف فيه للنفس الملتاعة، وعنصر الحزن فيه جد ضعيف، وبذلك نجد الفارق البعيد بين خصائص هذا الرثاء وخصائصه التى أسلفنا ذكرها فى رثاء الترك وفى سمات الرثاء فى رأى بعض المحدثين من النقاد. ولعل مرد السبب فى هذا إلى أن القوم كانوا فى حروب متعاقبة لا يضطرم أوار إحداها حتى يعقبه أوار غيرها، ولذلك هان أمر القتلى على الشعراء أو كاد، ففترت أحزانهم، وكان حسبهم أن يشيروا إلى البكاء والدموع وذلك قصاراهم.

نذكر بعد ذلك ثلاثة من شعراء المسلمين هم كعب بن مالك وحسان بن ثابت وعبد الله ابن رواحة، واختص هؤلاء بالذود عن الإسلام، والرد على أعدائه وإفحامهم بالقول الحق، وجمهرة أشعارهم من شعر النقائض. وكان كعب بن مالك يخوف المشركين الحرب، وحسان يعيرهم بأنسابهم، أما عبد الله بن رواحة ينعى عليهم كفرهم، وبذلك تقلبت أشعارهم فى عدة أغراض، وقيل عن كعب بن مالك صاحب أفخر بيت قالته العرب وهو:

وببـدر بـدر اذ يـرد وجـوههـم جبريل – تحت لـوائنا – ومحمد

وقد رد على ضرار بن الخطاب الذى قال ما مجمله، أنه يعزى قومه عما لحق بهم من هزيمة فى بدر، ويتحدث عن الخيل وهى تخوض فى عجاج المعركة ويصف الصرعى فى

حومة الوغى، ويقول إن سيوفهم ما زالت الدماء عالقة بها، ويقول كذلك يصفهم بالشجاعة أنهم فى كل معرك وهم الأطيبون الأكابر.

فهذا الشاعر لم يزد على وصف رجاله بالشجاعة وليس لكلامه ماء ولا فيه رواء، ولكن كعب بن مالك يرد عليه بقوله:

عجبت لأمر الله، والله قادر	على ما أراد، ليس لله قاهر
قضى الله، بدرا، أن نلاقى معشرا	بغوا، وسبيل البغى بالناس جائر
وقد حشدوا واستنفروا من يليهم	من الناس، حتى جمعهم متكاثر
وفينا رسول الله، والأوس حوله	له معقل منهم، عزيز وناصر
فلما لقيناهم وكل مجاهد	لأصحابه، مستبسل النفس صابر
شهدنا بأن الله لا رب غيره	وأن رسول الله بالحق ظاهر

إن هذا الشاعر منوط العناية بالتعبير عما يملأ رحاب نفسه من إيمان، ويثبت أن المسلمين يحاربون من يحاربون الله ورسوله، فهم يحتسبون عند الله قتالهم واستشهادهم، ويفخر بأن الرسول ﷺ بينهم وأنه عز بمن التفوا حوله ونصروه بعد أن عز بنصر الله، كما وصف نفسية المحارب المؤمن وكيف أنه يستبسل فى القتال من أجل الجنة وكيف يصبر على اللأواء والشدة والمعركة حامية الوطيس ولا يلقى إلى ذلك بالا ما دام عامر القلب بذكر الله، وإيمانه بوحدانية الله تزداد رسوخا فى نفسه وهو يقاتل دونها ويبذل كل الجهد للصد عنها، وبذلك يختلف عن ضرار المشرك الذى لم يكن فى كثير أو قليل مما قال فكان شعره خلوا من الروحانية والشاعرية فى وقت معا.

ولقد شرف كعب بن مالك بمدح الرسول صلوات الله وسلامه عليه فى غزواته، ولذلك تعد سيرة ابن هشام المصدر الأول لشعر كعب رضى الله عنه، وجمهرة شعر حسان، وعبد الله بن رواحة، وكان لشعر هؤلاء الشعراء من الأنصار ما له من شديد الوقع على قريش، وعبرها من تلك القبائل التى ضلعت معها ضد الرسول ﷺ.

قيل لرسول الله ﷺ إن أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يهجوك.

فقام ابن رواحة فقال: يا رسول الله، ائذن لى فيه. فقال: أأنت الذى تقول: فثبت الله؟ قال: نعم يا رسول الله. أنا الذى أقول:

فثبت الله ما أعطاك من حسن	تثبيت موسى ونصرا كالذى نصروا

فقال: وأنت فعل الله بك مثل ذلك.

فوثب كعب بن مالك فقال: يا رسول الله: ائذن لى.

فقال: أنت الذى تقول (همت)؟

قال نعم يا رسول الله. انا الذى أقول.

همت سفينة أن تغالب ربها ... وليغلبن مغالب الغلاب

فقال: أما إن الله لم ينس ذلك لك[1].

ونعود إلى المراثى التى قيلت فى بدر إلا أننا نختص بالذكر مراثى النساء.

قالت صفية بنت مسافر بن أمية تبكى أهل القليب الذين أصيبوا من قريش يوم بدر:

يا من لعين قذاها عائر الرمد ... حد النهار وقرن الشمس لم يقد

أخبرت أن سراة الأكرمين معا ... قد أحرزتهم مناياهم إلى أمد

وفر بالقوم أصحاب الركاب ولم ... تعطف غداتئذ أم على ولد

قومى صفى ولا تنسى قرابتهم ... وإن بكيت فما تبكين من بعد

كانوا سقوب سماء البيت فانقصفت ... فأصبح السمك منها غير ذى عمد

إن البيت الأول من هذا الشعر يذكر بما قالت الخنساء فى أخيها صخر:

قذى بالعين أم بالعين عوار ... أم ذرفت أن خلت من أهلها الدار

وصفية تتجلى أنوثتها فى قولها إن القوم حين فروا فرت الأم من ولدها وهذا هول عظيم، ثم تلتفت إلى بيتها الذى خرب بقتل زوجها فتقول إن هؤلاء القوم كانوا يعمرون بيوتهم وكأنهم عمادها فبموتهم خرت سقوف تلك البيوت بعد أن خر أصحابها من الرجال الذى كانوا عمادا لها.

فكلتا الشاعرتين تعبران عن معنى واحد هو الحزن، والتعبير عنه بالبكاء الذى يعشى البصر، ومدح القتيل بأنه كان سيد قومه الذى لن يخلفه من هو مثله.

والخنساء أشد لوعة من صفية لأن صفية تبكى جمعا من الرجال، أما الخنساء فتبكى رجلا واحدا هو أخوها وأقرب ما يكون إليها. وقمين بالذكر أن الشاعرتين لم تذكرا عمن بكتاهم إلا أن السيادة كانت لهم فى قومهم وأن قتلهم خلف نساءهم بمس بعولهن ويرعى

---

(١) عبد العزيز الرفاعى كعب بن مالك ص ٥٢ القاهرة ١٩٧٧م.

شئونهن، بيد أنهما لم تتعرضا لوصفهم على أنهم من الشجعان البواسل كما صنع معظم الشعراء الذين رثوا قتلاهم.

إننا نعدم فى شعر صفية والخنساء ما كنا نتوقعه من نحيب وعويل، وهذا شأن النساء وذلك ما يذكرنا بشاعرة تركية من شواعر القرن التاسع عشر وهى ترثى أباها وهى فى جزعها وشدة حسرتها تقول – أقرب ما يكون إلى الواعية التى تسمع من النساء على وفاة الموتى – تقول الشاعرة التركية: "وتلهبت روحى بنار الاشتياق، الفراق آه الفراق آه الفراق، ليت طاقتى لا تنوء بحسرتى، الفراق آه الفراق آه الفراق. وبلاه لقد ارتحل أبى عن دنياه، الفراق آه الفراق آه الفراق. ألا نتخذ نايا ودفا من نوحنا وصدرنا، الفراق آه الفراق آه الفراق. وارتفعت إلى نظرة من أبى، ولم يبق إلا حشاشة من أبى فأحرق قلبى الصديع أبى. الله فى هذا القلب الكليم، الفراق آه الفراق آه الفراق"[1].

وبشعر هذه الشاعرة التركية نتمثل صورة لشعر تقوله النساء فى الرثاء بكل ما يتقلب فيه من معان وما يتوقع من كلمات وعبارات.

وفى رأى أن العرب كانوا لا يرثون قتلى الحروب، لأنهم ما خرجوا إلا ليقتلوا كان ذلك هجاء أو فى حكمه. ولكن الرثاء عندهم لمن يموت حتف أنفه، أو يقتل فى غير حرب من حروب التاريخ كالغارة ونحوها فحينئذ يعددون المآثر ويبالغون فى الفجيعة كأن هذا الموت غير طبيعى فيمن يستحق أن يموت[2].

وهذا رأى لا نميل إليه لأننا لا نجد له سندا من الواقع، خاصة بعد ما رأينا الرثاء رثاء قاله رجل وقالته امرأة، والقليل أمارة على الكثير، وسوف يمر بنا من بعد من الرثاء ما قاله

---

(١) جانمه كساراتيدى نار اشتياق	الفراق آه الفراق آه الفراق
اولمسيدى طاقتم حرتمه طاق	الفراق آه الفراق آه الفراق
كتدى عالمدن پدر واحسرتا	الفراق آه الفراق آه الفراق
آهمز ناى اولسون سينه دف	الفراق آه الفراق آه الفراق
مونى حالده بكا باقدى پدر بسودل	سودل ويرانه مسى يا قيدى پدر
مجروحه حسقدر دستكير	الفراق آه الفراق آه الفراق

(٢) مصطفى صادق الرافعى: تاريخ آداب العرب ص ١٠٤ جـ٣ القاهرة سنة ١٩٥٤م.

رجال ونساء. والوجه أن يقال إن الرثاء عند العرب فى الجاهلية لا يكاد يختلف عنه فى عصر النبوة، وله خصائص تتعلق به وقد تميزه من غيره فى باقى عصور الأدب العربى، وهنا نورد قول من قال إن ندب الموتى والنواح عليهم هو الصورة الأولى فى الرثاء الجاهلى، والمرأة العربية فى طليعة من بكى واستبكى وندب الموتى، فهاهى ذى الخنساء تبكى معاوية وصخرا[1].

ونعود إلى الباكيات الراثيات من النساء فإذا هند بنت أثاثه ترثى عبيدة بن الحارث بن المطلب:

لقد ضمن الصفراء مجدا وسؤددا ... وحلما أصيلا وافر اللب والعقل

عبيدة فابكيه لأضياف غربة ... وأرملة تهوى لأشعث كالجذل

وبكيه للأقوام فى كل شتوة ... إذا احمر آفاق السماء من المحل

وبكيه للأيتام والريح زفرة ... وتشبيب قدر طالما أزبدت تغلى

فإن تصبح النيران قد مات ضوؤها ... فقد كان يذكيهن بالحطب الجزل

لطارق ليل أو لملتمس القرى ... ومستنبح أضحى لديه على رسل[2]

فهذا القتيل تبكيه من تشيد به كوهيب معطاء وكأنما تلمح فى شعرها صورة لحاتم الطائى وهو فى الكرم من هو. إنها تسترسل فى وصفه بالكرم وتفصل القول فيه تفصيلا إلا أنها لا تذكره محاربا، إنها تحرص على وصف أنه من أهل البر والأريحية ينال الأرامل والأيتام من بره ما يحفظ الحياة عليهم. إنها لا تعبر عن الحزن إلا تعبيرا ضعيفا وهى تدعو إلى البكاء عليه، إنها معجبة به الإعجاب كله على أنه جواد سخى الكف يغيث الملهوف ويأخذ بيد من تردى فى وهدة الضياع.

وقالت هند بنت عتبة تبكى أباها يوم بدر أشعارا نختار منها لكثرتها:

أعينى جودا بدمع سرب ... على خير خندق لم ينقلب

تداعى له رهطه غدوة ... بنو هاشم وبنو المطلب

---

(١) لويس شيخو أنيس الجلساء فى شرح ديوان الخنساء ص٣ (بيروت ١٨٩٦م).

(٢) سيرة ابن هشام ٢/٣٠٢-٣٠٣ تحقيق د محمد مهدى السرجانى ط دار الفكر، القاهرة.

يذيقونـــــه حـــــد أســــيافهم	يعلونــه بعــد مــا قــد عطــب
يجرونـــــه وعفـــير الـــتراب	علــى وجهــه عاريــا قــد سـلب
وكـــان لــنا جــــبلا راســــيا	جمــيل المـــرأة كـــثير العـــشب

فالشاعرة تتلو تلو غيرها من الراسين والراسيات فى بدء كلامها بالاتجاه إلى العين بالخطاب ترغب منها أن تجود بالدموع السواجم ثم تصف القتلة التى قتل بها إلى أن تشبهه بالجبل فى قومه مريدة بذلك وصفه برفعة المكانة فيهم إلا أنها لا تبدى من جزعها عليه ما يستحق الالتفات إليه.

ونستفتح الكلام عن غزوة أحد بذكر هند بنت عتبة وإنما نذكرها لأن أباها كان يلهب حماستها فى الدعوة إلى الإدراك بالثأر وهذا لون جديد من الشعر قيل فى غزوات الرسول ﷺ فقالت مرتجزة:

وبها بنى عبد الدار	وبها حماة الأدبار

ضربا بكل بتار

وتقول كذلك:

إن تقبلـوا نعــانق	ونفرش النمـارق
أو تدبروا نفـــارق	فراق غير وامـق

كانت هذه المرأة شديدة العداوة لرسول الله ﷺ فقد قتل المسلمون آلها يوم بدر، واستقادوا زوجها يوم زحفهم مكة. ولقد أهدر ﷺ دمها يوم فتح مكة جزاء تمثيلها بجثمان عمه حمزة يوم أحد، إلا أنها جاءته مقنعة وقالت له (يا رسول الله الحمد لله الذى أظهر الدين الذى اختاره لنفسه لتنفعنى رحمك يا محمد، إنى إمرأة مؤمنة بالله، مصدقه برسوله، ثم كشفت عن وجهها وقالت أنا هند بنت عتبة. فقال ﷺ : مرحبا بك. فقالت: والله ما كان على الأرض أهل خباء أحب أن يذلوا من خبائك، ولقد أصبحت وما على الأرض أهل خباء أحب إلى أن يعزوا من خبائك"[1].

وبذلك طهر الإسلام قلب المرأة من الغل والإحنة، كما حسر عن عقلها حجاب الجهل، وما دمنا فى صدد الاستشهاد بشعر فى التحريض نمهد بالقول إن قريشا حز فى نفسها

---

(١) عبد الله عفيفى: المرأة العربية فى جاهليتها وإسلامها ص١٠١ جـ٢ القاهرة سنة ١٩٢٢م.

واشتد عليها كثيرا أن تلحق بها الهزيمة الماحقة فى بدر، وأول ما فعلوه أنهم أخذوا بالأسباب جامعة غير منقوصة ليدركوا بثأرهم فبدأوا باحتجاز العير التى كان قد نجا بها أبو سفيان والتى كانت عمدة السبب فى معركة بدر، وقالوا لمن كانت فيها أموالهم، يا معشر قريش، إن محمدا قد وتركم وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا ندرك منه ثأرا، فأجابوا لذلك، فباعوها، وكانت ألف بعير، أما المال فكان خمسين ألف دينار، وهو مال جزيل، وفى ذلك أنزل الله تعالى قوله﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون﴾ [الأنفال/٣٦].

وأعلنوا التطوع فى القتال على المشركين ضد المسلمين فدعوا الأحابيش، وكنانة وأهل تهامة للمساهمة فى هذا القتال. واتخذوا وسائل عدة لهذا التحريض وإثارة النفوس على المسلمين. مثال ذلك أنهم رأوا فى الشعر وسيلتهم الفضلى فى سبيل غرضهم، فأغرى صفوان بن أمية شاعرين هما أبو عزة الشاعر ومسافع بن عبد مناف الجمحى وكان أبو عزة هذا قد غمره الرسول ﷺ بعفوه ورحمته فأطلق سراحه وهو أسير فى بدر. ولكن صفوان بن أمية قال له يختله بالإغراء: يا أبا عزة إنك امرؤ شاعر، فأعنا بلسانك، واخرج معنا، فرد عليه بقوله: إن محمدا قد من على فلا أريد أن أظاهر عليه قال: (بلى) فأعنا بنفسك، فلك الله إن رجعت أن أغنيك، وإن أصبت أن أجعل بناتك مع بناتى، يصيبهن ما أصابهن من عسر ويسر. فخرج أبو عزة فى تهامة، ويدعو بنى كنانة ويقول:

أيها بنى عبد مناة الرزام ... أنتم حماة وأبوكم حام

لا تعدونى نصركم بعد العام ... لا تسلمونى لا يحل إسلام

كما تلا تلوه مسافع بن عبد مناف، فخرج إلى بنى مالك من كنانة، يدعوهم إلى حرب رسول الله فى تحريض مثير:

يا مال، مال الحسب المقدم ... أنشد ذا القربى وذا التذمم

من كان ذا رحم ومن لم يرحم ... الحلف وسط البلد المحرم

عند حطيم الكعبة المعظم

أما ما يتوضح مما سلف ذكره فمبلغ الاعتماد على ألسنة الشعراء فى إدارة رحى المعركة، لقد أبى أبو عزة الشاعر أن يهجو النبى ﷺ لأنه لم ينس ما أولاه من جميل، غير أنه استجاب

لما دعى إليه تحت إغراء شديد لم يطق أن يقاومه، لأن من أغراه مناه الأماني حيا وميتا ويلحظ على ما قيل من شعر في الإغراء أن فيه تنغيما وإيقاعا والرغبة من وراء ذلك هي تعميق الإثارة وشحذ الهمم، وهذا ما رأينا مثله كذلك في شعر هند بنت عتبة. فالشعر والرجز على الأخص يستويان في هذا من أثرهما في النفوس. كما أن من يدعى جبير بن مطعم لجأ إلى كيفية أخرى في الإغراء فدعى غلاما حبشيا له اسمه وحشي، يقذف بحربة له كما يقذف الحبشة، قلما يخطئ بها الهدف فقال له: اخرج مع الناس، فإن أنت قتلت حمزة عم محمد فأنت عتيق، فالوعد بالعتق هو غاية المتمنى إن كان عبد رق، ومما يدل على أن قريشا كانت على تمام الأهبة تعقد أكيد العزم على القتال وتحرص الحرص كله عليه ولها وطيد الأمل في الغلاب أن أبا سفيان بن حرب وهو قائد الناس وعكرمة بن أبي جهل والحارث بن هشام وصفوان بن أمية خرجوا وفي معيتهم نساؤهم ملتمسين منهن تشجيعهم على الحرب، ومعلوم أن المحارب يزداد ضراوة فيها ما كانت معه امرأته ولو لحمايتها من وقوعها في أسر العدو.

وهذا منهم مذكرنا بعادة المحاربين من العرب الذين كانوا يجعلون ظعائنهم أي نساءهم – خلف صفوفهم وهم يخوضون حومة الوغى لما سلف ذكره من أسباب، وفي ذلك يقول عمرو بن كلثوم:

على آثارنا بيض حسان	نحاذر أن تقسم أو تهونا
ظعائن من بني جسم بن بكر	خلطن بميسهم حسبا ودينا
أخذن على بعولتهن عهدا	إذا لاقوا فوارس معلمينا
يقدن جيادنا ويقلن لستم	بعولتهن إذا لم يمنعونا

فالشاعر هنا يتيه تيها بالمرأة العربية ويعجب بهذا من شأنها، كما يعنينا قوله إن نساء العرب يقدن الجياد في الحرب، فالمدرك من قيادة الجياد أن المرأة كانت مع حثها الرجال على القتال كن يساهمن في المعركة بقيادة الجياد وليس هذا بقليل الأثر في المعركة.

وهذا مذكرنا بالمرأة الفارسية، فنحن نعرف من تسمى أخت حجير صاحب القلعة البيضاء التي أنفت من أن ينهزم أخوها أمام البطل سهراب، فحملت قوسها وامتطت فرسها ونهدت إلى المعركة قائلة: أين أسود الرجال وأبناء القتال، كما أن أخت بهرام جوبين كانت على رأس جيش عظيم في عودتها من الصين ولما لحق بها أخو الخاقان يأمرها بالرجوع إلى الصين بارزته وقتلته[1].

---

(١) د. أمين عبد المجيد بدوي: القصة في الأدب الفارسي ص٢١٥. القاهرة سنة ١٩٦٤م

وهنا نلحظ وجها للتشابه والتخالف بين المرأة العربية والفارسية. فالعربية تشارك زوجها في القتال على نحو خاص، أما الفارسية فتحمل السلاح للقتال وتجندل الأبطال.

ولا علم لنا بأن الفارسية قالت شعرا تحث به الرجال على القتال كما كان من شأن العربية. ولغزوة أحد عظيم من قدر إذ جعل أحد كتاب الترك لها ميزة على غيرها بتسميتها غزوة أحد العظيمة، وتعليله أنها منسوبة إلى جبل أحد وأن الرسول ﷺ ، قال في حديث صحيح روى عنه "أحد جبل يحبنا ونحبه". ثم وصفها من بعد بأنها غزوة شريفة وقد وقعت في شوال من العام الثالث للهجرة.

وسببها أن كثيرا من علية القوم في قريش حصدتهم سيوف المسلمين في بدر. أما البقية منهم وهم جرحى نقلوا إلى مكة ولما رأتهم النساء انبعثن يعولن ويولولن فينفطر القلب لعويلهن وولولتهن، وهذا من شأنهن أثار الحمية في نفوس القرشيين وحرك فيهم عصبيتهم الجاهلية مما حمسهم على القتال والانتقام كما أن طائفة من البلغاء والشعراء هيجوا خواطرهم وحثوهم على القتال للثأر[1].

وقد دبر القرشيون الحرب تدبيرا دقيقا وتبادل المسلمون الرأى كذلك فيها. فقال قائلهم: "إنى لا أحب أن ترجع قريش إلى قومها لألا يقال حصرنا محمدا فى صياصى يثرب وآطامها، وفى ذلك مجرأة لقريش. وها هم هؤلاء قد وطنوا رمقنا فإذا لم نذب عن عرضنا (العرض كل واد فيه شجر) لم يزرع. وإن قريشا قد دامت حولا على جمع الجموع واستجلاب العرب من بواديها ومن تبعها من أحابيشها ثم جاءونا قد قادوا الخيل وامتطوا الإبل حتى نزلوا بساحتنا. أفيحبسوننا في بيوتنا وصياصينا ثم يرجعون وافرين لم يكلموا[2].

يتحصل من ذلك أن المسلمين كانوا يشاورون النبى ﷺ فى الأمر فكان بينه وبينهم أخذ ورد مما يدل على أنه كان يلقى سمعا وبالا إلى رأى غيره وتلك هى الغاية فى التواضع والتسامح، إنه كان يؤثر الانتظار ليكون البادى أظلم إلا أن أنصاره رأوا المبادرة بالإغارة عليهم ليظفروا بهم ويديرون الدائرة عليهم وذلك لأنهم كانوا مندفعين بحماستهم لقتلاهم وفى رأيهم أن الهجوم هو الوسيلة المثلى للدفاع.

---

(١) راشد: نواريخ أسياء فى إرشاد الأذكياء ص٢٣٧ دار سعادت ١٢٨١

(٢) أحمد إبراهيم شريف: الدولة الإسلامية الأولى ص ١٣٨ القاهرة سنة ١٩٦٥م

ولكن راجع الداعون إلى المبادرة بالقتال والخروج إليه رأيهم بعد أن تلبثوا مليا وناطقوا عقولهم وحسبوا أنهم خالفوا الرسول فيما رآه الصالح لهم والأخلق بهم.

وخرج ﷺ لهم لابسا عدة القتال، فأدركهم الندم على ما كان من مخالفتهم لرأيه وقالوا له: "ما كان لنا يا رسول الله أن نخالفك فاصنع ما بدا لك وما كان لنا أن نستكرهك والأمر إلى الله ثم إليك".

قال ﷺ : "قد دعوتكم إلى الحديث فأبيتم، وما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه. انظروا ما آمركم به والنصر لكم ما صبرتم).

وهذا شاهد على أنه ﷺ لم ينههم ولم يعنف بهم ولم يشأ أن يقسرهم على ما لا يقتنعون به ولو بادئ الرأى أشعرهم بأنهم لم يكونوا على الصواب فيما رأوا وأمهلهم حتى يدركوا أنهم على غير الصواب. ثم تابعهم على رأيهم إلا أنه أقنعهم أخيرا بضرورة الخروج معه لأنه لبس عدة القتال وما كان يسعه أن يتراجع بعد لبسها فمن شأن كل نبى ألا يخلع عنه عدة القتال بعد لبسها وبذلك ألزمهم الحجة وهم لا يشعرون وأقنعهم بأنه إنما يقول ما يقول ويفعل ما يفعل بوحى من الله.

ولنا أن ندرك من ذلك كيف أن الإسلام دين تعقل وتدبر وليس دينا يحجب العقول عن تفكيرها بصولة مرهوبة أو قولة لا سبيل إلى عدم الأخذ بها لقد ضرب صلوات الله وسلامه عليه المثل وبين خصائص الدين الحنيف الذى يدعو بالحسنى إلى الأخذ به.

ونعود إلى قول الشعراء فى القتال، فقد اتفق أن قتل شداد بن الأسود حنظلة بن أبى عامر (غسيل الملائكة) بعد أن كاد حنظلة يقتل أبا سفيان فقال أبو سفيان من أبيات:

فسابكى ولا ترعى مقالة عادل	ولا تسأمى من عبرة ونحيب
أباك وإخوانا له قد تتابعوا	وحق لهم من عبرة بنصيب
وسلى الذى قد كان فى النفس أننى	قتلت من النحار كل نجيب
ومن هاشم قرما كريما ومصعبا	وكان لدى الهيجاء غير هيوب

بهذه الأبيات يفخر أبو سفيان بما لم يكن له فضل فيه وهو يتهكم متجها بالخطاب إلى امرأة لعلها روح القتيل طالبا إليها أن تبكى بعين غزيرة وهو يظهر من الشماتة بها.

وفى الحق أن أبا سفيان كاد يقتل بسيف هذا القتيل لولا أن قتله شداد، وهذا منه تبجح ولا شك ودليل على خبث نيته ومجانبته للشهامة في قوله هذا الذى أجراه على لسانه ليمتلئ تيها بأنه قتل من قتل من سادات المسلمين، وبتعمق نفسيته ندرك أنه ذكر هذا لشعوره بأنه لم يفلح فى قتل من كان يريد له قتلا، ولذلك شاء أن يخفى عجزه وخيبته بذكر ما يخرج بعيدا عما وقع.

ولكن حسان بن ثابت انبرى له ليسفه قوله ويذكره بأن كلامه بهتان عظيم ويذكر عدة أسماء ليكيل صاعا بصاعين وما قال حسان إلا حقا:

ذكرت القروم الصيد من آل هاشم	ولست بزور قلته بمصيب
أتعجب أن قصدت حمزة منهم	نجيبا وقد سميته بنجيب
ألم يقتلوا عمرا وعتبة وابنه	وشيبة والحجاج وابن حبيب
غداة دعا العاصى عليا فراعه	بضربة عضب بله بخضيب

فحسان يقارع الحجة بالحجة لأنه رد عليه مبينا أن ما كان من قتل المشركين لبعض المسلمين ليس شيئا قياسا بما قتل المسلمون من المشركين فليس له أن ينتفخ تيها بمثل هذا، فإذا كانت الحرب سجالا بين طائفتين فليس من حق طائفة أن تفخر بنصر لم يكن لها.

والعجب أنه لما طاف بسمع شداد ما قاله أبو سفيان استخف به وبين أن قائله إنما قال الهراء وعيره فقال ابن شداد يذكر يده عند أبى سفيان الذى أشفى على الهلكة وكاد يخر صريعا تحت سيف حنظلة لولا أن قتل هو حنظلة وبذلك سلم أبو سفيان من القتل:

ولولا دفاعى يابن حرب ومشهدى	لألفيت يوم النعف غير مجيب
ولولا مكرى المهرى بالنعف قرقرت	ضباع عليه أو ضراء كليب

ومثل هذا الشعر يبين القتال على نطاق ضيق فهو براز بين رجلين إلا أنه مع ذلك يذكر بالقتال بين المشركين والمؤمنين على النطاق الواسع وليس فيه أثر للصنعة لأن المراد من قوله إنما كان الإفادة والإقرار بواقع الأمر.

ومما وقع فى أحد أن المسلمين انكشفوا فأصاب العدو فيهم وكان هذا اليوم يوم شدة وبلاء، وقد كان فيه من المسلمين من أكرمهم الله بالشهادة، ولكن المشركين بلغوا رسول الله ﷺ فدث بالحجارة حتى وقع لشقه، وكان وقوعه في حفرة أعدها المشركون ليتردى

فيها المسلمون، فشج في وجهه وكسرت رباعيته. وجرحت شفته، وكان من أصابه هو عتبة بن أبي وقاص وجعل الدم يسيل على وجهه، فمسح الدم وهو يقول: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم، وهو يدعوهم إلى ربهم؟! وهذه مقولة منه ﷺ لها في النفس ما لها من عمق أثرها؛ لأنها تبين كيف رد الكفار على الإحسان بالإساءة، أي أنه لم يرد لهم إلا هدايتهم من ضلالهم إلا أنه تعجب من أن يكون الجزاء من غير جنس العمل، وهذا هو الضلال المبين فكأنه من كرمه يعاتبهم ويقول ما كان هذا نصيبه إذ نصح لهم وهداهم، فهذا المحارب ﷺ يختلف عن كل محارب في صفاء سريرته وحسن نيته ونبل مقصده، ولقد أنزل الله في ذلك قوله ﴿ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون﴾.

ونزول تلك الآية الكريمة في هذا الحادث من الدليل على أن الله تعالى كان يراقب رسوله في حربه وكأنما شاء أن يرثي له مما أصابه ويطيب نفسه ولم ينس حسان ما وقع من شعر يقول فيه مؤرخا:

إذا الله جازى معشرا بفعالهم	وضرهم الرحمن رب المشارق
فأخزاك ربي يا عتيبة بن مالك	ولقاك قبل الموت إحدى الصواعق
بسطت يمينا للنبي تعمدا	فأدميت فاه، قطعت بالبوارق
فهلا ذكرت الله والمنزل الذي	تصير إليه عند إحدى البوائق

فحسان كلامه أشبه بالعتاب وهو يدعو الله عليه جزاء ما قدمت يداه ويذكره بأنه أتى أمر نكرا، ولذلك لم يطل في القول وأراد للإشارة أن تغني عن العبارة ومثل هذا الخطب الجلل في غنية عن بسط الكلام فيه تفصيلا، ومما وقع كذلك في أحد أن زياد بن السكن- ويقال عمارة بن يزيد ابن سكن- قاتل مع خمسة من الأنصار دون رسول الله ﷺ فقاتلوا رجلا ثم رجلا يقتلون دونه حتى كان آخرهم زياد - أو عمارة - فجعل يقاتل حتى أثخنته جراحته ثم جاءت فئة من المسلمين فباعدت المشركين عن النبي ﷺ وحجزت بينهم وبينه فقال ﷺ: ادنوه مني، فأدنوه منه، فوسده قدمه، فمات وخده على قدم رسول الله ﷺ وهذا يبين كيف كان ﷺ رحيما بمن معه يلطف بهم ويأبى إلا أن يدفع الأذى عنهم ولم يسهم في تلك اللحظة التي تتهدده بالهلاك وتتهددهم، ولا نعرف عنه ﷺ أنه قتل أحدا بل نعلم أنه كان يكتفي بالجرح. قيل إن أبي بن خلف أتى الرسول في أحد وهو يقول: أي محمد، لا نجوت إن نجوت، فقال القوم يا رسول الله أيعطف عليه رجل منا؟ فقال رسول

الله: دعوه، فلما دنا تناول الحربة من الحارث بن الصمه ثم استقبله فطعنه في عنقه طعنة تدأدأ منها عن فرسه مرارا، فلما رجع إلى قريش مخدوشا في عنقه خدشا غير كبير، فاحتقن الدم، قال: قتلني والله محمد قالوا له: ذهب الله فؤادك، والله أن بك من بأس، فقال: إنه قد كان قال لي بمكة: أنا أقتلك، فوالله لو بصق علي لقتلني. فمات عدو الله. وفي ذلك يقول حسان طائفتين من الشعر نختار مها قوله:

ألا من مبلغ عني أبيا	لقد ألقيت في سحق السعير
تمني بالضلالة من بعيد	وتقسم إن قدرت مع النذور
تمنيك الأماني من بعيد	وقول الكفر يرجع في غرور
فقد لاقتك طعنة ذي حفاظ	كريم البيت لبس بذي فجور
له فضل على الأحياء طرا	إذا نابت ملمات الأمور

إنه يذكر ما وقع أصلا ثم يمتدح النبي ﷺ عرضا وبذلك يصدقنا الخبر بالتمام والصواب عما وقع.

ومما يذكر عن وقعة أحد أن من يسمى قتادة بن النعمان وهو ممن جاهدوا جهادا عظيما في أحد أصابه سهم في عينه فأسالها على خده، فذهب إلى النبي ﷺ فردها إلى مكانها، فعادت كما كانت، بل كانت أحسن عينيه، وقيل إن رجلا من ولد قتادة قدم إلى عمر بن عبد العزيز فقال له عمر: ممن الرجل؟

فأنشد يقول:

أنا ابن الذى سالت على الخد عينه	فردت بكف المصطفى أحسن الرد
فعادت كما كانت لأول أمرها	فيا حسن ما عين ويا حسن ما رد

وكان قتادة هذا ممن يحبهم رسول الله ﷺ[1].

وتلك لا ريب معجزة من معجزات الرسول ﷺ في أحد وقد بقيت ذكراها عالقة بالنفوس على مر الأيام إلى أن أحد أبناء قتادة هذا تاه تيها بأن جده هو من ظهرت عليه هذه المعجزة حتى إنه ذكرها في بيتين من الشعر أمام عمر بن عبد العزيز.

ومما جاء في أخبار أحد أن النبي ﷺ كتب عليه:

---

(١) د. حمزة الشرتي بطولات إسلامية في أحد القاهرة سنة ١٩٨٩م.

فى الجبن عار وفى الإقدام مكرمة   و المرء بالجـبن لا ينجو من القدر

وقال من يأخذ هذا السيف بحقه؟ فتنافس الرجال من يأخذه منه، ولما قام على (كرم الله وجهه) لأخذه قال له النبي صلى الله عليه وسلم: " اجلس " فقام عمر، فأعرض عنه.

وقام الزبير فأعرض عنه كذلك، ثم قال إليه أبو دجانة (رضي الله عنه) فقال: ما حقه يا رسول الله؟ فقال ﷺ: حقه أن تضرب به فى وجه العدو حتى ينحنى.

فقال أنا آخذه بحقه. فأعطاه الرسول ﷺ إياه، فأخذ أبو دجانة عصابة حمراء مكتوب فى أحد طرفيها: (نصر من الله وفتح قريب) وفى طرفها الآخر:(الجبانة فى الحرب عار، ومن فر لم ينج من النار).

فعصب بها رأسه، فقالت الأنصار: أخرج عصابة الموت!

فخرج بها وهو يقول

أنا الذى عاهـدنى خليلى   ونحـن بالسفح لدى النخيل

ألا أقوم الدهر فى الكبول   أضرب بسيف الله والرسول

وهنا نتأمل تلك الحماسة الدافقة التي كانت للمسلمين المحاربين فى أحد وهى حماسة لا تنبعث من مجرد القوة وشدة البأس والقدرة على البطش ليس غير، بل إنها تنبعث من الإيمان العامر به قلوب المسلمين، إنه لا يضرب بسيف أي سيف بل بما تلقاه من النبي صلى الله عليه وسلم وكان هذا حسبه لينطلق محاربا مجاهدا فى سبيل الله كما أنه صلى الله عليه وسلم إلى من يقدم هذا السيف وهذا كله غيوب لا يعلمها إلا علام الغيوب.

ولما بلغ ﷺ الشعب جاءت إليه بنته فاطمة – رضى الله عنها – وغسلت عنه الدم، وكان على كرم الله وجهه – يسكب عليه الماء، ثم أخذت قطعة من الحصير فأحرقتها وضمدت بها الجرح فاستمسك الدم. وأراد ﷺ أن يعلو الصخرة التى فى الشعب فلم يمكنه القيام لكثرة ما فقد من دمه الشريف فحمله طلحة بن عبيد الله حتى أصعده، ونظر الرسول إلى الجماعة من المشركين وهم على ظهر الجبل فقال: لا ينبغى لهم أن يعلونا، اللهم لا قوة لنا إلا بك. ثم أرسل إليهم عمر بن الخطاب فى جماعة فأنزلوهم عن ظهر الجبل[1].

(١) أبو النصر مبشر الطرازى، السدة فى السيرة النبوية ص ٣٠١ الإسكندرية

والمتبين من هذا الخبر أنه ﷺ حتى وهو جريح أضعفته جراحته يأتمر بأمر الله فى تدبير المعركة وهو على وعى تام بما يموج فيها من حوله فرأى ضرورة أن يهبط المشركون من أعلى الجبل حتى لا يعلوا على المسلمين وهذا العلو لنا أن ندرك منه علوا معنويا وآخر غير معنوي. فالمعنوى أنه لاينبغى للمشرك أن يكون أعلى درجة من المؤمن كما أن المسلمين حينما شغلوا عن الحرب بالغنائم تحين المشركون منهم ذلك وصعدوا إلى الجبل ليرموهم بالسهام وهذا ما أوقع الهزيمة بهم.

ومبلغ علمنا أن الشعراء لم يقولوا شعرا فى جرح الرسول وإن كنا لا ندعى أننا اطلعنا على كل ما قالوا فنحن نذكر ذلك متحفظين وإذا كان لنا أن نجتهد بالرأى فى تعليل ذلك إن المسلمين تأثموا من أن يقولوا شعرا يؤرخون به ما وقع له ﷺ. أما المشركون فما رأوا وجها للقول فيه لأنه على الحقيقة خدش ولم يجرح جرحا بليغا وهذا ما لا حاجة فيه إلى ذكر أن المسلمين بعد رجوعهم إلى المدينة من أحد صح منهم العزم على أن يعاودوا الكرة ويغيروا على المشركين، حتى يصدوا أبا سفيان عن المدينة، فقدم رجل من خزاعة على المشركين ويقول لهم إن محمدا قد خرج إليكم في جمع لم أر مثله وهم مغيظون. محنقون ثم أنشد:

كادت تهد من الأصوات راحلتى	إذ سالت الأرض بالجرد الأبابيل
فقلت: ويل ابن حرب من لقائكم	إذا تغطمطت البطحاء بالجيل
إنى نذير لأهل البسل ضاحية	لكل ذى إربة منهم ومعقول
من جيش أحمد لا وخش تنابله	وليس يوصف ما أنذرت بالقيل

ولما سمع أبو سفيان هذا من قول الرجل، رغب إلى قومه بالرجوع، فهذا الشعر يتضمن خبرا، وحسب إلا أن قائله كان متحمسا يقظا كل رغبته أن يقتنع قومه برأيه ويعملوا بمشورته ويأخذوا حذرهم من عدوهم، وهنا ندرك أهمية الشعر وعمق وقعه فى أغوار النفوس خاصة إذا كان غرض الشاعر أن يعلن عن أمر عظيم أو يحذر من خطر داهم، فلولا أن قال الرجل ما قال فى هذه الأبيات التى أنشدها لما ألقى أبو سفيان سمعا إليه ولا اكترث لما يقول، إنه كان نذيرا يتجه بالخطاب إلى المقاتلين ليلزموا جانب الحذر.

يقول التاريخ إن حمزة بن عبد المطلب كان فى عداد المستشهدين فى غزوة أحد، والخبر في ذلك أن وحشى غلام جبير بن مطعم انتهز منه غفلة وبرمح طعنه، وقد أغراه سيده بالعتق إن هو قتل حمزة إمعانا منه فى شدة حرصه على أن يصرعه لحاجة فى نفسه. وشاءت هند زوجة أبى سفيان بن حرب أن تشفى غيظها وتنفس عن ضغينتها بأن تمثل به، فمثلت به أبشع ما يكون التمثيل لأنها بقرت بطنه وأخرجت كبده لتأكلها فلاكتها ولم تستطع أن تزدردها فألقتها، ورأى ذلك رسول الله ﷺ فأدركته الرقة عليه وقال: رحمة الله عليك فإنك من علمناه، ما كنت إلا فعالا للخيرات وصولا للرحم.

ولقد رثاه حسان بقصيدة طويلة استهلها بوصف النساء النوائح. وقد نشرن شعورهن وخمشن وجوههن وجرت دموعهن دما على خدودهن فكأن الأنصاب تخضب بالذبائح وبذلك نظم فى معركة أحد ما يدرجها فى سجل التاريخ ونحن نجتزئ من قصيدته قوله:

أصحـاب أحـد غـالهـم	دهـر ألم لـه جـوارح
من كـان فارسـنا وحـا	مـينا إذا بعـث المسالـح
ياحـمــز، لا والله لا	أنسـاك ما صـر اللقائح
لمنـاخ أيتـام وأضـيا	ف وأرمـلـة تلامـسح
يا فـارسـا يا مـدرهـا	يا حمز قد كنت المصامح
ذكرتنـي أسـد الرسـو	ل وذاك مدرهنا المنافـح
يا حمـز قـد أوحدتنـى	كالعود شذ به الكوافـح
أشكو إليك وفوقك التـر	ب المكور والصفائـح

فهذه الطائفة من الأبيات تعد تتمة لما قال ﷺ فقد أثنى عليه الثناء كله على أنه فعال للخير وصولا للرحم وهاتان صفتان حسب من تجريان عليه أن يكون ملتفتا إليه مأسوفا عليه، وحسان بعد ذلك ينتقل من العموم إلى الخصوص فبعد أن يذكر ما لحق بأصحاب أحد يلتفت إلى حمزة فيقول إنه أسير إليه عزيز عليه ما فتئ عالقا بذكراه فى اتصال ودوام، لما كان من بره باليتامى و الأرامل وبذله القرى للأضياف فجعله رحيما كريما في وقت معا، ثم تجاور ذلك إلى وصفه بالنجدة والبسالة والفصاحة واللسن. وبعد أن انتهى من تعداد مآثره ومناقبه - وما أكثرها أخذ فى التعبير عن ما صدع قلبه من أسى لموته وهذا

خاص من شأنه وعلاقة واشجة بينه وبينه مما جعل رثاءه له من شقين الأول رثاء عام فيه ذكر لصفاته ومنزلته فى قومه وآخر خاص لما كان بينه وبينه من آصرة المودة فهو يشكو إليه بعد وفاته بعد أن كان يشكو إليه فى حياته وبذلك تنفرد مرثيته عما عرفنا من قبل وتدخل شيئا ما فى الشعر الغنائى الذى يعبر فيه الشاعر عن ذات نفسه.

وله فيه مرثية أخرى طويلة يقول فى ديباجتها إنه يريد أن يقف بدار الأحبة ولا يريد أن يكون بهن فى شغل بل يزجر نفسه عن هذا ليذكر مصابه فى حمزة وبذلك يكون الراثى الذى يصدقنا التعبير عما يتكمس فى قلبه من حزن محض:

دع عنك دارا قد عفا رسمها	وابك على حمزة ذى النائل
واللابس الخيل إذا أجحمت	كالليث فى غابته الباسل
مال شهيدا بين أسيافكم	شلت يدا وحشى من قاتل
أظلمت الأرض لفقدانه	واسود نور القمر الناصل
صلى عليه الله فى جنة	عالية مكرمة الداخل
كنا نرى حمزة حرزا لنا	فى كل أمر نابنا نازل

والشاعر فى قصيدته تلك جاءنا بجديد لم نعهده من قبل فيما قيل من مراثى المغازى، فهو يشرك الكون من حوله فى حزنه على صاحبه المفتقد يريد للأرض أن تظلم ولنور القمر ليشحب، كما يدعو له أن يكون فى مرضاة الله وهو فى جنة الخلد وبذلك تبدو شاعرية حسان فى طور آخر من طورها فبعد أن كان مدافعا مناظرا ليس غير جعله موت حمزة شاعرا رقيق القلب بعيد الخيال. ثم يتجه بالخطاب منهكما إلى هند بنت عتبة وينبهها إلى ما لا يسعها أن تنساه أو تتناساه. فلقد قتل حمزة من قبل أباها وأخاها. فكان عليها بدلا مما قدمت يداها وذلك الإثم الذى وقعت فيه أن تبكى على قرانتها فهم أحق بالبكاء عليهم وفجيعتها فى أبيها وأخيها أعظم من فرحة الشماتة التى أنستها ما ينبغى أن يكون وفاء ورثاء وهو بمثل هذا من قوله يقف منها موقف من ينافح ويدافع عن قومه ويرد على ما كان منهم بالنسبة إلى من هو المدره لهم:

لا تفرحى يا هند واستحلبى	دمعا وأذرى عبرة الثاكل
وابكى على عتبة إذ قطه	بالسيف تحت الرهج الحائل
أرداهم حمزة فى أسرة	يمشون تحت الحلق الفاضل

فكان ينبغي أن تذكر هذا ولا تنساه وقمين به أن يشغلها عن الشماتة بحمزة على النحو الذى عبرت به عن فساد قلبها وبشاعة ضغينتها لأنه لا يغنى عنها شيئا ولن يمحو نكبة حلت بها ولا عارا تتأذى به نفسها.

ولكعب بن مالك مرثية من جياد الشعر فى حمزة لأنه يعرضها علينا فى صورة الباسل المقدام بعد أن يصف هول الفجيعة فيه وكرمه الذى بلغ المدى ويقدم لقصيدته كما قدم حسان متجها بالخطاب إلى نفسه أو صاحبه جريا على العادة فيرده عن اللهو والصبابة وينبهه إلى أن يشغل فؤاده بما له الأهمية و الرجعان ويذكره بأن حزنه إن كان على هجر الحبيب فهو على مصرع حمزة من باب أولى. ويشبه حسان بن ثابت فى إشراكه ما حوله فى بيئته فى فجيعته فهو كحسان يخلع على الطبيعة من حوله صورة من نفسه.

ولقد هددت لفقد حمزة هـدة	ظلت بنات الجوف منها ترعـد
ولو انه فجعت حـــراء بمثله	لرأيت راســى صخرهـا يتبـدد
والعاقر الكوم الجلاد إذ غدت	ريـح يـكاد الماء منها يجـمـد
وتراه يرفد فى الحديـد كأنـه	ذو لبـدة شـثن البراثن أربـد
عـم النبـى محـمـد وصفـيه	ورد الحمام خطاب ذاك المـورد
وأتــى المنـية معلما فى أسـرة	نصروا النبى ومنهم المستشـهـد
ولقد إخال بذاك هندا بشرت	لتميت داخل غصة لا تــبرد

والشاعر لا ينسى لحمزة صلة القرابة بينه وبين نبى الإسلام ﷺ وهو يحسن أيما إحسان حين قال إنه فى زمرة من نصروا النبى ومنهم المستشهد، فهو يضيف نصره للنبى ﷺ واستشهاده من أجله إلى مناقبه ومآثره، وبذلك يكون قد استوفى مدحه بكل الصفات التي لممدوح فى العرب.

ونعود إلى كعب بن مالك لنراه يقول فى شعر من السهل الممتنع الخالى من الغريب رثاء فى حمزة وبذلك يختلف عن حسان وعن شعره الذي قاله وهو يرثيه:

صفـية قومى ولا تعجـزى	وبكى النساء على حمـــزة
ولا تسأمى أن تطيلى البكـا	على أســد الله فـى الهــزة
فــقد كــان عــزا لأيتامـا	وليـث المـلاحـم فى البـرة
يريـــد بــذاك رضـا أحمـد	ورضـوان ذى العرش والعزة

فكعب فى هذه الأبيات وحسان وقصيدته السالف ذكرها يتفقان فى مطلع المراثى التى قيلت فى حمزة لأن فيها الدعوة إلى الحزن على حمزة وطرح كل شاغل عنه جانبا وحث للنساء على العويل والنياحة تعبيرا عن المصاب فيه.

وفى هذه الأبيات الأواخر جمع كل شيء يسع الذاكر أن يذكره عنه.

ولكننا مع ذلك كله، إذا مضينا متلمسين تعرفا لأوصافه متنسمين أخباره الا نعْدم مزيدا وجديدا لقد خر صريعا شهيدا فى سبيل الله، بعد أن حقق فى نفسه صفات المؤمن الكامل، وهو فى محياه ومماته من أعلام الإسلام الذين لا نسيان لهم على طول الزمان، كان إذا مر بسمعه كلام تتأذى به نفسه من قبل القرشيين أضمره فى نفسه متحينا فرصة للانتقام منهم، اتفق ذات يوم لحمزة وهو عائد من الصيد أن أخبره خادمه بأن أبا جهل سب النبى ﷺ وناله بما يكره، فانطلق إليه ووجده جالسا فى جماعة من سادة قريش، فهوى بقوسه على رأسه فشجه قائلا: " أتشتم محمدا وأنا على دينه أقول ما يقول، ألا فرد ذلك على إن استطعت" [1].

وهذا من الدليل على رباطة جأشه وثباته على رأيه، وأنه كان مدافعا عن الرسولﷺ بلسانه ويده يقظ الوعى يتعرف كل خبر ويتهيأ لصد كل مكروه من قول وفعل عن نبى الإسلام.

وقد استفاضت لحمزة عند المسلمين من كل الأجناس الشهرة بربطة الجأش ونذكر هنا الترك، فقصة حمزة من القصص الشعبية التى صادفت هوى فى نفوس الترك وملكت عليهم إعجابهم، وترددت على ألسنتهم، ولا عجب. فقد كان من أوائل المؤمنين بالنبىﷺ فأحبه وقدره منذ طويل زمان، فانعقدت بينهما أواصر المودة كانعقاد أواصر القربى، وكانا متقاربين فى السن مما قوى من الصلة بينهما، فما كان من فرق بينهما سوى عام واحد، وبذلك يكون قد استجمع أوصاف البطل أو على التحديد البطل الشعبى عند الترك الذي يتميز بالمروءة والأريحية والكرم والشجاعة وكل ما يتصل بهذا من سبب. ففى منتصف القرن الرابع عشر للميلاد عرف فى الأدب الشعبى التركى ما يسمى حمزه نمه أى كتاب

---

(١) خالد محمد خالد. رجال حول الرسول، ص ٦ ج ٢ (القاهرة١٩٦٧).

حمزة، وهو يتضمن سيرة أسد الله هذا، وكان لهذه القصة الشعبية واسع الذيوع بين طبقات الشعب التركي، وذلك لانعقاد الصلة بينه وبين رسول الله ﷺ وبطولته المنقطعة النظير التي ملكت على الترك إعجابهم. وتعد هذه القصة أعظم وأهم قصص البطولة الإسلامية عند الترك، وقد بدئ في تدوينها في القرن التاسع وظلت تدون وتقرأ إلى القرن الرابع عشر[1].

وحسبنا هذا القدر من الكلام على حمزة وهو وإن كان له تتمة إلا أن هذه التتمة قريبة الشبه بما سبق قوله وعلمه وحسبنا من القلادة ما أحاط بالعنق، ولعمرو بن العاص قبل أن يدخل في دين الله شعر يفخر فيه بنفسه ويصف خروجه على فرسه الشهباء ليخوض بها عجاج المعركة غير مبال بالموت لأن الموت غاية كل حى، ويصف فرسه فى عدوه باليعفور وهو الغزال فى لون التراب فيقرر الواقع الذى لا يتوقع سواه فى هذا المقام.

ويرد عليه كعب بن مالك بقوله:

أبلغ قريشا وخير القول أصدقه	والصدق عند ذوى الألباب مقبول
أن قـد قتلنا بقتـلانا سراتكم	أهـل اللـواء ففيما يكثر القـيل
ويوم بدر لقيناكـم لنا مـدد	فيه مع النصـر ميـكال وجبريل
إن تقتلونا فدين الحق فـطرتنا	والقتل فى الحـق عند الله تفضيل
وإن تروا أمرنا فى رأيكم سفها	أى من خالف الإسـلام تضليل

هذه الأبيات من قصيدة طويلة ونحن نؤثر إيرادها هنا لما ترشد إليه من دلالة. فالشاعر يفخر بإيمانه وبأنه يحارب فى سبيل الله، وله من يؤازره من الملائكة ويباهى بدينه وينسبه إلى أنه لا يهاب الردى فى سبيل الحق، وبذلك يبرز مدلول الغزوة والجهاد فى سبيل الله، لقد ذكر من يعد سيوف قومه و تروسهم، وكل ما ذكره من أوصاف لا جديد فيها، ولا إشارة إلى أن الشاعر أراد تحسين الكلام وتنميق العبارة، بل كان حسبه أن يذكر من يرد عليه بحقيقة ما وقع، والنظرة في هذه القصيدة تفيد أن الشاعر كان سلس العبارة مأنوس الألفاظ فى النصف الأول منها حينما عبر عن الإيمان والجهاد في سبيل الله إلا أنه بعد ذلك أورد ألفاظا غريبة غير مأنوسة.

وهذه أبيات تبكى فيها نعم زوجها شماس الذى كان من قتلى أحد:

---

(1) Boralay Turk Halk Edebiyatı 539 (Istanbul 1969).

ياعين جودى بفيض غير إبساس	علــى كريـم من الفتـيان أبـاس
صعـب البديهة ميمـون نقيبتـه	حمـال ألـويـة ركـاب أفراس
أقـول لما أتى الناعى له جزعـا	أودى الجواد وأودى المطعم الكاسى
وقلـت لمـا خلت منه مجالسه	لا يبـعد الله عـنا قـرب شماس

هذا الرثاء يجمع كل المعاني التي أدارتها الشواعر بالذات في رثاء رجالهن فالبدء في ترغيب العين في البكاء، وهذا ما شارك في قوله الراثون كذلك والشاعرة تستمد من بيئتها وصفا لدمعها، فهي تريد لعينها أن تبكي حقا لا أن تتباكى ولا تريد لعينها أن تكون كضرع الناقة الذي يمسح ليدر، مما يدل على أن بعض النسوة كن يتباكين وهن معولات، كما مدحته بالكرم والكرم على رأس الفضائل عند العرب في ذلك الزمن وتلك البيئة خصيصا كما تمدحه بالشجاعة وبالفروسية، كما تتحدث عن وقع النعى على نفسها، فمدحته بأنه الشجاع والكريم المطعم الكاسي، وهذا كل ما تريده المرأة العربية في زوجها إلا أنها كغيرها من الراثيات والراثين لا يتحدثون عما في قلبهم من لوعة الأسى وإنما جل الكلام على مدح الميت بالكرم والشجاعة.

وآخر ما نورده وندرسه من شعر في غزوة أحد قول هند بنت عتبة:

رجـعت وفى نفـسى بلابل جمـة	وقـد فاتنـى بعض الذى كان مطلبى
من أصحاب بدر من قريش وغيرهم	بنى هاشـم منهم ومن أهـل يـثرب
ولكننـى قـد نلت شـيئا ولم يكن	كما كنت أرجو فى مسيرى ومركبى

تلك هي هند بنت عتبة الشريرة الخبيثة التي بقرت بطن حمزة ولاكت كبده ما زالت تعبر عن الشر الذى يجرى مجرى الدم فى عروقها ويملأ عليها رحاب نفسها فلا تستطيع أن تكف نفسها عنه طرفة عين لأنها جبلت عليه. إنها تتحدث إلى نفسها أو إلى غيرها مقرة بأنها مع كل ما صنعت لم تشف غليلها وكانت لها مآرب أخرى فاتها أن تحققها.

إنها تلقى الضوء على تلك الظلمة التى طمست قلبها وبذلك ذكرتنا بمن يطيب لهم أن يعملوا السوء ولا يقر لهم قرار إلا بعلمه، وهم بعلمونه ربما على غير وعى منهم لأنهم مسوقون إليه بنحيزتهم، وهم شرار الناس لا يملكون أن يكونوا من خيارهم.

والذكر بعد ذلك لغزوة الخندق، وهى غزوة لها خبر يطول، مجمله أن يهود بنى النضير بعد أن جلوا عن ديارهم صحت عزيمتهم على أن يثأروا من المسلمين الذين أزعجوهم عن موطنهم فمضى بعض سادتهم إلى مكة وهناك التقوا رؤساء قريش وانضموا إليهم لإثارة الفتنة على المسلمين، وبذلك دبروا هذه المكيدة وتفتقت حيلتهم عن هذه الرغبة التى هيئوا لها كل الأسباب، وأمعنوا فى الخداع والترغيب فعاهدوا الكافرين فى حربهم مع المسلمين، وبذلك كانوا معهم إلبا واحدا على المؤمنين، وقد تكرر منهم ذلك من قبل ولم يكفهم هذا، بل تجاوزه إلى اتفاقهم مع رجال غطفان واجتذبوهم إلى جانبهم وبذلك كثر عدد من يحاربون الله ورسوله ﷺ من يهود ومشركين. ولقد تجهزوا جميعا لهذه الحرب وأعدوا ما استطاعوا من قوة وعدد وعدة، ونمي إلى رسول الله ﷺ خبر هؤلاء الغادرين الكاشحين، فجمع أصحابه وشاورهم فى الأمر جريا على عادته المحمودة فى المشورة صوعا بأمر الله الذى أمره أن يشاورهم فى الأمر، فأشار سلمان الفارسى بحفر الخندق، ويذهب بعضهم إلى أن العرب قبل أن يخوضوا حروبا مع الروم ويذكرون أن النبى ﷺ عرف الخندق عن سلمان الفارسى[1]وكان سلمان عند النبى ﷺ من يمثل حضارة عريقة فى القدم، وكان يبذل العون للنبى ﷺ لا ليتخونه فهو الذى عرف بحرب الخنادق، وتلك أول ظاهرة فنية تلقاها العرب عن الفرس بعد الإسلام، وهو عند المسلمين حتى الذين لا يعرفون شيئا عن الفرس، رائد المعرفة الفنية[2]ولقد عمل ﷺ فى حفر الخندق بنفسه، والفتيان ينقلون التراب، ويخرج المهاجرون والأنصار حاملين المكاتل على رؤوسهم.

وأثناء حمله للتراب ﷺ يقول مرتجزا:

هذا الجمال لا جمال خيبر هـــــذا أبـــر وأظـــهر

وجدير بالذكر أن المسلمين انخلعت قلوبهم رعبا قبل أن يخوضوا المعركة خاصة بعد أن حاقت بهم الهزيمة فى أحد لأنهم لم يأمروا بأمر النبى ﷺ، الذي أمرهم بالبقاء فى المدينة، ولذلك كان تعويلهم على البقاء فيها فى هذه المعركة[3].

(1) Levy: The Social Structwu oB Islam P.437(Cambridge1957).
Masse: L,Ame de L,Iran P 87 (Paris1951)

(٢) محمد على حليلى: زندكانى محمد پيغمبر إسلام، ص٤٠٣ ، ٤٠٤ (تهران١٣٣٧).

(٣) المصدر السابق.

ومما جاء فى وصف معركة الخندق أن النبى ﷺ حوصروا تسعا وعشرين ليلة! وكان القتال الرشق بالنبال والرمى بالحصى، إلى أن اقتحم بعض الفوارس على المسلمين خندقهم ومنهم عمرو بن ود، فخرج على كرم الله وجهه فى جماعة من رجاله، وأخذوا عليهم ثغرة أقحموا خيلهم منها، ثم بارز على عمرا. فقال له عمرو: ما أحب أن اقتلك يابن أخى.فرد عليه قائلا: أما أحب أن أقتلك فنزل عمرو عن فرسه مغضبا وأقبل على على، فتنازلا وتجاولا، وشد عليه على وضربه ضربة قتلته. فارتد المشركون عن الخندق منهزمين.

وقال – كرم الله وجهه – فى ذلك:

نصر الحجارة من سفاهة رأيه	ونصرت رب محمد بصواب
فصددت حين تركته متجدلا	كالجذع بين دكادك وروابى[1]

فعلى كرم الله وجهه يتغنى بهذا الكلام وهو فى نشوة نصره فهو منفعل وكل انفعاله فيه الحاجة إلى تعبير، ولكنه يجهر ويفخر لا بأنه غالب عدوه بمفرده بل بأنه ناصر رب محمد. وبذلك يصدقنا التعبير عن ذات نفس المجاهد فى سبيل الله وهو يمهد لما ذكر متهكما بخصمه الذى يسفه رأيه لأنه يقاتل دون تعقل ويتوهم أنه الغالب وحقيقة الحال أنه ليس من هذا فى كثير ولا قليل.

وعلى كرم الله وجهه كثير الفضائل وحسبنا قولنا أنه أول من أسلم وأول من صلى وهاجر وشهد بدرا والحديبية، وبيعة الرضوان والمشاهد كلها غير تبوك، وابتلى أعظم البلاء فى بدر وأحد والخندق وخيبر، وكان لواء رسول الله ﷺ بيده فى مواطن عدة. وقيل إن عليا صاح والمسلمون يضربون الحصار على بنى قريظة قائلا: ياكتيبة الإيمان والله لأذوقن ما ذاق حمزة أو لأفتحن حصنهم[2].

ونلقى السمع إلى ندائه الذى نادى فيه أصحابه قائلا ياكتيبة الإيمان لأن هذا يرشد إلى أنه يقاتل إيمانا واحتسابا مما يمكن أن ينسحب على من فى معيته من المجاهدين ويسبغ على المجاهدين الخاص من صفاتهم وهم محاربون.

---

(١) المقدسى: البدء والتاريخ، ص٢١٧ ج٤ (باريز١٩٠٧).

(٢) المحب الطبرى: الرياض النضرة ص ٢٢٥ج ٢ (القاهرة).

ونعود إلى الخندق ومما يستشهد به على أهميته فى ترجيح كفة المسلمين، ويبين بالتالى أن المسلمين كانوا المدينين لفضل سلمان الذى أشار بحفره لأن هذا الخندق أداهم من عدوهم بيتان ترددا على لسان أحد الذين عرفوا فى الخندق سبب هزيمة المشركين مع توقعهم للنصر:

ومشفقة تظن بنا الظنونا ... وقد قدنا عرندسة طحونا

فلولا خندق كانوا لديه ... لدمرنا عليهم أجمعينا

وبينما كان المسلمون يحفرون الخندق إذ خرجت من جوفه صخرة بيضاء، فكسرت حديدهم وشقت عليهم، ومضى سلمان رضى الله عنه إلى الرسول ﷺ ليخبره الخبر، فأخذ المعول من يد سلمان وضرب به، فبرق من الصخرة برقة أضاءت كل الأرجاء وكبر رسول الله ﷺ تكبير فتح، وكبر المسلمون من بعده، ثم ضرب الضربة الثانية. فكأن مصباحا أنار فى جوف بيت مظلم، وكبر تكبير فتح وكبر المسلمون. ثم ضرب الثالثة فانكسرت تحت معوله وكبر مع من كبروا. وصعد حتى قعد فى مقعد سلمان، قال ﷺ ضربت الأولى، فبرق الذى رأيتم، فأضاء لى قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب، وأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها. ثم ضربت الثانية فبرق الذى رأيتم أضاء معها قصور الحمر من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب، وأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها يبلغهم النصر فأبشروا[1].

فهذا يوم أغر فى تاريخ الإسلام وبه توافرت الأسباب وتهيأت الملابسات وبدا فى غزوة الخندق شبه ما بدا فى غيرها من الغزوات كرامات ومعجزات.

فما كانت هذه الغزوات حروبا وكفى، بل كانت وراء ذلك حافلة بالخوارق والمعجزات وترتب عليها فى العاجل والآجل ما لم يعرفه إلا الرسول ﷺ وحيا من ربه.

إن الخوارق التى ظهرت للمسلمين فى غزوة الخندق لا يحدها حصر ونذكر منها أن أهل الخندق شح زادهم فأصابتهم مجاعة شديدة، حتى إنه ﷺ ربط الحجر على بطنه من شدة الجوع، واتفق أنا ابنة لبشير بن سعد أعطتها أمها حفنة من تمر حملتها فى ثوبها لتقدمها إلى

---

(١) ابن سعد الطبقات الكبرى ص ٥٩، ٦٠ج ٤ القاهرة.

أبيها وخالها المحاربين ومرت برسول الله ﷺ تحمله فملأ منه كفيه، ثم أمر بثوب بسط له ووضع التمر عليه تم قال لرجل عنده: ادع القوم، أن هلم إلى الغداء، فاجتمع القوم عليه وطعموا وزاد حتى أكل جميع من حضر[1].

وكذا تكون السيطرة للروحانية علي المادية ويظهر الله المعجزات لقوم يتفكرون. واتفق في معركة الخندق أن عكرمة بن أبي جهل ولى هاربا وألقي رمحه وهذا ما بعث حسان بن ثابت على قوله:

فـــــر وألقـــى لنـــا رمحـــه	لعـــلك عكـــرم لم تفـعل
ووليت تعدو كعـــدو الظليم	ما إن تجـــور عن المعـــدل
ولم تلـــق ظهـــرك مستأنسا	كأن قـــفاك قـــفا فرعـــل

فحسان يعير هذا الذى نكص على عقبيه من المعركة بحث خطاه لا يلوى على شيء فرارا من الزحف، وتلك منقصة أى منقصة لأنها دليل على الجبن من أخس النقائص عند العرب خصوصا، إنه يشبهه بالنعامة فى عدوها ويشبهه وهو يولى بابن الضبع وبذلك يستمد مادة لتشبيهه من بيئته العربية، وفى الوقت عينه يقنعنا بأنه كان يقف فى الغزوات بالمرصاد يراقب بعين يقظى حركات وسكنات المحاربين ليسجلها فى شعره حقائق لا ريب فيها.

وقال ضرار بن الخطاب بن مرداس من المشاركين فى يوم الخندق:

وجردا كالقداح مسومات	نـــؤم به الغـــواة الخاطيينـا
كأنهـــم إذا صالـــوا وصلـــنا	بباب الخندقين مصافحونـــا
أناس لا ترى فيهم رشيـــدا	وقد قالـــوا ألســـنا راشدينا
نراوحهم نغدو كـــل يـــوم	عليهم فى السلام مدججينا
بأيديهم صـــوارم مرهفـــات	تقد بها المـــفارق والشئونا
فلولا خندق كانوا لديـــه	لدمـــرنـــا عليهـــم أجمعيـــنا
ولكن حال دونهم وكانـــوا	به من خـــوفـــنا متعـــوذين

---

(١) نورالدين الحلبى: السيرة الحلبية ص٦٥٥ ج٢ القاهرة ١٣٤٩هـ

هذه طائفة من قصيدة طويلة لهذا الشاعر استهلها بذكر المرأة تقدمه لها شأن غيره من شعراء الغزوات، ويمكن القول إن ذكر المرأة في ديباجة شعر الغزوات ينماز بطابع خاص. فالشاعر لا يقف بالديار ولا يبكي في الدمن ولا يحزن لفراق من فارقته بل إنه في الأغلب ينهى نفسه عن أن يكون مشغولا بالمرأة عن خوض حومة القتال وهذا ما يناسب المقام الذي يقول الشعر فيه. ومثل هذا من شعراء الغزوات يعد جديدا في منظور تاريخ الشعر العربي، ولتوضيح ذلك نقول إن هؤلاء الشعراء خرجوا على مألوف غيرهم سلفا وخلفا فذكروا المرأة على نحو خاص في مقدمات قصائدهم بحيث عدوا المرأة من يشغلهم حبها عن القتال أو أنها تشفق عليهم منه فتصدهم عن الخروج إليه.

ونعود إلى شاعرنا فنراه يصف المعركة التي يصول فيها مع قومه ويجول، ثم يطلق لسانه بهجاء أعدائه فيصفهم بالسفاهة وضعف الرأي ويتحدث عن ضراوة قومه في القتال وكيف يضعون السيف في أعدائهم فيجدلونهم الواحد تلو الآخر إلا أنه يريد أن يبرر عجزهم عن غلبتهم بالخندق الذي كان السبب في أنهم لم يبددوا شملهم ويذهبوا ريحهم وهذا وصف للخندق الذي تحصن به المسلمون وبيان لأنه كان حقا مارد عنهم عادية المغيرين، إنه يريد أن يصف الأعداء بالضعف إلا أنه اضطر أن يصفهم بالقوة، لأن خندقهم هو السبب في دفع أعدائهم عنهم فهو سلاح لهم وليس لغيرهم وقد غلبوا به وبذلك كأن ضرار ابن الخطاب لم يقل شيئا، بل ربما مدحهم بما تحصنوا به فكان النصر لهم.

فأجابه كعب بن مالك بقصيدة من نفس البحر والقافية، وهو يبدأها بذكرا امرأة يتجه إليها بالخطاب ويقول إنها سألت عن خبرهم في حربهم وتمنى أن تكون رأتهم وهم صبر في قتالهم وكأنما يفخر بالمحاربين ويرغب إلى تلك المرأة التي ربما كان تخيلها أن تفخر بهم هي الأخرى وهذا مما يؤيد ما سلف أن ذهبنا إليه في ذكر المرأة في مطلع قصائد الغزوات على أنه خاص بهذا السفر ويختلف عنه في شعر يقال في أغراض أخرى يقول كعب:

صبرنا لا نرى لله عدلا ... على ما نابنا متوكلينا

وكان لنا النبي وزير صدق ... به نعلو البرية أجمعينا

ترانا في فضافض سابغات ... كغدران الملا متسربلينا

وفي أيمانا بيض خفاف ... بها نشفي مراح الشاغبينا

لننصـــر أحمـــد والله حتـى نكون عباد صدق مخلصيـــنا
ويعلم أهـــل مكة حين ساروا وأحـــزاب أتـوا متحـــزبينا
بـــأن الله ليـــس له شـــريك وأن الله مولـــى المؤمنـــينا

إن الشاعر ينطق عن إيمانه حريصا على النطق به قبل أن يصف المؤمنين المحاربين. إنه يذكر النبى ﷺ الذي بفضله سادوا العالمين فهو يتيه بذلك وحق له أن يتيه. ثم يشير إلى المحاربين المؤمنين ويصفهم فى حروبهم التي يشبهها بالغدران وهذا تشبيه جميل يستمده من بيئته لأن الدرع فى لمعان حديدها قريبة الشبه من الغدير إذا تلألأ ماؤه. ويقول إن السيوف فى أيديهم سيوف خفاف مما يدل على سرعة حركتها ويضفى على المعركة نفسها حركة دائبة ولا يغفل عن ذكر النبى ﷺ ثانية ليقول إنهم ينصرون الله تعالى ونبيه ﷺ وبذلك يفصح عن باعثهم على القتال وكأنما يحرص على ذكر ذلك ليذكر به أولى الألباب ويحسن الحديث عن تلك الغزوة التى يخوضها أهل الهدى والإيمان محتسبينها عند الله، كما يأبى إلا أن يصدقنا القول عما وقع فيذكر أن الله تعالى أرسل ريحا على المشركين لأنه مولى المؤمنين وناصرهم على عدوهم.

ومما يلحظ فى شعر حسان وكعب بن مالك وغيرهما من شعراء المغازى أن لهم قصائد معناها فى ظاهر لفظها سهل مأنوس ووقعها لذلك عميق فى النفوس كما نقع على قصائد غريبة الألفاظ محجوبة المعانى عن الفهم، كما أن القصيدة التى يعارض بها الشاعر قصيدة شاعر آخر تشبهها فى وضوح معانيها وسلاسة أسلوبها أو تشبهها فى غرابة ألفاظها وغموض معانيها ويستدل من ذلك على أن الشاعر الذى ينبرى للرد على الآخر يتوخى أن يضارعه فيما يقول لتكون القصيدتان فى إطار واحد وهما متشابهتان.

وهذه أبيات قالها كعب بن مالك فى يوم الخندق:

لقد علم الأحزاب حين تألبـوا علينا وراموا ديننـا ما نـوادع
يذودوننا عن ديننا ونذودهـــم عـن الكفر والرحمن راء وسامع
إذا غايظـونا فى مقام أعاننـــا على غيظهم نصر من الله واسع
وذلك حفظ الله فيـــنا وفضله علينا ومن لم يحـفظ الله ضائع
هدانا لدين الحق واختـــاره لنا ولله فـــوق الصانعـــين صنائع

تلك أبيات من قواطع الأدلة على حقيقة الغزوات وأسبابها وأحوال وأخبار من يخوضونها إن الدافع الدينى عند المسلمين هو الأول والأخير. إن المسلمين إنما ينصرون الله ورسوله ﷺ ويعلون كلمة الحق ويريدون الأخذ على يد من يضل العالمين وإنما كان هذا حسبهم، ومن الحق أن لقتال المجاهد خصوصية على حدة، لأنه إنما يقاتل متيقظ القلب بالهداية والإيمان، وتلك درجة ما فوقها من درجة.

والذكر بعد ذلك لما قيل من رثاء لبعض من قتلوا من المشركين فمنهم عمرو بن عبدود الذى قتله على بن أبى طالب، وعند ذكر على بن أبى طالب نجد أن ابن هشام يجنح إلى تأريخ الأحداث لأنه يشير إلى على بن أبى طالب على أنه فارس كمى له القدر والميزة بين المحاربين من المحاربين من المسلمين. أما راثيه فهو مسافع بن عبد مناف، وقد أجرى عليه أوصاف كل ممدوح من المقاتلين الذين خروا صرعى فى المعركة فهو فى قوله الفارس الأشوس وسمح الخلائق والماجد ذو المرة يشد على الأعداء بشكته ولا ينكص عنهم إلا أن الكماة تكاثروا عليه فلم تعد له طاقة بهم، إلى أن يقول:

فادهب على فما ظفرت بمثله ... فخرا ولا لاقيت مثل المعضل
نفسى الفداء لفارس من غالب ... لاقى حمام الموت لم يتحلحل

فهذا الشاعر لا يبكى ولا يستبكى ولكنه يصف ما وقع لفارس شجاع من المشركين ويشير ضمنا إلى أن عليا قتل خيرة فرسان المشركين.

واتفق أن هبيرة بن أبى وهب دخل الخندق مع عمرو بن عبد ود إلا أن هبيرة ولى هاربا، ولما رأى هبيرة أنه خذل عمرا اشتد على نفسه هذا وتعرض للملامة من نفسه اللوامة فما صبر أن قدم المعاذير لما كان منه، فبكى عمرا ومن قوله:

لعمرى ما وليت ظهرى محمدا ... وأصحابه جبنا ولا خيفة القتل
ولكننى قلبت أمرى فلم أجد ... لسيفى غناء إن ضربت ولا نبلى
وقعت فلما لم أجد مقدما ... صددت كضرغام هزبر أبى شبل
ثنى عطفه عن قرنه حين لم يجد ... مكرا وقد ما كان ذلك من فعلى
فلا تبعدن يا عمرو حيا وهالكا ... وحق لحسن المدح مثلك من مثلى

ويعنينا من هذه الأبيات أنه أحسن فى تشبيه نفسه بالأسد في القتال لأنه عرض علينا صورة هذا الأسد وهو من هو فى ضراوته وشدة بطشه حين يجد من الحتم اللازم أن ينثنى عمن يلاقيه، والجدة فى هذا أن الأسد لا يذكر عنه ما ذكره الشاعر عنه ولكنه يصدقنا القول عن نفسه ويبرر ما كان منه بالضرورة التي قسرته على أن يصنع ما يصنع وما كان ذلك من دأبه وبذلك يكون شبيها بالأسد حين وقع للأسد ما وقع له، إنه صورة تسترعى النظر إليها فى تلك الأشعار التى قيلت فى وصف المقاتلين فى المغازى، ثم ينساق فى كلامه إلى أن يقول لعلى إنه لم يظفر بقتيل مثله وحسبه فخرا أن يكون قاتله وكأنه بذلك يمتدح القتيل والقاتل فى وقت معا.

وعمرو بن عبد ود يبدو صاحب المنزلة فى قومه فبعد أن رثاه شاعران ذكره حسان بن ثابت يفخر بمقتله، مما يدل على أنه كان صاحب الصدارة وأن مقتله يعد بلا ريب نصرا مبينا للمسلمين. وحسان لا يزيد على أن يقول إن المسلمين وضعوا المهند فى المشركين، والمسلمون ولاة الحرب حين يصولون، وقال فى ذلك أبياتا أخرى لا تخرج فى معانيها عما سبق ذكره. وعجب أى عجب أننا لم نقع على شعر رثت به النساء عمرو بن عبد ود على حين رأيناهن باكيات جازعات على قتلى بدر وأحد.

حسبنا هذا القدر من الشواهد الخاصة بهذه الغزوات الثلاث، لئلا يطول بنا الكلام خاصة أن ما قيل فى غيرها لا يكاد يخرج عن النطاق الذى دارت فيه كما يخشى أن تستأثر هذه الأمثلة من الشعر بحيز من كتابنا هذا هو أكبر مما ينبغى لها أن تشغله خصوصا أن المجال لنا متسع وينبغى أن نشغله بأمثلة من شعر فى لغات أخرى.

ولكن من تتمة القول فى شعر العرب القديم الذى قيل فى الغزوات من أمارات الأهمية أن نلتفت إلى أشعار عربية قديمة كذلك إلا أنها تتباعد فى زمان قولها عن هذه الأشعار كما أن قائليها فى عصر آخر وبلد آخر وهذه الأمثلة التى أسلفنا ذكرها جمهرتها مأخوذة من فصل واحد عقده عنها ابن هشام فى سيرته. أما الأمثلة الأخرى، ففى صفحات متباعدات من كتاب بعنوان أزهار الرياض لشهاب الدين المقرى التلمسانى[1]. ففى الجزء

---

(١) دلنى على هذا الكتاب الدكتور محمود مكى جزاه الله كل خير

الخامس من هذا الكتاب لمن يسمى ابن حبيش، وهو شاعر أندلسي من أهل القرن التاسع الهجرى شعر يمدح فيه النبى ﷺ بكلام طويل إلى أن يقول:

رئيـس قريـش عند سلم وغـزوة   بظـل لـواء أو بمجلس نـدوة

وطـنب فى أعلـى المديـنة قبـة   فأثبـت للإسـلام فيـها محبة

وقاد من الأنصار كل محسب

إلى وده انقـادوا قرومـا مصاعبا   أدرهـم عـام المحـول سحائبا

وأطلعهم ليـل الحروب كواكبـا   وكـتب منهـم للرسـول كتائـبا

عليهم من الماذى كل مكتب

سطت بذئاب الكفر شدات أسدهم   وكم بذلوا الأرواح صونا لمجدهم

فما نصـر نصر المختار إلا بجندهم   ومـا دوخ الكـفار إلا بحـدهم

سنان طير أو سنان محرب[1]

هذه طائفة من هذه المنظومة تربو أبياتها على أربعمائة، أول ما نلحظه على هذا الشعر قوله أن النبى ﷺ كان فى الجيش وكان فى الندوة وهذا منه كلام فيه الحاجة إلى شيء من تفصيل. فالمراد به بالجيش أنه كان محاربا وهذا ما نعلمه عنه حتى قبل بعثته شارك فى حرب الفجار يناول عمومته السهام. هذا فضلا عن مشاركته فى مغازيه وكذلك كان جده يصحبه إلى دار الندوة وهو صغير. وعلى ذكر دار الندوة نقول إنها دار أقامها قصى بجانب الكعبة الشريفة للشورى يجتمع فيها سادات قريش للمشاورة ولا يدخلها إلا من بلغ الأربعين من عمره وكان لا يتزوج رجل ولا امرأة إلا فى تلك الدار، ولا يعقد لواء للحرب إلا فبها، ولا تدرع جارية من قريش إلا فيها، أى أن صاحب الدار يشق درعها أى قميصها ويدرعها بيده. وكانوا بفعلون ذلك إذا بلغت الجارية الحلم[2] وبذلك يكون الشاعر قد أراد أن يبين ما كان للرسول ﷺ من سابقة فى المجد حتى قبل أن بصطفيه رسولا.

---

(١) شهاب الدين التلمسانى: أزهار الرياض ص ١٨٢ ح ٥ (الرباط ١٩٨٠م.

(٢) جرجى زيدان: تاريخ التمدن الإسلامى ص ٣٦ ح ١ القاهرة ١٩٦٨

والشاعر فيها يشير إلى النبى ﷺ ويتغنى بمحامده ومناقبه ولا غرو فقد مهد طويلا بذكرها والتغنى بها. ويشير إلى رفعة منزلته فى قومه ثم يبين أن عظمته كانت واضحة لا فى حومة القتال بل وفى دار الندوة، وأشاد بأنه ﷺ رفع للإسلام صرحا شاهقا وكيف أن الأنصار التفوا حوله وتعلقوا بمحبته وناصروه وآزروه وكان جميلا منه أن يجعلهم كواكب فى ليل الحروب، ووصفهم فى حروبهم وقد لبسوا دروعهم مجاهدين فى سبيل الله. إن الشاعر لم يحدد فى هذه الأبيات غزوة بعينها وإنما ساق الكلام فى عموم وشمول.

وفرق أى فرق بين من عرفناهم من الشعراء فى عهد النبي ﷺ الذين كانو ا يحددون كلامهم ويعينون أشخاصهم ويعبرون عما وقع لهم. ذلك أنهم عبروا عن تجارب شخصية تمرسوا بها أو شاهدوها لغيرهم وبذا كان كلامهم هو الحق الذى لا يأتيه الشك من بين يديه ولا من خلفه وشعرهم هو التاريخ الصحيح إذا نطق فصدق إنه يشبه شعراء المغازى فى أن كلامه يخلو أو يكاد من تزايين الكلام وذلك مردود إلى أنه مثلهم إنما أراد الإفادة ولم يكن منفعلا ولا متفننا.

وبعد هذا الإجمال يجنح إلى شيء من التفصيل لأنه يذكر الصحابة ويمدحهم بما هم أهل له إلى أن يذكرهم فى غزوة بدر فيقول:

تناهـــوا من الإيثـــار فى كل نصـــرة   إلى أن قروا أرواحهم كل شفرة

حضـــور ببـــدر غـــيب عن بـــدرة   يحبون من وافى إليهم بهجـــوة

ويلـقاه منهم كل سمح مرحب

صحاب رسول الله فى الأرض أنجـــم   ليرشد حيران وينجـــاب مظلم

بهم فى الدنا نحمى وفى الدين نعصـــم   سأقطع عمرى بالصـــلاة عليهم

وادأب فى حبى لهم كل مداب

فالشاعر معبر فى هذه الأبيات كتعبيره فى عامة منظومته الطويلة عن تعبيره للنبى ﷺ وهو على ذكر دائم من كلام النبى فهو عندما قال حضور ببدر غيب عن بدرة والبدرة عشرة آلاف درهم يشير إلى قوله ﷺ إنكم لتكثرون عند الفزع. وتقلون عند الطمع"، أما قوله إن أصحاب رسول الله ﷺ فى الأرض أنجم فمن قوله ﷺ: "أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم".

إن الشاعر على ذكر من غزوة بدر وأحد فى هذين البيتين اللذين شرحناهما، إنه يثنى على أصحابه الكرام الذين تعف نفوسهم عن الغنائم فى بدر كما يلمح إلى ما كان من بعض الفتيان فى غزوة أحد الذين طمعوا فى الغنائم فانتهز منهم عدوهم اشتغالهم بها وأوقعوا الهزيمة بهم.

وقال الشاعر مشيرا إلى حنظلة الغسيل، ويعرف بغسيل الملائكة وقد استشهد يوم أحد. ثم أعجل على الخروج قبل أن يغسل فقال ﷺ إن الملائكة غسلته:

وحنظلة بشراه فى فـــوز سهمه   لقد طهرت بالسفح طاهر جسمه

ملائكـــة نعم الأســـاة لكلـــمة   وحـــارثـــه قـــال الرســـول أمه

ببدر وقد قالت لعبرتها اسكب

رويدك من فرط الأسى والتأسف   أيبكى لمجبـــــور بقصر مزخرف

ومتكئ فيها على خضر زخـرف   أفيقـــى أفيقـــى إن حارثة لفـى

نعيم جنان للحسيفة مذهب

وفى هذه الطائفة حارثة بن سراقة من شهداء بدر وبذلك يكون الشاعر فى هذه الطائفة من الأبيات قد قارب أن يكون محسنا موفقا لأنه أتى بشىء من التفصيل كما أنه ذكر ما ذكر عن غسيل الملائكة وحارثة بن سراقة فعرض مشهدا له أثره فى أغوار النفس وعبر عن إيمان الموقن المؤمن الذى لا تزلزله الحوادث ما دامت فى سبيل الله وابتغاء وجه الله وله التوفيق فى ذكره قول النبى ﷺ لأم حارثة ومواساته لها بكلام يمس شغاف كل مسلم.

وينهى الشاعر هذا المخمس بمناجاة ربه ويقول إن ذنوبه كالجبال ولكنها تصغر فى جنب رحماه، مما يدل على أنه إنما نظم هذا المخمس أو هذه المنظومة على أنها من قبيل المناجاة أو الابتهال وإنما انساق عرضا إلى ذكر غزوة أو عزونين ومقصده من ذلك مدح النبى ﷺ وصحابته الكرام بما كان منهم من جهاد في سبيل الله ولذلك تظهر الغزوة في هذه المنظومة كشعلة الشمعة فى وهج الشمس. وشعر هذا الشاعر لا ماء فيه ولا رواء. وفيه ألفاظ غريبة تشوه من جماله، إنه أطال كثيرا ولعله فى إطالته كان معجلا عن التروى لمحاولة البلاغة. لقد ذكر الغزوات عرضا فى سياق تاريخى ولا يستوقفها بخاصة إلا ما ذكره من اشارته لمواساة النبى ﷺ لأم حارثة بن سراقة لأن هذه المواساة يستبين بها معنى الجهاد فى سبيل الله.

الفصل الثانى

فى الشعر العربى الحديث

إذا دار الكلام على ما قال شعراء العصر الحديث فى غزوات الرسول ﷺ ورد على الخاطر أول ما ورد قصيدة طويلة تحت عنوان (كشف الغمة فى مدح سيد الأمة) لمحمود سامي البارودى باشا وليست مكانة البارودى بالمكانة التى تخفى فلا يذكر اسمه إلا مشفوعا بتلك العبارة التقليدية أنه رب السيف والقلم الذى أحيا دولة الشعر من عدم.

وليس من همنا فى هذا المقام أن نتعرفه رجل قتال وفارس نضال ولا قطب سياسة وكياسة لأن ذلك يخرج بنا عن ذلك الإطار الضيق الذى نريد أن نلزم حدوده.

ولا مشاحة فى أنه إلى كونه شاعرا مجيدا شاعر مكثر والكثرة مع الإجادة زيادة فى الخير فله ديوان من الشعر يقع فى خمسة الآف وسبعمائة وخمسة وثلاثين بيتا، علاوة على قصيدته الميمية التى أسلفنا الإشارة إليها وهى أربعمائة وسبعة وأربعين بيتا[1]. وله المختارات التي جمعها بعد إيابه من منفاه واختارها من شعر ثلاثين شاعرا من فحول الشعراء المولدين، وله كتاب قيد الأوابد وهو فى نثر مسجع سجل فيه خواطره ورسائله وتحليله للأحداث التي وقعت له. وله قصيدة كشف الغمة فى مدح سيد الأمة وهى قائمة بذاتها فى كتاب خاص بها وعليها مدار قولنا قد نظمها في المنفى عرض فيها سيرة النبى ﷺ من لدن مولده إلى انتقاله إلى جوار ربه. إنه القائل مبينا أنه نظم قصيدته أخذا من سيرة ابن هشام: "الحمد لله لذاته، آية الإيمان والإخلاص والصلاة على النبى وآله محجة الخلاص. (وبعد) فهذه قصيدة ضمنها سيرة النبى ﷺ من حين مولده الكريم إلى يوم انتقاله إلى جوار ربه، وقد بنيتها على سيرة ابن هشام، وسميتها كشف الغمة فى مدح سيد الأمة. ورعتى إلى الله أن تكون لى ذريعة أمت بها يوم المعاد، وسلما إلى النجاة من هول المحشر، اللهم فحقق رغبتى إليك واكسها بفضلك رونق القبول آمين"[2]. ولم يعن أحد من قدماء المؤرخين ومحدثيهم بتأريخ

---

(١) د. نفوسة زكريا سعيد البارودى حياته وشعره ص ٢٠٣ الإسكندرية ١٩٩٢

(٢) محمود سامي البارودى باشا. كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٦٠ الكويت ١٩٩٢.

هذا الفن وهو مدح النبى ﷺ، لأن الذين أجادوا ما كانوا فى الأعم الأغلب من الشعراء المشاهير، ولم يطرد فى التاريخ، ولم يكن فنا ظاهرا بين الفنون الشعرية المعروفة. وإنما هو فن نشأ فى البيئات الصوفية، ولم يهتم به من غير المتصوفة إلا القليل، ومع ذلك جدير بالدرس لأن فيه بدائع من القصائد والمقطوعات[1]. هذا حكم نتلقاه فى تأمل وتحفظ لأنه شاهد على غير مشهود عليه فليس من يقول إن الأعشى مثلا وكعب بن زهير كانا من المغمورين غير المشهورين. وقصيدتهما مأثورة معروفة، كما أن شاعرا هو أشهر من مدح النبى ﷺ بقصيدته المعروفة ونعنى به البوصيرى لم يكن فى زمرة المتصوفة فلم يبق إلا التوضيح والتحديد فنقول إن هذا الفن ظهر على يد الصوفية، ذلك أنهم فى تعبيرهم عن حبهم لله عز وشأنه حبا صوفيا جمعوا بينه وبين حبيبه ﷺ ثم أفردوا قصائد لمدحه. أما ما نحن فى صدده فهو قصائد أو مطولات قالها الشعراء فى السيرة النبوية العطرة مدحوا فيها النبى متغنين بسيرته التى إذا ذكر شىء منها كان بالضرورة مدحا، وطول هذه القصائد فى الأغلب أفضى بأصحابها إلى سرد سيرته فيها، والبارودى يبين لنا فى الصفحة الأولى من الكتاب الذى بين يدى قصيدته أنه نظمها محتسبا عند الله حسن المثوبة وهذا منه تصريح عما يعتلج بين جوانحه من رغبة فى مرضاة الله وسلوة لنفسه بعد ما نزل بها من شدة وشقاء وبلاء، رجاء أن تغمر قلبه السكينة، لقد نظم قصيدته تلك فى منفاه. وقد أزعج عن الأهل والولد وكأنما أراد أن يستأنس بسيرة النبى ﷺ من وحشة ومعلوم أن المحزون إذا أخذ منه الحزن كل مأخذ وضاقت فى عينه الدنيا بما رحبت يلتمس فرجا بعد الشدة ويريد جاهدا أن ينفس عن كربته وإذا ما انقطعت به السبل لم يجد ندحة عن أن يتجه إلى ربه ويتضرع إليه وأن يكشف عنه الغمة. وهذا ما كان من صنيع البارودى والجو النفسى الذى نظم فيه قصيدته. وحسن صنعا بأن مهد بالكلام عن ذكريات شبابه ووصف حاله وهو منفى فى سرنديب. فهذه البيئة التى أحاطته فى أرض غريبة كان لا بد أن يتحدث عنها فى صدر كلامه وكأنما شاء أن يصدقنا القول عن سبب عن باعث قوى بعثه على نظم قصيدته.

ومن الباحثين من يرى أن البارودى فى سرنديب ضاق ذرعا بمعاينة الوثنيين[2] ولكننا نضيف إلى ذلك أن البارودى فى دار غربته كان له عميق الأثر فى نفوس الجم الغفير من

---

(١) د. زكى مبارك. المدائح النبوية ص ١٩ القاهرة ١٩٣٥

(٢) د. نفوسة زكريا سعيد. البارودى حياته وشعره – الإسكندرية ١٩٩٢م.

أهلها، فقد علم كثيرًا من أهلها المسلمين القراءة والكتابة بلغة الضاد وكان يقصده كثير من أهل العلم والأدب لسماع شعره والاقتباس من أدبه، وله فى سرنديب خطب منبرية لا يخلو منها مسجد ولما زايل سرنديب إلى مصر أخذ الأسف أهلها على فراقه وداموا على مراسلته إلى أن وافاه الأجل[1]. وتلك معلومة تنفي عن البارودى أن يكون سبب مدحه للنبى ﷺ هو مجرد سأمه من معاشرته لقوم وثنيين بعد أن عرفنا أنه كان محاطا بالمسلمين، كما يمكن القول إن ذلك ينفى عنه السلبية والخضوع لأمر فرض عليه فاستسلم كرها، ولا عجب، فهو ذلك الفارس المغوار وله من عزته وهمته وشعوره بقوته ما لا يجعله يخضع ويرضخ، أما الأبيات التى تعنينا من قصيدته تلك العصماء فهى مائة وأربعة وأربعون بيتًا تضمنت ذكر مغازى الرسول ﷺ وأول ما يبدو هنا من شعره فى هذا الصدد هو قوله:

وحين آخى رسول الله بينهم	آخى عليا ونعم العون فى القحم
هو الذى هزم الله الطغاة به	فى كل معترك بالبيض محتدم
فاستحكم الدين واشتدت دعائمه	حتى غدا واضح العرنين ذا شمم

إنه يبدأ بالتدريج، ولا غرو فقد صرح فيما سبق قائلاً إنه نظم قصيدته على غرار ما جاء فى سيرة ابن هشام وبذلك يكون مؤرخًا ثبتا حجة ثقة. إنه يشيد بفضل على بن أبى طالب كرم الله وجهه وأقر بأنه فارس الإسلام وأنه قاد المسلمين إلى النصر بفضل من نجدته وبسالته، ومما يتوضح به هذا ما روى من أنه ﷺ قال يوم خيبر: "لأعطين الراية غدًا رجلا يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله". ولما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كل منهم يرجو أن يعطاها. فقال ﷺ : "أين على بن أبى طالب؟" فأعطاه الراية[2].

وهذا من دليل على أنه ﷺ اصطفى عليًا لأكثر من سبب أولهما أن عليا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، والثانى أن الله يفتح على يديه.

وفى ذلك يقول حسان بن ثابت:

وقال سأعطى راية القوم فارسا	كميا شجاعا فى الحروب محاربا
يحب إلها والإله يحبه	به يفتح الله الحصون الأوابيا
فخص بها دون البرية كلها	عليا وسماه الولى المواخيا[3]

(١) الإمام المصورى. مقدمة محمود باشا البارودى – القاهرة.

(٢) حسين واعظ كاشفى روضة الشهدا ص١٤٠ لكهنؤ ١٣٠٣.

(٣) نظر على الحائرى. الغرة البيضاء فى فضائل سيد الأوصياء، ص٩، ١٠ – النجف الأشرف ١٣٢٩هـ.

ولما كان فرط الاهتمام بعلي والنظر إليه على أنه ذلك المحارب الأشهر في غزوات النبى ﷺ الذى تمت على يده فتوح وفتوح رأينا أن نضيف شيئًا إلى ما قلنا وقيل عنه لعل مزيدا من فائدة يكون.

كان سيدنا على كرم الله وجهه فى البسالة غاية الغايات، وتلك أبرز صفة تميز بها فجرت عليه وعرف بها، فمعلوم عنه فى كل حرب خاضها أنه أظهر من دروب الشجاعة والبطولة ما يثير العجب والإعجاب، وهو يعد مثالا مرموقًا فيما أبلى من بلاء حسن، والأمثلة فى ذلك متوافرة. ففى أحد عندما التف المشركون بالنبى ﷺ كان أحد الذين عرضوا جسدهم لبطش العدو حماية له من أذاهم، وتلك شجاعة وتضحية ما فى ذلك من ريب، واتفق أن شد جمع من المشركين على الرسول ﷺ فأمر عليا بمواجهتهم، فما كان منه إلا أن تقدم إليهم فى هجوم جسور شتت شملهم وردهم على أعقابهم بعد أن خلفوا بعض قتلاهم وبعد قليل شد عليه جمع آخر منهم فأمر الرسول عليا بصدهم عنه فقتل منهم من يسمى شيبة بن مالك. إثر هذا هبط جبريل عليه السلام على النبى ﷺ فقال له: "يا رسول الله إن ما صنع على شجاعة وتضحية" فرد ﷺ بقوله: "إنه منى وأنا أيضا منه". فما كان من جبريل إلا قوله: "وأنا أيضا منكما". وفى تلك اللحظة لقد سقط على غير مرة على الأرض فى حرب أحد إلا أن جبريل عليه السلام كان يأخذ بيده ويرفعه عن الأرض.

ولما غرس على راية الرسول ﷺ أمام قلعة خيبر، خرج رجل بئيس جسور يلبس درعين وصاح هذا الرجل قائلاً: أنا أصرع على الأرض بسيفى وراجمتى حتى الأسود.

فقال على: وأنا أطلق ابى وأمى على (اسم حيدر). وأشبه فى شجاعتى أعظم أسد من أسود الغاب. وشهده النبى ﷺ وهو يقتل هذا الرجل.

فقال النبى: وكان يشند على نفسه ألا يشارك فى القتال. فقال مرة للنبى ﷺ : أتتركنى هكذا كأننى من النساء أو الأطفال. فبادره الرسول ﷺ بقوله: ألا تريد أن تكون وكيلى، كما كان هارون وكيل موسى؟ ألا إنه لن يأتى بعدى نبى. فمكث على فى المدينة وكيلاً[1].

وكأنا بالبارودى يستهل كلامه بذكر على مقاتلاً مظفرًا يقود مجاهدى الإسلام ليرفعوا كلمة الله والله ينصرهم نصرًا مؤزرًا لأن البارودى رجل حرب فهو على ذكر منها ومن

(1) Ismail Mutlu Sahabiler Ansiklopedisi Birinci Tabi (Istanbul 1989).

رجالها البواسل. ولذلك كان أول ما عن له منها ذكر قائدها المظفر على بن أبى طالب كرم الله وجهه ويحضرنا هنا بيت من الشعر قاله محمد إقبال عرضًا لا أصلا فى أحد كتبه[1]:

(فتح خيبر العشق مع خبز الشعير، والعتق قدّ قوام البدر المنير)[2]

وكيما ندرك ما ذكر عن على فى هذا البيت، يبغى أن نستند إلى ما لإقبال من نزعة روحية يضمنها أشعاره، فإقبال يكثر من إيراد مصطلحات التصوف فى شعره على أن التصوف هو التقوى فى ذروتها والإيمان فى صميمه، وهو يذم التصوف الذى يكثر أهله من الشطحات والمبالغات ويذكرون فيه ما لا يقره عقل ولا نقل. إنه هنا يذكر العشق والعشق هو المعرفة عند الصوفية وعند إقبال ويضيف إليه أنه تقوى الله وفهم تعاليم الإسلام على الوجه الأصح الأكمل. إنه يشير ضمنا إلى الزهد وهو مقام من مقامات الصوفية ويرمز إليه بخبز الشعير. فهو يريد ليقول إن عليا كرم الله وجهه كان من أهل الإيمان واليقين منصرفا عن الدنيا وزهوتها شأن المؤمن الموقن والصوفى الواصل. وهذا ما أكسبه من الله قوة خارقة استطاع بها أن يخلع باب حصن ويقود المسلمين إلى النصر المبين.

أما شق القمر فإشارة إلى انشقاق القمر للنبى ﷺ . وذلك من البارودى شاهد صدق على أنه كان معبرا عن نفسه مستجمعا ذكرياته حتى أن يتصدى للتاريخ الذى ألزم نفسه بسرد حقائقه فى دقة وتفصيل، ويبدأ البارودى فى السرد التاريخى فيذكر السرايا ومن شارك فيها ويضمن كلامه أسماء وأسماء وينص على أول غزو كان للمسلمين فى ودان ويتابع القول تفصيلا، ونتجاوز أبيات بعد أبيات حتى نبلغ وصفه لمعركة بدر التى يقول فيها:

ويمم المصطفى بدرا فلاح له	بدر من النصر جلى ظلمة الوخم
يوم تبسم فيه الدين وانهملت	على الضلال عيون الشرك بالسجم
أبلى على به خير البلاء بما	حباه دو العرش من بأس ومن همم
وجال حمزة بالصمصام يكسوهم	كسا يفرق منهم كل مزدحم
تقسمتهم يد الهيجاء عادلة	فالهام للبيض والأبدان للرخم

(١) إقبال جاويد نامه ص١٨، لاهور ١٩٤٨م.

(٢) عشق باتان جوين خيبر كشاد   عشق درانديوماه چاكى نهاد

كأنما البيض بالأيدى صوالجة | يلعبن فى ساحة الهيجاء بالقمم
لم يبق منهم كم غير منجدل | على الرغام وعضو غير منحطم

إن هذا جيد من شعر ورائع من تصوير لمعركة دائرة الرحى من أجل الدين القويم. إن البارودى فيما قال لا يعدو الحقيقة، أو على التوضيح والتقريب، نقول إن خياله فى معظمه خيال تقريرى وليس خيالا إبداعيا إنه يصف المشركين وهم يخرون صرعى ولا يتجاوز الحقيقة فيما هو قائل، ويعجبنى تشبيهه الصوارم بالصوالج والرءوس بالكرات كما يذكرنى بأن البارودى متأثر بثقافته الفارسية والتركية لأن ذكر الكرة والصولجان دائم الدوران فى الشعر الفارسى والتركى. أما فيما يتعلق بتأثره بالشعر الفارسى والتركى. فالتعويل فيه على ما ذكر عنه من درسوه، فقد قيل عنه إنه كان شاعرا مطبوعا، تثقف بآداب العرب والفرس والترك[1].

ونزيد تلك المعلومة إيضاحا فنقول: إن التركية كانت فى عهد البارودى لغة الحكام والعسكريين والإداريين. فكان حتما على أن يكون على علم بها، ولما كان البارودى شاعرا جرى على عادة أدباء الترك فى علمهم بالفارسية واطلاعهم على آدابها، ومن هنا عرف الفارسية، واقتبس عن شعرائها، كما أنه ترجم أبياتا فارسية إلى الشعر العربى.

فهذه صورة بيانية طالما تجلت فى الشعر الفارسى والتركى المتأثر به فلزم الإشارة إليها.

والبارودى ناطق عن قلبه الخفاق بالإيمان، فهو يذكر عن المصطفى ﷺ بدرا لاح له بدر بدد دياجر الكفر، فهو بذلك يحدد ما يريد أن يعبر عنه، كما لا ينسى أنه يوم مشهود من أيام الدين. إنه لا يكتفى بوصف المحاربين وهم يصولون ويجولون وهم المسلمون ولا يصف المشركين وهم ينكسرون أبخس كسرة بل إنه يذكر فى هذا وقد امتلأ فخرا وكاد يسجد لله شكرا.

ونمضى مع البارودى إلى أن نبلغ ذكره لغزوة أحد التى يقول فيها:

ثم استدارت رحى الهيجاء فى أحد | بكل مفترس للقرن ملتهم
بيوم تبين فيه الجد واتضحت | جلية الأمر بعد الجهد والسأم
قد كان خسرا وتمحيصا ومغفرة | للمؤمنين وهل برء بلا سقم؟

---

(١) د. محمد صبرى أدب وتاريخ واجتماع ص٥٥ القاهرة ١٩٥٠.

مضـــى علـــى بـــه قدمـــا فزلزلهـــم — والبأس فى الفعل غير البأس فى الكلم

خـــاضوا المنايـــا فنـــالوا عيشـــة رغـــدا — ولـــذة النفـــس لا تـــأتى بـــلا ألم

فـكـان يـومـا عـتـيد الـبأس نـال بـه — كـلا الـفـريـقـين جـهـدا وارى الحدم

فالبارودى إذا عولنا على ما يدرك من ظاهر كلامه وجدناه محاربا ذا قوة وبأس لا تلين له قناة ولا تزلزل نفسه محنة ولا هول. لقد ألمح من طرف خفى إلى أن النصر لم يقدر للمسلمين فى تلك الغزوة وعلى حد علمنا لا نعرف ممن نظموا شعرا فى الغزوات من أشار إلى هزيمة المسلمين ولو فى لمحة خاطفة. ولكن البارودى لا ينكر واقع الأمر لأنه يبدى من له الأمر، ولا يجزع لما وقع بل لا يرى فى ذلك عيبا أى عيب فيوم لك ويوم عليك. ويشير إلى ضرورة أخذ العبرة وتلقى الدرس ويوصى المسلمين بالصبر، والصبر حبس النفس على المكروه وللصابرين حسن المثوبة عند الله جل شأنه، ولا يفوته أن يصرح بأن المجاهدين من المسلمين خاضوا المنايا ولما استشهدوا نالوا فى عليين عيشة رغدا وحسبهم هذا. لقد بشر الصابرين وكأنما زف البشرى للمستشهدين.

ومن عجب أنه لم يذكر مصرع حمزة وكان المجال متراحب الأرجاء لوصفه وربما انصرف عن ذكره لبشاعته تلك البشاعة التى تتأذى بها نفس كل مؤمن فكره أن يذكرها لا يريد أن يجلى المجاهدين من المسلمين فى صورة توحى بضعف أو مذلة، كما أنه التفت إلى ما هو أهم فذكره ﷺ بقوله:

قـام بـه النبـى فـى مـأزق حـرج — ترعـى المنـاصل فيـه منبـت الجمـم

فلم يزل صابرا فى الحرب يفشـؤها — بالبيض حتى اكتست ثوبا من العنـم

فالشاعر هنا يعرض علينا صورة للقوة والصمود وشدة العزم تنطق عن الرسول ﷺ فى هذه الموقعة وكأنه بذلك لا يرى عيبا فى هزيمة المجاهدين ويصفهم ويصف سيدهم ﷺ بأعظم ما يوصف به من وقف موقفه فى تلك الغزوة ولم يكف عن ذكر تشبيه إثر تشبيه كمثل قوله:

لا عار بالقوم من موت ومن سلب — وهـل رأيت حساما غـير منثلم

وامتد السياق بالبارودى إلى ذكر غزوة الخندق إلا أنه لم يوفها حقها.

ثـم استثارت قريـش وهـى ظالمـة — أحلافـها وأنـت فـى جحفـل لهـم

تستمرئ البغى من جهل وما علمت — أن الجهالـة مدعـاة إلى الثلـم

وقـام فيـهم أبوسـفيان مـن حنـق ... يدعو إلى الشر مثل الفحل ذى القطم

فخنـدق المؤمنـون الـدار وانتصبـوا ... لحربهم كضـوارى الأسـد فـى الأجـم

فما استطاعت قريش نيل ما طلبت ... وهـل تنـال الثريـا كـف مسـتلم

رامـت بجهلتـها أمـرا ولـو علمـت ... مـاذا أعـد لهـا فـى الغيـب لم تـرم

فخيـب الله مسـعاها وغادرهـا ... نهب الرد والصدى والريح والطسم

فقوضـت عمـد الترحـال وانصرفـت ... ليـلا إلى حيـث لم تسـرح ولم تسـم

قد أقبلت وهى فى فخر وفى جذل ... وأدبرت وهـى فـى خـزى وفـى سـدم

من يركـب الغـى لا يحمد عواقبه ... ومـن يطـع قـبله أمـر الهـوى يهـم

فيما يخيل إلينا لأنه لم يشر إلى ما كان من سلمان، وليس يخفى أن سلمان كان ينبغى ذكره من باب أولى لأن الغزوة عرفت بما كان من إشارته بحفر الخندق وأن الخندق كان سببا فى نصر المسلمين والبارودى لم يذكر من الأعلام إلا أبا سفيان على أنه شخصية تاريخية اضطر إلى ذكرها لأنه هو الذى استنهض همم قريش وحثهم واستنهضهم لقتال المسلمين فقال:

فالبارودى فى مثل هذا من قوله يسوق الحقيقة التاريخية بحذافيرها، لا يضيف إليها ولا يطرح منها شأن المؤرخ التبت، ولكن ذلك لا ينسيه ضرورة أن يعقب عليها بشىء من عندياته. ولذا نراه يختم هذه الأبيات ببيت فى الحكمة وكان فى ذلك حكيما يقف على مألوف عادته بذكر الحقيقة والتعبير عن تفهمها، ثم ينطق عن الحكمة والموعظة ويشير إلى موضع العبرة. ونتابع هذه القصيدة إلى ذكر موقعة خيبر، وقد ذكر فيها ما كان من أمر على – كرم الله وجهه – الذى استطاع بقوته أن يحطم باب قلعة خيبر وكان من حديد، وبعد أن سقط الباب على الأرض حاول ثمانية رجال حمله فأعجزهم حمله، ولنا بعد ذلك أن نقول إن البارودى كان حريصا شديد الحرص على ذكر خصال على – كرم الله وجهه – وما جرى عليه من صفات مادية وروحية. وإنما ننصف الحق إذا قلنا إن عليا – كرم الله وجهه – كان على دراية بأصول الحرب وفنون القتال، فضلا عن ضراوته وبسالته فيها.

ومن الدليل على ذلك ما جاء فى كتاب "آداب الحرب والشجاعة" لمباركشاه فهو القائل ما محمله عند كلامه عن الإغارة ليلا، أن عليا فى غزوة الخندق عندما أغار ليلا على عمرو ابن عبد ود اختار الميقات المناسب، وهو بين جوف الليل وبزوغ الفجر، وكانت غارته

الليلية من طائفتين من المقاتلين، طائفة لها الدراية بالطعن والضرب وأخرى حكيمة عاقلة مطاعة، فإذا ما وفقت هذه الغارة الليلية فى تثبيت جموع العدو، وقلع خيامهم وتشريد خيولهم، وإلقاء الرعب فى قلوبهم فقد حمت الجيش كله، وكفته مشقة خوض المعركة [1] وجميل منه في الأبيات الأواخر من تلك القصيدة أن يقص علينا ما رأى فى رؤياه. لقد ذكر أن النبيﷺ حباه عصاه فاعتصم بها، بذلك يذكرنا بالبوصيرى الذى أصابه الفالج، ونظم قصيدته واستشفع بها الله أن يعافيه فرأى النبى ﷺ فى المنام، فمسح وجهه بيده المباركة وألقى عليه برده، ولما أصبح مسح الله ما به من أذى، وتلك روحانية رقراقة عند هذا الشاعر الحديث وذلك الشاعر القديم. يقول البارودى:

فهـــذه الغـــزوات الغـــر شـــاملة	جمع البعوث كدر لاح فى نظم
نظمتـها راجيـا نيـل الشـفاعة مـن	خير البرايا ومولى العرب والعجم
حسـبى بطلعتـه الغـراء مفخـرة	لما التقيت به فى عالم الحلم
وقـد حبـانى عصـاه فـاعتصمت بـها	فى كل هول فلم أفزع ولم أهـم
فهـى التى كـان يحبـو مثلـها كرمـا	لمن يـود وحسبـى نسـبة بهـم

وهكذا يرشد الرمز إلى الحقيقة ويسمو عالم الروح على عالم المادة وتنعقد صلة بين هذين العالمين.

وبعد البارودى يذكر شوقى خاصة أن هذين الشاعرين يذكران ضرورة لدى كل من أرخى نظرة إلى تاريخ الشعر العربى، أو على التحديد تتبع تطوره من شعر عربى تقليدى يضرب فيه الشعراء على قالب القدماء وينظرون إلى شعرهم على أنه قالب يحتذى، فالبارودى هو من له الريادة فى الشعر العربى الحديث، ويتلوه فى ذلك شوقى، فهما متلازمان.

وشوقى شاعر العربية بكل ما تتسع الكلمة له من معنى، وهو من يقلب شعره فى شئون المسلمين قاطبة، يؤرخ حوادثهم متتبعا إياها فى حرص بالغ على تتبعها، فاستلزم ذلك منه أن يقول شعرا فيما يجمع المسلمين على الدين الحنيف وله فى المناسبات الدينية كل رائعة.

أما ما نقصد إليه فى هذا المقام فهو ذكره لمغازى الرسول ﷺ ، فى قصيدتين عصماوين: أولاهما الهمزية النبوية، والأخرى نهج البردة. وهما رائعتان مشهورتان ولذلك دخلتا الغناء الذى زادهما حسنا على حسن وشهرة على شهرة.

---

(١) مبارك شاه. آداب الحرب والشجاعة، ترجمة الدكتورة ثريا محمد على ص ١٦ القاهرة ١٩٩٢م

إن شوقى كان حقيقا بأن ينظمهما فى مدح الرسول ﷺ لأنه وهو شاعر العربية - لم يغفل عن صلة العرب بالإسلام ونبى الإسلام ﷺ وأنه لا بد مستوجب على نفسه أن ينظم فى هذا الغرض. فبعد أن ساق كلاما طويلا آخذا بعضه برقاب بعض فى شمائل النبى ﷺ وفى رفعة قدره بين الأنبياء وكل ما هو متصل من ذلك بسبب ما ترك صفة من صفاته إلا أحصاها ولا محمدة من محامده إلا عرف بها إلى أن ذكر غزواته ﷺ على أنها على رأس فضائله ومحامده فقال:

كم من غزاة للرسول كريمة	فيها رضا للحق أو إعلاء
كانت لجند الله فيها شدة	فى إثرها للعاملين رخاء
ضربوا الضلالة ضربة ذهبت بها	فعلى الجهالة والضلال عفاء
دعموا على الحرب السلام وطالما	حقنت دماء فى الزمان دماء[1]

فشوقى فى هذه الأبيات ينظر إلى الغزوات من زاوية لم ينظر أحد قبله إليها منها لأنه بين فضلها وأن غزاة المسلمين فيها إنما تبتوا فى مرضاة الله وأعلوا كلمة الحق وكابدوا فى غزواتهم ما تكبدو واستشهدوا ما استشهدوا فعاد ذلك على الدنيا وخلائقها بالخير، كل الخير وأسفرت الشدة عن الفرج، وكانت هذه من البشريات للعالمين ونصرا لدين الله نعمت به الدنيا من بعد وخرجت من ظلمات الجهالة إلى نور الحق واليقين، إن شوقى كان على صواب فيما قال لأنه رتب النتيجة على المقدمة، ورد المعلول إلى العلة، وكان المؤرخ الثبت الذى قال ما لا ريب فيه، إنه دعم دعواه بدليلها وبين كيف أن هذه الحروب كانت من بعد سلاما وكانت لا مندوحة عنها لما تلاها من خير نعمت به الدنيا، فحسنت أحوال المؤمنين فى دنياهم وأخراهم، وخرجوا من تلك الكروب إلى ما هو أحسن المطلوب، إنه كمؤرخ لا يحلق فى الخبال، واللفظ فى كلامه على قدر المعنى لا ينصرف عنه ولا يتعداه إلى خيال محال مما يجعل من كلامه نصا يساق شاهدا صحيحا.

أما القصيدة الأخرى فهى"نهج البردة" التى عارض بها قصيدة البردة للبوصيرى فى مدح النبى ﷺ ومعلوم أن الشاعر الذى يعارض غيره إنما يساجله ويحرص على أن ينافسه ويثبت أنه أتى بما لم يأت به، وهذا مما يدفع الشاعر المعارض إلى محاولة التفوق والإحسان

---

(١) أحمد شوقى: الشوقيات ص٢٨ جـ١، القاهرة

جهد المستطاع، وقد كان هذا من شوقي في قصيدته. إن شوقي يستهل قصيدته فى مدح الرسول ﷺ بالغزل لأنه يريد أن يضرب على قالب البوصيرى، وغزله تقليدى كغزله، ثم دخل على المديح وكل ما مدح به النبى ﷺ متعالم مشهور، وبعد أن ساق فى ذلك ما ساق من [illegible]م طويل قال:

قالوا غزوت، ورسل الله ما بعثوا	لقتل نفس ولا جاءوا لسفك دم
جهل وتضليل أحلام وسفسطة	فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم
لما أتى لك عفوا كل ذى حسب	تكفل [illegible]سيف بالجهال والعمم
والشر إن تلقه بالخير ضقت به	ذرعا وإن تلقاه بالشر ينحسم

وملحوظ أن كلام شوقى فى ميميته هذه متمم لكلامه فى بائيته تلك. إنه يقف موقف محق للحق مبطل للباطل مشير إلى عمى البصائر وخبث السرائر، إنه فى واقع الحال ياطق العقل ويلتزم حدود المنطق أولا وبالذات فكان كلامه هو الصواب الأصوب.

وشوقى فى صنيعه هذا مذكرنا بشاعر تركى قديم من أهل القرن الرابع عشر يسمى سلمان جلبى صاحب منظومة طويلة مشهورة مأثورة بعنوان"المولد" أو "وسيلة النجاة". وكلمة مولد أو مولد سليمان جلبى فيها الحاجة إلى فضل إيضاح، فالمولد معنى المنظومة التى يمدح فيها النبى ﷺ مع ذكر كريم صفاته وعظيم مناقبه وسرد سيرته العطرة منذ ولادته إلى أن لحق بالرفيق الأعلى.

أما دافع سليمان جلبى إلى نظم المولد فهو أنه كان يلقى السمع ذات يوم إلى أحد الوعاظ، وكان من كلام هذا الواعظ أن قال إنه لا يفضل محمدا ﷺ على غيره من الرسل، وحجته قوله تعالى فى سورة البقرة ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾ واتفق أن كان بين الحضور رجل عربى من أهل الشام، فما سمع هذا من كلام الشيخ حتى دخله غضب شديد وأخذ منه الأسى كل مأخذ، وما صبر أن صاح عليه صيحة شديدة وهو يقول(أيها الجاهل لا بصر لك بالتفسير ولقد ذهلت عن المتشابه والناسخ والمنسوخ. إن المعنى المقصود من هذه الآية عدم التفرقة بين الرسل فى أمر الرسالة والنبوة لا فى مراتب الفضل، وإذا ما صح هذا فكيف يفسر قوله تعالى:﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض﴾. وعاد الرجل إلى

بلده وهو يكاد ينشق غبظا ولا يجد شفاء لغيظه إلا فى قتل الواعظ فاستفتى فى قتله ثم رحل إليه وقتله[1].

ولذلك صح عزم سليمان جلبى أن ينظم مولدا هو سرد لسيرة الرسول ﷺ وقسمه إلى فصول وكان مندفعا إلى ذلك بفرط محبته لحبيب الله ﷺ ورغبته فى دفع المفتريات والأراجيف عنه إحقاقا للحق وتصحيحا للخطأ وقصد بنظمه هذه المنظومة جزيل ثواب الله فى الآخر.

ولهذه المنظومة فى الأدب التركى منزلة لا تسامى، وإن كان شاعرها ليس من شعراء الترك المشاهير، ولكنه أحسن فيها أيما إحسان، حتى قال الرحالة التركى أوليا جلبى وهو يتحدث عن مدينة بروسه إن مولد سليمان جلبى الذى يتلى فى بلاد العثمانيين وغيرها شعر معجز وسهل ممتنع [2]. ويقول ضيا باشا "لست أدرى هذا الكلام من أى نوع. إنه يخلب لب كل مسمع"[3] أما كوبريلى زاده محمد فؤاد فيسميه جوهرة الأدب التركى[4]. تلك هى منزلة هذه المنظومة فى الأدب التركى، ومنزلتها أعظم فى نفوس الترك فما من تركى لا يحفظ منها أبياتا متبركا بتلاوتها وفى شهر ربيع من كل عام يجتمع الترك لسماع من يتلو مولد سليمان جلبى بصوت بلبلى فيقع الخشوع فى القلوب وتفيض العيون من الدمع.

وسليمان جلبى يعبر تعبير المؤمن الموقن عن حبه للنبى ﷺ ويركن إلى أسلوب المتصوفة الذين يحلقون فى الخيال كل محلق، ويزحمون كلامهم بالمصطلحات والرموز ويجعلون من المجاز قنطرة للحقيقة. إن سليمان جلبى يمدح الرسول الكريم بكل جميل، ويجرى عليه حميد صفاته ويذكر عنه معجزاته وهذا مثال من قوله "وجعل المصطفى له حبيبا، فكان لكل الأوجاع طبيبا.وكمله على الخلق فضله، وكان منه كل ظاهر وكل خفى، وفى العرش والفرش والغبراء والسماء وكل شىء.

ولو أن محمدا ﷺ أظهر، لما بدت أرض ولا سماء للنظر، ولا شمس ولا قمر، يا صاح، بل ولا ليل ولا نهار ضاح. ولولا قدوم محمد ﷺ إلى العالم، لما أنزل تاج العزة على آدم.

---

(١) كوبريلى زاده محمد فؤاد - شهاب الدين سليمان. يكى عثمانلى تاريخ ادبياتى ص ١٤٥ (استانبول ١٣٣٢هـ).

(٢) اوليا جلبى اسيا حتنامه ص ٥٣ ايكنجى جلد (استانبول ١٣١٤هـ).

(٣) بيلمم نه سحندر اوسحلر .اشفته أو لورهب ايشيتلر

(4) Pareha: Islamalegia P,543 (Roma 1951)

ومن أجل ذلك الرسول ﷺ نالت توبة آدم عند الله القبول. وكرامة له قدرت لنوح من الغرق نجاته، وقبل مولده بدت معجزاته.

أما موسى ففى يده العصا قد أصبحت بعزته أفعى ولما كان جده الخليل جعل النار جنة له ذلك الجليل[1].

وهنا مجال المقارنة بين الشاعر التركى. فكلا الشاعرين وقف موقف المدافع عن رسول الله ﷺ، وشوقى إنما يذكر غزواته بالذات ليدحض عنه المفتريات، أما الشاعر التركى فامتدحه وأطال رغبة منه فى أن يثبت أفضليته على الأنبياء والمرسلين والخلق أجمعين، وما خطر بباله أن من الملاحدة من رأى فى المغازى عيبا يشين مثل شوقى الذى عرف ذلك من بعض ما كتبه كتاب الغرب. وشوقى شاعر العربية الأعظم الأشهر ولا شك فى جودة قصيدتيه. أما سليمان جلبى فما كان إلا مغمورا وليس فى عداد شعراء الترك المرموقين، وإن كان ذلك لا ينفى أنه بلغ ذروة الإجادة فى منظومته تلك الطويلة.

وليس لقصيدتى شوقى هذه القدسية التى لمولد سليمان جلبى الذى يتلى تبركا واحتسابا فى كل عام، وفى كثير وكثير من المناسبات، كما أن شوقى أميل إلى ذكر الواقع وتحديد كلامه، ولكن سليمان جلبى يهيم فى الخيال مندفعا إليه بعشقه الصوفى الذى يريد تفسير الحقيقة بالمجاز، وإن كان لم يتجاوز الحقيقة فى وصف معجزات وكرامات النبى ﷺ وكلامه هو الحقائق ترفل فى وشى من المجاز يكسبها الجمال والجلال، ولنا أن نقول إن شوقى فى مدحه للنبى ﷺ يتفق مع سليمان جلبى. فالشاعران فى هذا الصدد متكاملان وإن تصدى شوقى لما لم يتصد له سليمان جلبى. بيد أننا استوجبنا على أنفسنا عقد هذه

---

(١) مصطفاى كندوبه قلدى حبيب   جملة درده هم أول اولدى طبيب
حق اكا وردى مكمل ايلدى   بسا رد لمشدن مفضل ايلدى
كسر محمد اولمايدى عيان   اوليمردى زمين واسمان
اندن اولدى هر نهان واشكار   عرش وفرش وبيرو كوك هرناكه وار
كر محمد او لمسا بيدى اى يار   او لمزيدى اى وكون لبل ونهار
كسر محمد كلمسيدى عالمه   نساح عرت انريدى آدمه
هم وسيلة او لد غبحون أول رسول   آدمك حق توبة سن قلدى قبول
نوح انكحون غرقدن بولدى نجات   داخى طعمادن كوردى معجزات
داخى هم موسى النده كى عصا   اولدى أنك عزتيه اردها

المقارنة بين الشاعرين العربى والتركى. وهذا ما كشف بنا عن فوارق بينهما من أهمها أن شوقى يمثل الروح العربية فى الشعر كما يمثل سليمان جلبى الروح التركية الصوفية، وقد جمع بينهما موقفهما موقف المدافع عن نبى الإسلام ﷺ. ولنا أن نضيف إلى ذلك ما يمكن أن يلحظ وهو أن الشاعر التركى لم يجد باعثا يبعثه على ذكر مغازى النبى ﷺ لأن المغازى من المتعالم المعروف عند الترك، فهم يمتدحونها لدى سلاطينهم وهذا حسبهم، فلا حاجة بهم إلى ذكرها فى سيرة سيد المرسلين، ولكن شوقى اضطر إلى ذكرها على أنها من فضائل النبى ﷺ ردا على من توهموا بجهالتهم وسقم فهمهم إلى غير ذلك.

ومدار الحديث بعد شوقى على شاعر آخر من شعراء العصر الحاضر هو أحمد محرم، وشهرته فى المقام الأول بأنه شاعر العروبة والإسلام، وذلك مردود إلى أنه صاحب كتاب منظوم عنوانه ديوان مجد الإسلام، وقبل أن ندرس فيه المغازى نتعرف إلى الشاعر فى شخصيته بعامة ونحاول تبين ما حفزه على نظم هذا الكتاب رجاء أن نتبين الصلة بين الشاعر وما قال من شعر.

ولد أحمد محرم فى بيت متوسط الحال لأبوين تركيين عام ١٨٧٧م فى القاهرة، وتوفى عام ١٩٤٥م وأبوه تركى صميم. أما أمه فاتصل نسبها بالمصريين، وكان أبوه التركى شديد المحبة للعرب تقيا نهيا محبا للعرب مطلعا على تاريخهم، وعنه ورث ابنه ذلك الطبع وتلك النزعة، ولم يتم تعليمه فى المدارس، وذلك أن مناهج الدراسة فيها وهى أوربية لم تطب نفسه بها، والظن أن ذلك يشير إلى نزعته الإسلامية المحضة، وقال الشعر وبعث بقصيدة وهو فى حدود الخامسة عشرة من عمره يشكو فيها إلى أبيه ما يقاسى من اغتراب نفسى، فما كان من أبيه إلا أن أعاده إلى قريته واستحضر له سن شيوخ الأزهر من جلس منهم مجلس التلميذ، وبذلك حذق العربية وعلوم الدين، وكانت ثقافته إسلامية بتمام المعنى، فعالج نظم الشعر جديا، وكان لنشأته الدينية الإسلامية أثرها فى نفسه بحيث إنه وجد دافعا يدفعه إلى الذود عن الدين والرغبة فى الأخذ بتعاليمه، والدعوة إلى بيان حقيقته وتفسير ما أشكل على الناس فهمه من تعاليمه، والدعوة إلى بيان حقيقته وتفسير ما أشكل على الناس فهمه من تعاليمه، وبلغ حدا سمى فيه نفسه نصير الدين.

وتقلب شعره فى كل فنون الشعر المعلومة إضافة إلى شعره فى الإسلاميات.

وأحمد محرم أحد الشعراء الذين نهضوا برسالة الشعر بعد البارودي إلى جانب شوقي، وحافظ إبراهيم، وخليل مطران[1].

أما أهم ما فاضت به قريحة أحمد محرم ويعنينا في هذا الصدد فهو (ديوان مجد الإسلام) الذي سرد فيه سيرة الرسول ﷺ، وأشهر غزواته، وبطولات أصحابه، وما ماجت به حياتهم من أحداث.

وشعره في هذا جزل العبارة متين السبك وله القدرة على أن يعبر عن الحقائق التاريخية في أسلوب شعري لا يصرف الحقائق عن وجهها، بل يكسبها أثرا له موضعه في أغوار النفوس، فهو لا يهيم في الخيال والمجاز إلا بمقدار مما يجعل من كتابه سجلا لما ذكر فيه من أحداث يعتمد عليها ويرجع إليه.

وديوان مجد الإسلام في مجلدات أربعة مما يدل على أن الشاعر غزير المادة طويل النفس له الحرص على إيراد الحقائق بحذافيرها غير منقوصة.

ومما يلتفت إليه أنه في مقدمة ديوانه أو منظومته آيات بينات من كتاب الله المبين تدعو إلى الجهاد و ترفع من شأن المجاهدين، مما يقوم دليلا قاطعا على أنه كان ذا رغبة في تأريخ المغازي وعدها مجدا من أمجاد المسلمين، كما أورد مقولات لبعض أهل العلم في المغازي كقول الزهري:

(علم المغازي علم الدنيا والآخرة) وقول زين العابدين بن الحسين بن علي (كنا نعلم مغازي رسول الله ﷺ، كما نتعلم السورة من القرآن.

وقول سعيد بن محمد بن سعد بن أبي وقاص (كان أبي يعلمنا المغازي والسرايا، ويقول: إنها شرف آبائكم فلا تضيعوا ذكراها).

ومما زين لأحمد محرم أن يعكف على نظم منظومته الطويلة تلك أن محب الدين الخطيب صاحب مجلة الفتح كتب إليه يعرض عليه فكرة النهوض بتسجيل مفاخر الإسلام، والعكوف على نظم وقائعه ليتشكل من ذلك إلياذة إسلامية تذكر الجيل الحاضر من المسلمين بمجدهم في الزمان الخالي، وتقوم في الشعر العربي مقام إلياذة هوميروس في

---

(١) محمد إبراهيم الجيوشي: شاعر العروبة والإسلام ص ٥٢ القاهرة سنة ١٩٦١م

الأدب اليونانى، وشاهنامة الفردوسى فى الأدب الفارسى[1]. وهذا ما ينزل منظومة أحمد محرم منزلتها فى الأدب العربى ويبين أنه بلغ فى الشعر علو الرتبة، وإن رددنا قولنا بأن المغازى كانت المحور الذى تدور عليه، فصادف قول محب الدين هوى فى نفس أحمد محرم وجعل ينظم ما ينظم لينشره فى الصحف تباعا وبذلك اتسعت شهرته وعرفت أهمية شعره، وأحمد محرم يبدو داعيا إسلاميا بمعنى الكلمة بمثل قوله:

هل الدين إلا معقل نهتدى به ... إذا دلف العادى إلينا فأسرعا؟
هل الدين إلا الروح يحيى نفوسنا ... حياة ترينا ماحل العيش ممرعا؟
أنعرض عنه لا مبالين رزءه ... وآلامه مهما اشتكى وتوجعا؟
هو الدين إن يذهب فلا عز بعده ... وإن جد ساعينا على إثر من سعى
ولا دين حتى ينزعوا عن ضلالهم ... ويصبح منهم موطن الغى بلقعا

فمثل هذا من قول أحمد محرم يستدل منه على أنه نظم منظومته هذه فى الدين، وعد المغازى جزءا لا يتجزأ من الدين، ولذلك كان له الحرص على القول فيها. وقبل أن ننظر فيما قال عن المغازى نتدبر قوله فى مدح النبى ﷺ

املأ الأرض يا محمد نورا ... واغمر الناس حكمة والدهورا
حجبتك الغيوب سرا تجلى ... يكشف الحجب كلها والستورا
عب سيل الفساد فى كل واد ... فتدفق عليه حتى يغورا
جئت ترمى عبابة بعباب ... راح يطوى سيوله والبحورا
ينقذ العالم الغريق ويحمى ... أمم الأرض أن تذوق الثبورا

فملحوظ أن اللفظ فى هذا الكلام على قدر المعنى، فلا شطحات فيه ولا مجاز يحجب الحقائق، مما يرشد إلى أن الشاعر إن هو إلا مرشد واعظ لا يقول إلا حقا ويريد من يقرأونه على أن يقتنعوا بما يقول فى جزم ويقين.

وتحت عنوان غزوة بدر الكبرى يتجه الشاعر بالخطاب إلى النبى ﷺ يحثه على القتال مما يدل على أنه يلتهب حماسه ويمتلئ فخرا فيقول:

ما للنفوس إلى العماية تجنح ... أتظن أن السيف عنها يصفح

---

(١) محمد إبراهيم الجيوشى: شاعر العروبة و الإسلام ص ٦٢ القاهرة سنة ١٩٦١م

ظمئت سيوفك يا محمد فاسقها — من خير ما تسقى السيوف وتنضح

فجر ينابيع الفتوح فريها — ما تستبيح من البلاد وتفتح

المشركون عموا وأنت موكل — بالشرك يمحى، والعماية تمسح

خذهم ببأسك لا ترعك جموعهم — فلأنت إن وزنوا الكتائب أرجح

ضلوا السبيل وفى يمينك ساطع — يهدى النفوس إلى التى هى أوضح[1]

فهذه نبرة لا عهد لنا بمثلها بما أسلفنا النظر فيه من شعر حسان بن ثابت مثلا الذى كان يقرر الواقع بل يؤرخه وكفى ولم يكن له من الحماسة أو الجرأة ما يتجه به إلى النبى ﷺ حاثا له على قتال المشركين، بل كان حسبه أن يقف موقف المدافع وأن يصرف عن النبى وعن رجاله أذى أعدائه، ولكن أحمد محرم كما أسلفنا لا يتمالك نفسه من الهتاف برسول الله ﷺ راغبا إليه أن يحارب من أرادوا له كيدا مبينا أن السيف وحده هو الذى يصرف شرهم عنه، وما من وسيلة سواه مما يدرك منه أن النبى ﷺ كان على الحق والصواب فى قتال الكافرين الذين بيتوا الشر للمسلمين وسعوا فى هدم الدين. وهو فى هذا يتفق مع شوقى فيما قال ولقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

ويمضى أحمد محرم فى السرد القصصى وهو إنما يذكر ويصف ما حدث كما حدث فهو راوية لا يتحدث عن تجربة شخصية ولا يدلى برأى فيما وقع ولا يعبر عن رؤية خاصة أو ينطلق من شعور هز أعماق نفسه فيقول:

عد باللواء، وقل لحمزة إنهم — رهن بمرزمة تسح وتدلج

نفروا يريدون القتال وغرهم — عبث اللواتى فى الهوادج تنبح

غنت بهجو المسلمين وإنها — لأضل من يهجو الرجال ويمدح

إنه فى هذه الطائفة القليلة من الأبيات يلتفت إلى النساء المشركات اللاتى جعلن يشحذن همم الرجال ويحفزنهم على قتال المسلمين وكل ما يستطعنه هو الثلب والسب، وهذا منهن نخسة وما كان لها من أثر، بل إن الله أعز جنده وإن كره المشركون. ولكنه بعد ذلك يلتفت إلى النبى ﷺ وينطق عن نفسه كأنه خاض بنفسه غمرات تلك الغزوة. وهذا من الدليل

(١) أحمد محرم. ديوان مجد الإسلام ٣٥، ٣٦، القاهرة. سنة ١٩٦٣م

على أنه غاب بعض الشيء عن وعيه ودفعه إيمانه إلى آفاق الخيال وذلك مردود إلى إيمانه ويقينه، وكأنما كان يأمل أن يكون بين المؤمنين المقاتلين فى تلك المعركة لينال حسن المثوبة، بذلك يعبر عن رؤيته وشعوره بعد أن كان مجرد راوية أو وصاف.

لقد خاطب رسول الله ﷺ قائلا له إنه ممن ينصرونه ويشدون أزره ولا يفضون من حوله مدبرين لأنهم يريدون ثواب الآخرة. ويلتفت إلى تاريخ الأنبياء – عليهم السلام – وما كان من أمر موسى لقومه ان يدخلوا الأرض المقدسة إلا أنهم لم يأتمروا بأمره وكانت عاقبة ذلك أن الله أخذهم بما صنعوا فضرب عليهم التيه أربعين سنة. إن الشاعر على ذكر من تواريخ الأنبياء، وهو هنا يورد ما وقع لموسى مع قومه ويغلظ اللائمة ضمنا على من خذلوه، وينزه نفسه أو أصحاب النبى ﷺ عن أن يكونوا مثل قوم موسى. إلا أنه بعد ذلك يتجه بغتة إلى وصف المعركة فيقول:

هـذا علـى فـى اللـواء ومصعـب	والنصـر فـى عطفيـهما يـترنح
حمـلا لوائيـه، فلـو صـدح الهـدى	فـى مشـهد جلـل لأقبـل يصـدح
هـذا رسـول الله مـن يـك مؤمنـا	فإليـه إن طريـده لا يفلـح
المـوت فى يـده وعـند لـوائه	ريـح الجـنان لمن دنـا يستروح

إنه بعد الإجمال يجنح إلى التفصيل فيذكر بعض الأسماء ولكن لا يفوته كما عهدناه من قبل أن يذكر الشهادة فى سبيل الله بين الفينة والفينة. و بذلك يطلعنا على فحوى الجهاد فى سبيل الله.

ويميل ثانية إلى ذكر الأحداث تفصيلا ما وقع مم يسمى الأسود المخزومى الذى قال: أعاهد الله لأشربن من حوضهم (المسلمين) أو لأهدمنه. أو لأموتن دونه، ثم أقبل فضربه حمزة فى الحوض، وهو أول قتيل من المشركين فى بدر. والشاعر بذكره مثل هذه الجزئية إنما يدلل على انه شاء أن يؤرخ تلك الغزوة وأن يتتبع ما وقع فيها.

وقد أكد ما نذهب إليه مشيرا إلى عزم أبى بكر على مبارزة ابنه عبد الرحمن لما طلب المبارزة، وكان لايزال من المشركين ثم أسلم فى هدنة الحديبية.

ولم يمه هنا أن يعقب على ما كان من أبى بكر مع ابنه وينصح له أن يعرض عن مبارزته لأنه لو كان خر صريعا تحت سيف ولده لأحزن مونه النبى ﷺ كل الحزن. إن

الشاعر وهو يسرد الأحداث يميل إلى النطق عن نفسه متخيلا. وتلك منه لمحات مفسرة لما يدرك من تلك الأحداث في كثير من المواضع، وأضاف إلى ما قال عن أبي بكر وابنه ما كان بين أبي عبيدة وأبيه إذ حمل أبو عبيدة بن الجراح على أبيه وكان مع المشركين ليقتله فأعرض عنه فتعقبه وأدر نه حتى قتله.

وليس يخفى ما في هذين الخبرين اللذين أسلفنا ذكرهما بين أبوين وولدين لهما في معركة بدر مما يجتذب الانتباه ويستعصي على النسيان ويحرك المشاعر.

إن خبر أبي بكر مع ولده عبد الرحمن يذكرنا بقصة من قصص شاهنامة الفردوسي مدارها على أسطورة تقول إن البطل رستم قتل ولده سهراب، والخبر في ذلك أن سهراب بن رستم تربى في كنف الترك وكان أميرا على جيشهم الذي زحفوا به على إيران، وكان رستم على رأس جيش الإيرانيين واتفق أن قتل رستم سهراب ولده وهو لا يعلم أنه ولده، وكان هذا حدثا مؤثرا. ولقد أورد الفردوسي في شاهنامته هذه القصة فقال الفردوسي في ذلك شعرا يعد من أروع ما قال ويمثل فجيعته في ولده، والفردوسي بذلك يجعل من الأسطورة الخيالية إلهاما لشعر قاله معبرا عن ذات نفسه ناطقا عن تجربة وقعت له ومن قوله في هذا:

(آن لي اليوم عن دنياي أن أروح، ألمت لموت الفتى فأنا جسد بلا روح. أحث خطايا لعلي ألقاه بعد سفر طويل، وإذا ما لقيته فسوف أعاتبه على الرحيل)[1].

وهنا يتجلى الفرق واضحا بين أحمد محرم والفردوسي فأحمد محرم مر على ما وقع بين أبي بكر وابنه مر النسيم وكان حسبه إشارة لاحة وكان المتوقع منه أن يتأثر لذلك وأن يبين كيف بلغ أبو بكر من الإيمان واليقين حد أن يهم بقتل فلذة كبده ولو فعل أحمد محرم لوجد المجال متراحب الأرجاء وإن ألمح إلى ذلك في بيت واحد لا غناء فيه. أما الفردوسي فقد تأثر بالأسطورة واستلهم منها ما قاله في موت ولده وكان لكلامه موقعه. إن رستم قتل ولده وهو لا يدري أنه ولده وهذا التناقض بينهما كان تيمنا بأن يزيد من حزن

---

(١) رضا زاده شفق تاريخ أدبيات إيران ص ٩٥ (تهران ١٩٢١)

مرا فوبت برفت آن جوان ردرومن مسم خود نبی بی روان

شتابم همی تامگر بابمش جویابم به بسعاره بخستا یمش

أبى بكر ويشعب بعض الشيء قلب الفردوسى بالسلوك ثم ينبرى أحمد محرم لوصف المعركة وبعد أن يصف الفرسان وهم يصولون ويجولون ولخيولهم حمحمة تلهب الحماسة وتغرى البئيس المقدام بالمضى قدما، يشير إلى أن الملائكة شاركوا المؤمنين قتالهم فكانت المعجزة وتميزت الغزوة بما لم تتميز به غزوة سواها.

ثم نجد أنفسنا إزاء عنوان هو مصرع أبى جهل، والشاعر يخاطبه مستخفا به ساخرا منه ويذكر أعلاما معه فى المعركة وبذلك يعبر عن المؤمن الموقن فى فرحته فى شماتته بعدو الله والرسول ﷺ وينطق عن لسان المسلمين الذين يرون فى مصرع أبى جهل معنى النصر المبين. إنه يتحدث إليه مبينا كيف ساءت عاقبته وأن مصيره كان مصير كل ظلام كفور:

بسيفك فيما اخترت من عاجل القتل ... سقيت ذعاف الموت، فاشرب أبا جهل ولم

هو السيف لولا الجبن لم يمض حده ... يرض فى جد الكريهة بالهزل

أفرعون إن تجهل، فلن تجهل الوغى ... فراعينها من ذى شباب ومن كهل

دع الهزل يا ابن الحنظلية إنه ... هو الجد كل الجد لو كنت ذا عقل

هى اللات والعزى أضلته هذه ... وزادتك هوى من ضلال ومن خبل

لقد كنت ترجو أن ترى الهبل الذى ... رضيت به ربا يفوز ويستعلى

أصبت ابن مسعود سناء ورفعة ... وباء عدو الله بالخزى والذل

فأحمد محرم مستوعب للسيرة النبوية ملم كل الإلمام بتاريخ الغزوات وكأننا به نشاهده وهو يقرأ تاريخ المغازى سطرا بعد سطر ليستمد منه ما يقوله شعرا وبذلك يجعل من ديوان" مجد الإسلام" تاريخا دقيقا متضمنا تاريخ مغازى الرسول ﷺ.

وحسبنا أن نقول إنه قال عن أبى جهل إنه فرعون وهنا يحضرنا أن النبى ﷺ قال "إن أبا جهل فرعون هذه الأمة"، ثم يبين كيف تم قتله تفصيلا، ومعلوم أن معاذ بن عمرو بن الجموح، ومعوذ بن عفراء من الأنصار هما اللذان ضرباه، وأن ابن مسعود أجهز عليه. وكان ابن مسعود كليل السيف فقال له أبو جهل: خذ سيفى فاحتز رأسى به ففعل. وقال ابن مسعود وهو على صدره يحتز رأسه لقد ارتقيت يا رويعى الغنم مرتقى صعبا.

ومما أسلفنا ذكره يستبين لنا أن قراءة شعر أحمد محرم تستوجب من القارئ أن يرجع إلى تاريخ المغازى ليتابع ما ذكر من أحداث على التفصيل وذلك ما يجعل هذا الشعر تاريخا

صحيحا للمغازى ولا غرو، فهذا الكتاب كتاب تاريخ منظوم لأن صاحبه يعقد فيه الأبواب ويرتب الفصول وهذا ما ينأى به عن أن يكون قصيدة فى مدح النبى ﷺ كقصيدة شوقى أو البارودى.

ولنتجاوز عناوين على فصول عدتها ثلاثة عناوين لنقف على فصل عنوانه شهداء بدر. وهذا الفصل قصيدة رائعة يتحدث فيها عن شهداء بدر حديثا هو كل ما يمكن أن يقال عنهم وهو فى تلك القصيدة يخرج عن ترديد ذكر الأسماء التى تجعل لكلامه طابعا تاريخيا واضحا ليحيى هؤلاء الشهداء ويبين فحوى الشهادة فى ديباجة مشرقة فيقول:

طف بالمصارع واستمع نجواها	والثم بأفياء الجنان ثراها
ضاع الشذى القدسى فى جنباتها	فانشق وصف للمؤمنين شذاها
حلل يروع جلالها ومنازل	من نور رب العالمين سناها
ضمت حماة الحق ما عرف امرؤ	عزا لهم من دونه أوجاها
الخائفين من الخطوب غمارها	المصطلين من الحروب لظاها
الباذلين لدى الفداء نفوسهم	يبغون عند إلههم محياها

إنه يطيل فى الوصف غير أنها إطالة محببة إلى النفس لا يشعر القارئ منها بسآمة ولا ملالة، لأنه عبر عن ذلك بشعر بلغ علو الرتبة كما أن ما قاله وصف دقيق لهؤلاء الشهداء تحيط به هالة من القدسية. ويمضى الشاعر فى القول ويغرينا بإيراد الشواهد من شعره التى نخشى معها الإطالة، بيد أننا مع ذلك نجد أنفسنا فى ضرورة أن نكثر من إيراد الشواهد خصوصا إذا اغترفناها من هذه القصيدة التى تعم بالوصف الصادق شهداء بدر، ومن ثم شهداء المسلمين فى المغازى. إنه يهتف بهم ويناجيهم بعد أن خروا صرعى بعد أن نصروا دين الله ورسوله ﷺ فارتفعت أرواحهم إلى حيث تنعم فى عليين بالنعيم المقيم.

شهداء بدر أنتم المثل الذى	المدى بعد المدى فتناهى
علمتم الناس الكفاح فأقبلوا	ملء الحوادث يدفعون أذاها
أما الفداء فقد قضيتم حقه	وجعلتموه شريعة نرضاها
لولا الدماء تراق لم نر أمة	بلغت من المجد العريض مداها

كـم أمـة لم تـوق عادية الـردى	لولا الذى اقتحم الردى فوقاها
مـا أكـرم الأبطـال يـوم تفيـأوا	ظلـل المنايـا يبتعـون جناهـا
راحوا من الدم فى مطارف أشرقت	حمر الجراح بـها فكـن حلاهـا
هـم عـند ربك يرزقـون فحيـيهم	وصـف الحـياة لأنفـس تهواها

هذه طائفة أخرى من الأبيات قالها فى شهداء بدر وقد ترددنا فى اختيار الشواهد ماذا نبقى وماذا نذر منها لأن الكلام أخذ بعضه برقاب بعض مطرد السياق والمعانى مترتب بعضها على بعضها الآخر ولكن ذلك دافعنا إلى القول إن الشاعر لم يكن فى بعد عن الصواب حين أطال ولأن إطالته غير مملولة ونحن فى صدد المقارنة بينه وبين غيره فى تاريخ المغازى لا فى مدح النبى ﷺ ليس غير. لقد أحسن الشاعر فى التعريف بهؤلاء الصرعى فى بدر، فبعد أن صرح بأن مثواهم الجنة وأنهم نصروا دين الحق وهذا ما يبدو من قبيل نافلة القول أو تحصيل الحاصل استطرد إلى ذكر المحاربين فى شمول وشرح معنى أن يخر محارب صريعا إذا كان قتاله مسعى منه فى الذود عن حق أو الدفاع عن ضيم، وبمثل هذا من قوله يبرر تلك المغازى التى خفيت بواعثها عن بعض من كلت أفهامهم عن إدراك مغزاها فقالوا عنها ما لا يقال وطمسوا الحق بالباطل وجاءوا بالأراجيف والمفتريات. وأحمد محرم – وهو من أهل التقوى والورع – إنما استنهض لنظم هذا الكتاب إيمانه الذى بغمر رحاب نفسه ورغبته فى أن يحتسبه عند الله ويرجو به حسن المثوبة، يعبر عن ذلك بقوله:

بخل الزمان، فكنت من شعرائها   لو شاء ربى كنت من قـتلاها

ولقد نظم أحمد محرم قصيدة فى ذكرى بدر وذلك فى حفل أقامته جميعة إحياء مجد الإسلام بالقاهرة عام ١٣٥٨ للهجرة كما ألقى أخرى فى حفل أقامه المركز العام لجمعيات الشبان المسلمين بالقاهرة عام ١٣٦٠ للهجرة.

ويستدل من ذلك على اختصاص أحمد محرم بموقعة بدر. ولنا أن نسميه شاعر بدر وحسبنا ما أسلفنا ذكره عن غزوة بدر لنكون نقلتنا إلى غزوة أحد التى نظم الشعر فيها بعد غزوتى بنى قينقاع والسويق، وأول ما يلحظ أنه نظمها فى ذلك النمط المعروف بالمخمس وبذلك يتفق مع الشاعر الأندلسى ابن حبيش من أهل القرن التاسع الذى أسلفنا النظر فى منظومته

وهذا المخمس تستغرقه عشر صفحات من الكتاب وهو من بحر مرقص هو الهزج. والشاعر يدأب على مجرى عادته من التأريخ ويدفع القارئ دفعا إلى مراجعة الأحداث لنفقه عنه قوله: ونحن نجده لذلك يبادر إلى الشرح والتعريف بحقيقة ما وقع قبل أن يعرض علينا شعره، فهو القائل ما نجمله لما لحقت الهزيمة الماحقة بقريش يوم بدر مضى بعضهم إلى أبى سفيان وإلى من كانت له تجارة فى العير التى كانت سببا للواقعة – وكانت موقوفة فى دار الندوة – وأراد القوم أن يحرضوا على الحرب وأن يجعلوا ربح التجارة لتجهيز جيشهم فارتضى هذا أبوسفيان وقال أنا أول من يفعل. ونزلت الآية الكريمة

﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون﴾ [الأنفال: ٣٦].

إن هذا الشاعر المؤرخ يأبى إلا أن يتابع أحداث التاريخ حسب ترتيب وقوعها فيخاطب أبا سفيان قائلا:

أدأبك أن تريد المستحيلا؟ تأمــل أيها المولى قليـــلا

لبثت تعالج الداء الدخيــلا وتضمر فى جوانحك الغليلا

وما يجديك لاعجه فتيلا

أما تنفك تذكر يوم بــدر وما عانيت من قتـل وأسر

وراءك، إنها الأقدار تجرى بنصــر للنبـى وراء نصــر

وكان الله بالحسنى كفيلا

أراك أطعـتهم وأبيـت إلا سبيل السوء تسلكه مدلا

تريــد محمـــدا وأراه بسلا رويـدك يا أبا سفيان: هلا

أردت لقومك الحسن الجميلا

أما ما يسترعى النظر ويقمن بالملاحظة والذكر فهو الكيفية التى خاطب بها الشاعر أبا سفيان فهو يحدثه عن فساد قلبه وخبث طويته، ويذكره بأنه مطبوع على الكيد والشر وكأنه بذلك يهجوه وكأنه حسان الذى هجاه فى سالف الدهر إلا أنه يختلف عن حسان بجمال العبارة وروعة الشعر ووضوح المعنى فيما قاله خاصا بأبى سفيان. وإذا انتقلنا من

الجزئيات إلى الكليات أدركنا فى التو أن هذا المخمس يفضل كثيرا مخمس الشاعر الأندلسى ابن حبيش.

لقد أحسن أحمد محرم اختيار البحر واختيار النمط، ومعانيه فى ظاهر ألفاظها، بل يمكن القول إن كلامه يسابق لفظه معناه وليس فيه غريب على الأسماع. نقول هذا لأنه سبق لنا أن أوردنا شعرا له تضمن ألفاظا غريبة لعله اضطر إلى إيرادها لضيق القافية ووضعه عناوين لما يندرج تحتها من شعر يجعل من ديوان مجد الإسلام كتاب تاريخ منظوم بتمام المعنى، فهو ليس قصيدة طويلة بل فصول يورد فيها حقائق تاريخية لا ريب فيها ويستخدم الشعر أسلوب تعبير وبذلك يشبه شعراء الفارسية والتركية والأوروبية فيما نظموا من كتب: إلا أنه جعل تحت كل عنوان قصيدة طويلة بتمامها. أما شعراء الفارسية والتركية والأوروبية فينظمون ما يعرف بالمثنوى أو المزدوج وفيه يتفق الروى بين شطرين فى كل بيت ولا يلتزم فى بقية المنظومة. وهذا ما يبرزه شاعرا طويل النفس إلى أبعد مدى مالكا لناصية اللغة بتمام المعنى.

ويكثر الشاعر من ذكر الأسماء فيضعنا إزاء كتاب تاريخ، وكأننا بهذه الأسماء نخرج بعض الشيء عن إطار الشعر، أو تغض قليلا من روحانيته وتشعرنا أننا نقرأ كتاب تاريخ.

هذا شعورنا نعبر عنه، وتذوقنا نصفه ونحن نقرأ ذلك الشعر، ولكن الشاعر كان مضطرا إليه فى سرده التاريخى ولذلك بادر إلى التعريف بما أورد من أعلام فى كلامه.

وفى هذا المخمس أشار عرضا إلى حمزة إلا أنه أفرد لمقتل حمزة قصيدة بعنوان مقتل حمزة وكان على الحق فى ذلك وحسنا فعل.

إنه عرض صورة لمصرع حمزة لم يضف إليها من عندياته ، ومع ذلك كان لها عميق الأثر فى أغوار النفس لأنه وهو يتجه بقوله إلى النبى ﷺ لأن حمزة عمه ويصف كيف أن هند بنت عتبة لاكت كبده وكيف أن أبا سفيان زج رمحه فى شدقه وهو صريع وبذلك كان بالواقع فى غنية عن الخيال وبالعبارة الصادقة عن الإشارة التى بمنأى عما يصح فى الفهم أن يستهل كلامه متسائلا عن حمزة إلى أين كانت غيبته عن صحابه وكيف لم يودعهم، وتلك حقيقة ما وقع فقد خر صريعا فى معركة الإيمان، إلا أنه لا ينسى ما بينه وبين الرسول ﷺ من قربى فيلتفت إليه قائلا:

يا رسول الله هـــذا حمـــزة	أترى عيـناك منـه المصرعـا؟
إنـه عمـك فانـظـر بطـنـه	كيف شقوه، وعاثـوا فى المعى؟
كبد الفـارس، مـاذا فعلـت؟	أين طاحت من قضى أن تنزعا؟

ثم يلتفت إلى هند ويذكر كيف أنها نذرت لتلوكن كبد حمزة ولتمثلن به أبشع تمثيل، ولقد فعلت، كما أنها جدعت أنفه وقطعت أذنيه وجعلت من ذلك ما يشبه السوار فى يديها. وقلائد فى عنقها. وبذلك بلغت فى قسوتها ووحشيتها المدى، وكانت أسوة لنساء المشركين الذين مثلوا بقتلى المسلمين أبشع تمثيل. ولما خرج ﷺ يتلمس حمزة وجده وقد بقر بطنه ومثل به فلم يكن أوجع لقلبه مما رأى، وقال: "لن أصاب بمثلك، وما وقفت موقفا أغيظ من هذا، رحمة الله عليك كنت فعولا للخيرات. وصولا للرحم"، ثم صلى عليه وعلى إخوانه من الشهداء وأمر بدفنهم.

وهكذا يواكب الشعر التاريخ، ويبدو أحمد محرم شاعرا مؤرخا بكل ما تتسع له الكلمة من معنى. إنه يشبه شعراء الملاحم فى الفارسية وفى طليعتهم الفردوسى الذى نظم تاريخ الفرس فى ستين ألف بيت من الشعر وكانت منظومته المعروفة بالشاهنامة كتاب أدب وتاريخ فى آن. والشاعر يعتمد على الحقيقة التاريخية ويؤيد بها ما يقول من شعر، فقد قيل إن النبى ﷺ رأى فيما يرى النائم كأن بقرا تذبح وفى ذبابة سيفه ثلما، كما رأى أنه أدخل يده فى درع حصينة، كما رأى كبشا، فعبر ﷺ هذه الرؤيا أن البقر ناس من أصحابه يقتلون، وأما الثلم فى سيفه فرجل من أهل بيته يقتل. وأما الدرع الحصينة فالمدينة، أما الكبش فإنه يقتل كبش القوم وهو (طلحة حامل لواء المشركين).

أما المستفاد من هذه الرؤيا فهو اقترانها وإنباؤها بخطب جلل وقد أومأت إلى ما وقع. ولقد شعر به قلب الرسول الطاهر ﷺ مما يدل على ما له من مرموق الخطر وأن مصرع حمزة حدث له الصدارة بين الأحداث التى ماجت بها غزوة أحد.

والشاعر يحدثنا عما أسلفنا ذكره ولكن الشاعر يستطرد إلى معان أخرى يستمدها من مصرع حمزة فترد على خاطره قيم الإسلام ومثله، ويهيب بالمؤمنين أن يأخذوا بها ويكونوا على ذكر منها:

مثل القـوم بـه من بعيهم	ما نهـاهـم دينهـم أو منعا
ليـس للأخـلاق إلا دينـها	يوثر المثلى ويهدى من وعى

وعد الإسلام خيرا من عـفا ... إن حسن العـفـو مما شرعا

يا لريب الدهـر ما أفدحـه ... حـادثا نكـرا ورزءا مفجعا

اذكروا يا قوم من أمجادكـم ... ما نسيتم رب ذكـر نفعـا

وهذه أبيات من المخمس الذى سلف ذكره لا نصبر عن إيرادها لجمـال إيقاعـها واطراد أنغامها ونعدها روعة فى وصف معركة أحد.

سـيوف محمـد أمضـى السيوف ... وأجلـب للمعاطـب والحـتوف

إذا هوت الصفوف على الصفوف ... و أعـرض كل جـبار مخـوف

مضت ملء الوغى عرضا وطولا

أرى السعـدين قـد دلفـا وهذا ... على بالحـسام العضـب لاذا

وحمـزة جـد معتزمـا فمـاذا ... ومن للـقـوم إن أمسـوا جـذاذا

وطـار حماتهـم فمضوا فلولا

وفى الأبـطال فتـيان رقــاق ... بأنفسهـم إلى الهيجـا اشـتياق

لهـم فى الناهضـين لها انـطلاق ... دعـا داعي الجهاد فما أطاقـوا

بدار السلـم مثـوى أو مقـيلا

أعـادهم النبـى إلى العـريـن ... شبـولا سـوف تصلب بعد لين

يضـن بـها إلى أجـل وحـين ... رعـاك الله من سمـح ضنـين

يسوس الأمر يكره أن يعـولا

وفى هـذه الطائفـة من الأبيـات يبـدو الشـاعر ملتزمـا للدقة الدقيقـة فـى مراعـاة وقـوع الأحداث وتسلسلها ويدفع القارئ دفعا إلى مراجعة التاريخ كما راجعه واتكأ إليه واتخذ منه سندا فى كتابه المنظوم من ألفه إلى يائه.

اتفق لرسول الله ﷺ أن عرض جيشه فوجد فيه من الفتيان من لم يبلغوا الخامسة عشرة، فردهم وأجاز رافع بن خديج لما قيل إنه يحسن الرماية، كما أجاز فتى آخر قيل إنه كان قويا صرعه، صارع رافع الذى أجازه النبى ﷺ فغلبه فارتضاه النبى ﷺ مجاهدا مع المسلمين.

وأحمد محرم ينتقل من المخمس إلى غيره فيأتى بسبعة أبيات من قافية واحدة ويختمها بشطر وبذلك يدفع عن القارئ ما قد يعتريه من سأم ثم يعود بعد ذلك إلى المخمس، وهذا

يدلل على أنه يقتدر على النظم فى سهولة ويسر ولا يعجزه أن يتناول أنماط الشعر بالتبديل بين الفينة والفينة. ويحضرنا فى هذا المقام أن شعر الملاحم والقصص فى الفارسية والتركية والأوردية يشعرنا بالملل والسأم فى الأحايين لأنه من نمط واحد وبحر واحد. وما أشبه فى ذلك بالحديث المعاد والحديث المملول، وشاعرنا يصطنع لنفسه فى كتابه هذا منهجا واضح المعالم، فبعد أن يدور كلامه على الغزوة من الغزوات، يجعل عنوانا لأهم ما وقع فيها يندرج تحته قصيدة. وبذا يميز الأهم من المهم ويفرق بين المطلق والمقيد مما يضفى على كتابه صفة كتاب ذى أبواب وفصول.

وفى طائفة من الأبيات تسبق الطائفة الأخيرة يلتفت إلى من حاربوا الله ورسوله ﷺ معبرا بذلك عن المؤمن الموقن الذى يغار على دين الحق.

دعاة اللات والعزى أنيبوا	فليس لصائح منكم مجيب
وليس لكم من الحسنى نصيب	لرب الناس داع لا يخيب
ودين الحق يعرفه اللبيب	وما يخفى الصواب ولا يغيب
لواء ليس يحمله عسيب	عليه من مناياكم رقيب

إن التزامه رويا واحدا فى أشطر شعره يكسبه إيقاعا وتنغيما ويجعله أشبه شيء بخفقات قلب يعمر بالإسلام يعبر عن نفسه فى حماسة دافقة، إنه لم يشر إلى هزيمة المسلمين فى أحد. فقد اشتد عليه أن يذكر ذلك وأشاح عنه كرها كما أنه تحدث فى أكثر من موضع عن نساء المشركين، وفى طليعتهن هند، وما أظهرن من الشماتة بقتلى المسلمين وبين كيف مثلن بهم فى قحة وقسوة ووحشية ولعله اكتفى بذكر هذا عن النساء فكان إشارة لامحة إلى هزيمة المؤمنين.

وبعد غزوة أحد نصادف عدة عناوين على قصائد نختار منها قصيدة بعنوان محمد رسول الله ﷺ. فهذه القصيدة ليست مدحة وكفى، بل فيها تعريف بالجهاد والمهمة التى اضطلع بها ﷺ وهى متصلة بجهاده وكفاحه فى سبيل إنجاحها وقد أيده الله تعالى بالتوفيق:

هذا إمام الدين فى أعلامه	والدين معتصم بنزس إمامه
يحمى حقيقته بقوة بطشه	ويصون بيضته بحد حسامه
شيخ الجهاد يود كل مجاهد	لو كان يدعى فى الوغى بغلامه

عالى اللــواء يقيمــه بحــدوده	ويــين المــأثــور من أحكامــه
المصلحون على الزمان سـيوفـه	وجـنوده فى حربـه وسـلامه
عرفوا الجهــاد به ومنه تعلمــوا	ما صـح من دسـتوره ونظامه
هذا مقام محـمد فـى قـومـه	هل لامرئ فى الدهر متل مقامه
الله أرسـله طبـيبا شـافيا	للعالـم الوحشـى من أسـقامه

والقصيدة طويلة، من الفصاحة فى علو الرتبة، وحسبنا هذه الطائفة من أبياتها المتعلقة بالغزو والجهاد، من حشية أن تغرينا روعتها باختيار أبيات أخرى وبذا نتباعد عن المقام الذى نكتب فيه وهو المغازى. ونتجاوز ما نسميه فصولا من هذا الكتاب على عدة غزوات حتى نبلغ غزوة الخندق.

لما أجلى رسول الله ﷺ بنى النضير ساروا إلى خيبر، وكان بها من اليهود قوم أهل عدد وجلد، وقد اتفق بنو النضير وأهل خيبر – مع قريش لمحاربة الرسول ﷺ، ووافقت قريش على التحالف بقيادة أبى سفيان. ولما علم الرسول ﷺ بخبرهم شاور أصحابه، وأشار عليه سلمان الفارسى بحفر الختدق. وقد استعان النبى ﷺ بأحد المسلمين وهو نعيم بن مسعود ليفرق بين قريش وبين اليهود ويشتت كلمتهم وما كان من تحالفهم، ونجح نعيم فى مهمته[1].

ومهد أحمد محرم بتقدمة تاريخية نقتطف بعض أبياتها لنلتفت إلى أنه استند إلى كتاب الواقدى بل وأورد فى شعره ما أورد هذا المؤرخ فى كتابه:

نزلـوا على الشـورى بأمر نبيهم	يبغـى لأمـته السبيل القويما
قال: انظروا، أنقيم أم نمضى معا	نلقـى العـدو إذا زاد هجـوما
فأجـابه سلـمان: نحـفر خـندقا	كصنيع فارس فى الحروب قديما
حملوا المساحى والمكـاتل ما بهـم	أن يحمـولها أنفـسا وجسـوما

ثم يذكر ما كان من سلمان الفارسى ويشير إلى قول النبى ﷺ : سلمان منا أهل البيت. ويضيف إلى ذلك قوله إن الدين لا يفرق بين عربى وغير عربى، ويستطرد ليخاطب النبى ﷺ بقوله:

---

(١) الواقدى: كتاب المغازى ص ٤٤٠ ح٢ (اكسفورد ١٩٦٦م)

اضرب رسول الله كم من صخرة	لم تألهـا صدعـا ولا تحطيـما
من ليس يبلغ من جبابرة القـوى	ما أنت بالغـه، فليـس ملومـا
بشـر جـنودك بالفـتوح ثـلاثة	تدع العزيز من العروش هضيما
وصـف المدائـن والقصـور لمعشر	مثلتـها صـورا لهـم ورسوما
أبصرتـها في نـور ربك، ما رأت	عيـناك آفاقـا لها ونجـوما

إنه يذكر ما روى عنه ﷺ من أنه رأى قصور فارس وعرف أن الله سوف يفتح فارس على يد المسلمين، ويقول التاريخ كذلك إن كسرى أمر رجلين من اليمن بالرحيل إلى النبى ﷺ ليأتياه به فكـان من قوله ﷺ: إن دينى وسلطانى سيبلغ ملك كسرى وينتهى الخف والحافر[1].

وعلى هذا النحو تتداعى أفكار أحمد محرم فهو لا يغفل قط عن ذكر الحقيقة التاريخية ويوردها مؤرخا شارحا وليس هذا تباعدا منه عن المقام، بل على النقيض من ذلك هذا أوجب ما يكون لكشف الغامض وإضافة مزيد من معارف يخرج بها القارئ وقد تحصل له منها علم غزير وخير كثير.

ويتابع الشاعر كلامه مؤرخا شاعرا تحت عنوان "بعد حفر الخندق" ويذكر ما وقع من أحداث ساهم فيها أعلام من المسلمين ومن المشركين ويشير إلى وقوع القتال بين الفريقين بعد أن غدر اليهود الذين آزروا المشركين ومزقوا الميثاق بينهم وهو صحيفة.

إنه يتهكم بالمشركين ويزرى بأصنامهم وبذلك يشبه بعد الشبه حسان بن ثابت فى مواجهته لهم بالرد عليهم وتسفيه أحلامهم والغض من شأنهم، إنه بمثل هذا يكمل ما بدأ حسان أو يؤيده، ولكن على التفصيل، ويضرب على قالبه ولكن فى توسع. إنه أطول منه نفسا ولا عجب فهو صاحب كتاب مبوب مفصل يؤرخ فيه مغارى الرسول ﷺ، أما حسان فهو يقول شعره بمقتضى الضرورة ويرصد كل ما يستوجب منه أن يكون منافحا بلسانه عن سيد المرسلين ﷺ.

يقول الشاعر:

مضت السيوف، وولت الأرباب	فإلى الهـزيـمة أيـها الأحزاب

---

(١) ابن الأثير: الكامل ص ٨١ ح ٢ (القاهرة).

لا اللات نافعة ولا أخواتها	كل بلاء واقع وعذاب
لا بوركت تلك السيوف، فإنها	لتصيب من أعدائها فتصاب
كل الذى نلتم ونالت من دم	عطب يتاح لكم معا وتباب

وأحمد محرم يحرص الحرص كله على الإيضاح فى كلامه فيمهد بسطور قبل ما يورد من شعر ليفسر ما سوف يقول فى حدث معين، ويستعين على ذلك بذكر أسماء الرجال، وقد يكثر من ذكر الأسماء إلى حد أن يجد القارئ نفسه أمام أحداث يموج بها التاريخ، ويخيل إليه أنه قبالة مؤرخ يتخذ من الشعر أسلوب تعبير. إن الأحداث فى كلامه تمر سراعا وهذا ما يجعل الطابع التاريخى أغلب على كلامه من الطابع الفنى.

ويذكر على بن أبى طالب – كرم الله وجهه – وهو الذى يسميه الفرس فارس الإسلام والحاجة تمس إلى تبيان ما وقع لعلى فى حومة القتال.

اتفق أن من يسمى عمرو بن عبد ود أقبل فى جماعة من أهل الشرك،اقتحموا الخندق بخيولهم، وكان عمرو شيخا بلغ من الكبر عتيا فصاح فيهم قائلا: من يبارز؟ كما أنه جعل يهزأ بالمسلمين ويقول لهم: أين جنتكم التى تزعمون أن من قتل منكم دخلها؟ ورفع عقيرته بأعلى صيحة يقول فيها:

ولقد بححت من النـدا	ء بجمعكم، هل من مبارز؟
إن الشجاعة فى الفتى	والجود من خير الغرائز

فقام إليه على بن أبى طالب وضربه بسيفه على حبل عاتقه فخر صريعا، وكبر المسلمون وقال فى ذلك أحمد محرم:

دفعوا الجياد، وصاح عمرو صيحة	هاج الهزبر لها، وماج الغاب
شيخ قضى فى الغالبين لنفسه	فقضى عليه الأشوس الغلاب
عمرو خذها من على ضربة	هى إن سألت عن الجحيم جواب

وكان الظن بالشاعر أن يطيل شيئا ما فى وصف على بنجدته وبسالته من حيث كونه خواض غمرات ولبث كريهة. ولكن ربما أعجل الشاعر عن قول ما كان حريا بقوله فى هذا المقام بحرصه الملحوظ على تتبع الأحداث وهى تتوالى كموج البحر فما أشار إلى على كرم الله وجهه إلا إشارة لامحة وفى لمحة دالة.

وهنا مجال المقارنة بين هؤلاء الشعراء المحدثين البارودى وشوقى وأحمد محرم، فقد تواردوا ثلاثتهم على صنيع متقارب.

ولكلامنا أن يدور على البارودى الذى انفرد عن صاحبيه بأنه أعلن فى جهارة أن الذى حداه على نظم مدحته العصماء إنما هو رغبته فى أن يجعلها زاد المعاد ويحملها فى أخراه على أنها ما عمل من صالح فى دنياه.

ومما يتأكد به هذا من عزمه أنه ذكر ذلك فى سطور على حدة فى نثر لم يحاول فيه البلاغة، وما ارتكن إلى تزويق ولا تنميق، وكأننا به أراد أن يجلى الحقيقة ولم يرتض أن يعبر عنها فى صدر شعره من خشية أن يصرف الشعر بكناياته واستعاراته والخيال الذى يكون من الممكن أو المحال ولذلك صد عن هذا كله على غير ما كان المتوقع منه.

وهذا ما لم نجده عند شوقى، فنحن لا نعلم عن شوقى أنه خطر له مثل هذا التفكير ولا انعقد له مثل هذا العزم، بل شاء شوقى أن يساجل البوصيرى وكفى، وإن كان ذلك لا ينفى عنه أنه جاء بالمعجب المطرب. وشوقى لم يقصد أن يكون مؤرخا ينقل عن أوسط كتاب فى السيرة النبوية وهو سيرة ابن هشام. أما أحمد محرم فما كان مداحا كالبارودى وشوقى وإنما كانت له صفة المؤرخ بارزة لا شك فيها وإن كنا نتحفظ بعض الشىء إنصافا للحق فنقول إن شوقى نظم قصيدته تذكارا لحج الخديوى عباس حلمى الثانى، ولا عجب فهو شاعر القصر وشاعر مصر، فهو من يسارع إلى تحين كل مناسبة يقول فيها شعرا، فنظمه للقصيدة مما يستوجبه منصبه أولا وبالذات وهو يصرح بذلك فى تقديمها قائلا:(رأى الله لهذا العبد الخاضع، شاعر بيتك الكريم، أن يمشى بنور العلم الفرد المغفور له البوصيرى صاحب القصيدة الشهيرة البردة، فنظمت هذه القصيدة التى أسأل الله وأرجو من رسوله قبولها، وجعلتها يا مولاى لحجتك المبرورة تذكارها[1].

ومن أعجب العجب بما أوردناه من قوله عن نظم قصيدته أنه يؤيدنا فيما ذهبنا إليه وحكمنا به حتى قبل أن نطلع على كلمته، كما أن شوقى يقدم قصيدته إلى مولاه العاهل على حين قدمها البارودى إلى الله، وشتان بين تقديم شوقى وتقديم البارودى، ويلتفت إلى

---

(١) د. نفوسة زكريا سعيد: البارودى، حياته وشعره، ص ٢٢٣ (الإسكندرية ١٩٩٢م)

أحمد محرم فلا نجده مداحا للنبى فى المقام الأول، وإنما مؤرخا لمجد الإسلام، وإنما قدم كتابه ديوان مجد الإسلام إلى الشباب مذكرا بما كان للإسلام من عز تالد فى الزمان الخالى. وترتب على طول قصيدة البارودى أن اضطر إلى إيراد ألفاظ غريبة غير مأنوسة كأنما نقب عنها فى المعاجم، وليس الشأن كذلك عند شوقى. وأحمد محرم كتابه سلسلة من القصائد وهو إذا بدأ بمطلع قافيته ضيقة يضطر إلى الاستمرار فيها إلى بقية القصيدة وإن كان ذلك لا يقع فى كل ما أورد فى كتابه من قصائد.

وأيا ما كان فهؤلاء الشعراء الثلاثة فيما نظموا يتكاملون فى اجتماعهم على ما كان من صنيعهم.

أما ذكرهم لغزوات الرسول ﷺ وهو لب لباب ما يعنينا فى هذا الصدد فنجد أن البارودى ذكر الغزوات مؤرخا لأنه صرح بأنه يضرب على قالب ابن هشام وإن كان يضيف من عندياته ما عن له من أفكار يضمنها كلامه، أما شوقى فاقتصر على أن يقف من الرسول ﷺ موقف المدافع المنافح وحصر كلامه فى دفع مفتريات وأراجيف الملاحد، وكان هذا منه قصاراه فما أرخ ولا عين غزوات بأسمائها ولا أبان عما وقع فيها.

ولكن أحمد محرم يبسط مفصل الكلام فى ذكرها ويعقب فى الأحايين برأى يدلى به مستطردا من الجزئيات إلى الكليات، وله نزعة تعليمية، أى أنه يتلمس موضع العبرة فى الغزوات ليطلع الشباب على ما يريد أن يحثهم عليه ويحيطهم علما به من شأن الإسلام وقيمه ومثله التى يستحب لهم أن يقفوا عند حدودها ويأخذوا بها فى حاضرهم كما أخذ بها سلفهم الصالح فى ماضيهم فصلحت بها أمورهم واستقامت فى دنياهم وأخراهم وسادوا وشادوا ومكن الله لهم فى الأرض ولما ساروا فى نبراس دينهم القويم رضى الله عنهم كما رضوا عنه فكانوا من المفلحين وأتم الله نعمته عليهم فهدوا غيرهم من الأمم وخرجوا بهم من ظلمة الجهالة إلى نور الهداية.

الباب الثانى

الغزوات فى الشعر التركى

الغزوات فى الشعر التركى القديم

عرفنا فيما سبق، إلى أى حد كبير كان تعلق العثمانيين بمحبة رسول الإسلام ﷺ وكانت حجتنا أن سليمان جلبى نظم المولد وأمسى المولد ريحانة العثمانيين منذ نظمه إلى يومنا هذا يتبركون بتلاوته فى مناسبات رسمية وغير رسمية، كما أن الشعراء بعد سليمان جلبى أقبل كثير منهم على نظم مولد تأسيًا به.

ورأينا فى هذا أمارة لا شك فيها على حب الأتراك العثمانيين لسيد المرسلين حبًا لا نبرح عن الحقيقة إذا قلنا إنه يبدو أكثر من حب غيرهم من المسلمين له.

ونرى من الخير فى هذا المقام أن نورد تكملة لما ذهبنا إليه وحكمنا به فنقرن حب بعض سلاطين العثمانيين بحب رعاياهم للرسول الكريم ﷺ لأن هذا فيه تأييد وتوكيد للواقع.

فلما فتح الله القسطنطينية على يد السلطان محمد الفاتح اتفق أن دعا وليًا من أعظم الأولياء يسمى آق شمس الدين إلى مجالسته ذات ليلة، وبعد الصلاة قال له إنه قرأ فى الكتب أن قبر أبى أيوب الأنصارى الصحابى مضيف النبى ﷺ فى تلك المدينة. ورغب إليه أن يدله على موضعه. فقال: "يا مولاى إنى آنس نورا يهبط على بقعة من الأرض، وأحسب أن هذه البقعة موضع قبره رضى الله عنه".

وبعد مدة من الزمن قال للسلطان إنه التقى بروح أبى أيوب الأنصارى التى زفت إليه التهنئة بفتح القسطنطينية، فما كان من السلطان إلا أن وقع الخشوع فى قلبه وانطلق مع الشيخ إلى موضع القبر، وطلب تعيينه ليقيم عليه ضريحًا. ولما كان البدء فى الكشف عن القبر عرف السلطان هزة طرب وراح فى نشوة حالمة فما كاد يتماسك فى وقفته، وأمر بإقامة ضريح لمضيف الرسول ﷺ، وبنى فى تلك البقعة مسجدًا[١].

ولهذا المسجد منزلة عظيمة فى نفوس الترك وحسبنا أن نقول إن سلاطين العثمانيين يتوجون فى هذا المسجد[٢] ولا يسكن هذا الحى إلا دراويش بلغت منهم الشيخوخة وحراس المقابر، وهذا المسجد لا يزوره إلا مسلم وظل الأمر كذلك إلى وقت غير بعيد[٣].

---

(١) طاشكبرى زاده: الشقائق النعمانية على هامش وفيات الأعيان لابن خلكان ص٣٤٦ حـ١ (القاهرة ١٢٩٩هـ).

(2) Loti· Azıyade PP 49 (Panıse).

(3) Monree· Turkey amd Turksn. P176 (London).

وللترك عادة مرعية مألوفة هي أن يفرضوا على صغارهم أول عهدهم بالتعليم أن يمضوا إلى قبر أبى أيوب لزيارته. وهناك يلتمسون البركات والرحمات رافعين أكف الدعاء. ولهم عادة أخرى مع صغارهم تتعلق مع أبى أيوب فإذا عقدوا العزم على ختانهم حملوهم معهم لزيارة قبره[1].

فهذا كله فيه قاطع الدلالة على سمو منزلة هذا الصحابى الجليل عند الترك، سلاطينهم ورعيتهم. وليس يخاف أن هذه المنزلة إنما كانت لهذا الصحابى لأنه كان مضيف النبى ﷺ فكأنها لم تكن لشخصه أولاً وبالذات، بل لصلته بنبى الهدى عليه الصلاة والسلام.

ولقد نظم شاعر منظومة طويلة بعنوان "مناقب أبى أيوب الأنصارى" كما نظمت إحدى الأميرات منظومة أخرى فيها ما فيها من تمجيد لهذا الصحابى وإعلاء من شأنه.

ويمضى بنا مقتضى السياق إلى ما فيه تعزيز لما نريد أن ندلل عليه من شأن هذا الصحابى واعتزاز الأتراك العثمانيين سلاطينهم ورعاياهم بهذا الصحابى الجليل لوثاقة صلته بالنبى ﷺ.

يقول التاريخ إن السلطان أحمد الثالث المتوفى عام ١٧٣٠م حينما أقام جامعة نمى إلى علمه أن حجرًا عليه أثر قدم النبى ﷺ فى ضريح السلطان المملوكى قايتباى فى مصر، وقال له قائل إن هذا الأثر النفيس وجد من قبل عند العرب وهو أليق وأحق ما يكون بجامعه. وكان لهذا من قوله أعمق الأثر فى نفس السلطان، فما صبر أن أرسل من يسمى مراد الرئيس إلى وزير مصر، يطلب إليه إرسال هذا الحجر. ولما حاولوا رفع حجر هذا الأثر من ضريح قايتباى عصفت ريح عاتية، وقصفت الرعد وخطف البرق، فانصرفوا عنه دون أن يحملوه، وعرف السلطان ما وقع، فأصدر أمرًا خاصًا مع أحد رجاله الذين تلوا سورة الأنعام ألف مرة فى ضريح قايتباى. واستطاع مراد الرئيس أن يحمل الحجر إلى الإسكندرية. وبعد سبعة أشهر بلغ الخبر السلطان بوصول هذا الحجر الذى يحمل الأثر فأمر بإرساله إلى جامع أبى أيوب الأنصارى فى القسطنطينية وذلك فى موكب عظيم من الجند.

وما عرف أهل القسطنطينية ذلك حتى قاموا فى مطلع الفجر رجالاً ونساءً وصغارًا وكبارًا لاستقبال الحجر وانطلق السلطان أحمد إلى جامع أبى أيوب فى موكب عظيم ومسح بوجهه أثر قدم النبى ﷺ فى ذلك الحجر.

---

(1) Oguit Eyyurb Sultan S.217 (Istanbul 1957)

كما وضع الحجر على رأسه. وقال هذا البيت: (ما ضر لو جعلت على رأسى كالتاج على الدوام، أثر قدم النبى خير الأنام).

ثم حمله فى موكب كأنه البحر وسلمه نقيب الأشراف.

ولما دخل به القسطنطينية صاح الناس جميعًا من قلب واحد وفى صوت واحد قائلين: شفاعة يا رسول الله[1].

هذا من موقف الأتراك العثمانيين من النبى ﷺ لا شك يفضى بنا إلى النظر فيما قال شعراؤهم خاصًا بسيد المرسلين، وليس من تجاوز الحد قولنا إنهم فى هذا من شأنهم يتقدمون خطوات من غيرهم من المسلمين فى الظن الأغلب.

وأول من نذكر من شعرائهم القدامى الذين اختصوا بذكر المغازى، يازيجى أوغلو محمد المتوفى عام ١٤٥١م وهو صاحب منظومة لها واسع من شهرتها تسمى (المحمدية)، وهى لها شهرتها عند من يداوم على تلاوتها من أهل الأناضول والقرم وقازان وغيرها. وهى طويلة تقع فى قريب من تسعة آلاف ومائة وتسعة عشر بيتا.

ويازيجى أوغلو هذا من أهل الطريقة البيرامية قضى الشطر الأكبر من عمره فى (غاليبولى) وقد نظم الشعر التركى فى شتى فنونه وأنماطه[2].

ويقال عنه إنه كان متضلعا فى شتى علوم الظاهر والباطن، ومن الدليل على شعبية منظومة المحمدية أن شاعرا من شعراء الترك المحدثين هو يحيى كمال كانت أمه تقرأ له من كتاب (المحمدية) فى صغره فكان للمحمدية عميق أثرها فى توجيهه الفكرى بعد أن أصبح شاعرا من شعراء الطليعة[3].

ومن تأثر شعراء الترك بها ما قيل من أن الشاعر حمدى المتوفى عام ١٥٠٨ للميلاد له منظومة بعنوان (أحمدية).

ولشاعر آخر يسمى خاقانى المتوفى ١٦٠٦م منظومة بعنوان (حلية خاقانى) يتلو فيها تلو ما جاء فى المحمدية.

ومن ثم نلحظ أن هذه المحمدية أوجدت فنا خاصا من فنون الشعر طرقه أكثر من شاعر وذلك لأن موضوعه محبب إلى الترك المتقين على تفاوت طبقاتهم.

---

(1) Evliye Colebi, Misir Seyaha Tnamesı, S. S 296-267 Cılt. 9. (Istanbul 1938).
(2) Kemelkaıalioglu Resımlı Tunk Edebiyacıar sozlugu. S. 618 T.sTanbul 1982.
(3) Nı had Samı Banrlı Resımlı Turk edebiyat. Tarıhi C.Ill S. 179 Istanbul 1971

هذه المحمدية على نسق المولد، والمولد منظومة فيها سرد للسيرة النبوية العطرة مع تعبير المسلم عن عاطفة المحبة نحوه. وقد تحركت همته إلى نظمها بناء على ما اطلع عليه فى كتب السيرة النبوية أو لرؤيا رآها.

تبدأ المحمدية بالديباجة التقليدية وهى التوحيد ثم النعت، والسبب الذى حدا بالشاعر إلى تأليف الكتاب، والكلام بعد ذلك فى ذكر الخليقة منذ فجر الدهر مرورًا بالأنبياء الكرام، حتى يبلغ سيد الأنبياء والمرسلين ﷺ. وهو يذكر ولادته ويجرى عليه صفاته كما يصف معراجه وهجرته ومعجزاته وبذلك يكون هذا القدر مما جاء فى المحمدية أشبه بشيء بسيرة نبوية منظومة، وهو فى كلامه يعرج على ذكر زوجات الرسول ﷺ وبعض أصحابه وكل ما يتصل بذلك من طرف، مما يجعل الكتاب متصفًا بكتب السيرة، ويمكن أن نتصور المحمدية قائمة على ثلاثة محاور هى (الخلق، والنبى ﷺ، والقيامة) وهذا ما يجعلها سيرة نبوية ولكن مع فارق هو الرغبة فى بسط القول تفصيلاً أو أن رغبة الشاعر فى نظم سيرة الرسول ﷺ بعثته على أن يصدر هذه السيرة بتاريخ الخلق ويختمها بذكر القيامة.

ويجدر بالملاحظة أن الشاعر كشعراء زمانه يميل إلى التكلف فى التعبير، كما أن منظومته من أوزان وأنماط شعرية مختلفة، فهو مثلا لا ينظم سيرة النبى ﷺ فى بحر واحد هو بحر الرمل كما صنع سليمان جلبى فى مولده وكأنما شاء أن يكون كلامه كلامًا لا يسأم المتلقى من النظر فيه، وإن كان ذلك خروجا على مألوف شعراء التركية والفارسية والأوردية الذين كانت منظوماتهم فى هذا الفن بالغة ما بلغت من طولها فى بحر واحد.

وشعره من الشعر التركى التقليدى الذى تزدحم فيه الألفاظ الفارسية والعربية كما أنه من معانيه ما يستغرق وإن كان ذلك لم يمنع المحمدية من تدريسها فى المدارس. وتلك دلائل يقينية على فرط الاهتمام والاعتزاز بها من قبل الترك للموضوع الذى نظمت فيه، ومما يذكر أنها تتلى كما يتلى مولد سليمان جلبى تبركًا ونيمنًا كما يحتفظ بها فى كثير من بيوت الترك على أنها كتاب دين لا بد أن يكون فى البيت لأن وجوده فيه يجلب البركات والرحمات، ومن الشعراء الذين قلدوها من قلدوا حتى عنوانها فكانت منظوماتهم تحمل اسم أحمدية، محمودية، ومحمدية[1].

---

(1) Nı had Samı Banılı' Resmılı Tuık edebıyat. Tarıhı C Itıl S 179 Istanbul 1971.

ونحن في هذا المقام إنما يعنينا منها ما جاء عن غزوات الرسول ﷺ وما أجدر أن تستأثر هذه الغزوات بنظرة فيها وعناية بها. إنه يعقد فصلا خاصا بها قائما برأسه. وهذا الفصل كبير لأنه مخطوطة المحمدية التي تكرم الأستاذ سعد أبو بكر مدير مكتبة السليمانية باسطنبول بإهداء صورة مخطوطة منها إلى. هذا الفصل يقع في ثلاث وعشرين ورقة. وقد مهد بقوله: (ألق سمعا، يا طول ما فتح الدنيا هذا الرسول، بعد فتحه بحجنه فتح بالسيف المسلول. إنه الدين على العالمين أعلن، فكأنما أظهر نورا في السحاب، عشرين مرة غزا الكفار، في ست وخمسين حرب سحقهم بصحبه الأبرار. في تسع بنفسه على القتال أقدم، وفي بدر هام العدو حطم. في أحد قاتل ولكن أعنف قتال، وفي الخندق إياه رب من عدوه أدال. الرابعة بنو قريظة الخامسة بنو المصطلق، والسادسة خيبر، وفيها إلى عدوه انطلق. والسابعة فتح مكة وفي الثامنة كان له الغلاب، وفيها أحال الكفار إلى كومة من تراب. والتاسعة الطائف وبها في القتال ساهم، وفي التسع حومة الوغى اقتحم)[1].

في هذه الطائفة من الأبيات التي يوردها في صدر ما يذكر عن المغازي يبدو هذا الشاعر تعلبمي النزعة، أي أن غاية مطلوبه منها نزعة تعليمية يحرص كل الحرص عليها، فإنه يبدأ بقوله (ألق سمعا) يرسم لنا صورة لمعلم يريد بمن يعلمه أن يتعلمه منه ما لم يكن يعلم، إنه يجتذبه إلى كلامه الذي يرغب أن يتلقاه منه ويعيه عنه.

---

(١) دكله ابمدى نيحه فتح ايتدى جهانى أول رسول   حجتيله صكره سيفيه بحه فتح ايندى سات

بحه اظهار ايتدى دينى عالمه اظهار ايدوب   نيجه اشراق ايندى اسلامى احوب نوردن سحاب

كندورى ايندى يكرمى بش عز كفار اهله   اللى التى كر جرى كوندردى ايتديلر خراب

اينمه مبشبدى قتال الاطقسوز سرده همين   اولى بدر ابديكم كسدبلر نده حوق رقاب

هم ايكنجيسى احد ديكم قتال اتدى تنى   نالثحى خندق ايدى ايندى انده اكتساب

رابعى نبى قريظه مصطلن بشجيسى   ساد سحى خيبر ايدى كله ايلدى آكا دهاب

سابعنحى فتح مكة سكز نحيسى حسين   كم صلدى كفارى انده برأوج صيحلدى نراب

طفوزنحى طائف ايدى ايلدى انده غزا   بوطقور بردة قتاله ايلمشدى الحذاب

(باريجى أوغلو، محمديه نام كتابى، ورقة ١٤٧ (مخطوط بمكتبة السليمانية باسطنبول)

إنه لا يريد تحسين الكلام ولا التأنق فيه. بل حسبه أن يسمى الغزوات بأسمائها ويذكرها بترتيبها وذلك لترسخ في حفظ من يجلس منه مجلس التلميذ أو من يظر في كلامه وشأنه شأن التلميذ. إن يازيجى أوغلو يذكرنا بمثل هذا من صنيعه بالكثير من شعراء التركية والفارسية الذين نظموا المطولات في شتى العلوم كالنحو، والتصوف وغيرهما وكان غرضهم تعليميا أو تربويا عضا. لذا خلا كلهم من المحسنات وكان حسبهم حشد المعلومات وإن كنا لا ننكر أنه حاول البلاغة شيئا ما كان يشبه نور الإسلام الذى جاء به رسول الله ﷺ العالمين قاطبة بنور البرق إذا خطف في الظلماء. إنه يحرص على الإحصاء والتحديد والتقييد وهذا ما يفرغ على كلامه ذلك الطابع العلمى الذى نشاهده فيه.

ويمتد به السياق إلى قوله إن الرواة حكوا قالوا إن السبب في هذه الغزوة أن حمزة كان ذات يوم سائرا إذ مر به ثلاثة من أهل الشرك وما رأوه حتى بسطوا فيه لسانهم بالثلب والسب، فما كان منه إلا أن استل سيفه وأعمله في ثلاثتهم وقفل راجعا إلى النبي ﷺ وما مسه من ضرر، وما علمت قريش بهذا حتى دخلها شديد الغضب وعزمت على قتال المسلمين.

إن يازيجى أوغلو مؤرخ راوية ينقل عن الرواة ولا يثقل كلامه بشيء من عندياته بل يورد الحقيقة بتمامها. ثم يدخل في التفصيل ويحكى ما وقع كأنما يقص قصة أو يروى خبرا لا يريد أن يخرم منه حرفا واحدا فيقول: إن جبريل عليه السلام نزل على الرسول ﷺ وخبره خبرا هو أن قافلة لقريش عادت من الشام وهو ينبه طالبا إليه أن يأخذ لذلك حذره ويهيئ أمره. ثم ذكر أنه ﷺ خرج في ثلاثمائة من رجاله وثلاثة عشر من صحابته وهذا يرشد إلى أنه يلتزم الدقة كل الدقة في كل ما يذكر، وكأننا به لا يريد إلا حذافير الحقيقة.

ومعلوم أن هذه الصفة التى يستوجبها لكلامه لا تتيح له أن يورد مجازا حتى ولو لتفسير الحقائق. ثم يتحدث عن جبريل ثانية وما يخبره به ويرشده إليه وجبريل في هذا من قوله يسبغ عليه طابعا دينيا ويؤيد أن النبي ﷺ إنما يعمل بناء على ما يوحى إليه إيحاء. وفي مثل هذا جمال معنوى خاص بالروح وليس جمالا حسيا تراه العين.

كما يعقب بعد ذلك على ما جرى بينه وبين أبي بكر وعمر وعثمان وعلى والأنصار مما يستبين منه أن النبي ﷺ كان كذلك يسترشد برأى أصحابه ولا يقطع بأمر دونهم

ولا عجب. فقد قال له المولى عز وجل ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾. إننا نشعر بشيء من السأم أو نكاد لهذا التفصيل، مما يدفعنا دفعا إلى الرغبة في الوقوف على قدرة الشاعر على رسم صور بيانية رائعة للمعركة، تلك المعركة التي لها ما لها من مكانتها وأهميتها.. والشاعر كغيره من شعراء الترك القدامى يتكئ إلى خلفية إسلامية دينية أساسها آيات الذكر الحكيم مستمدا منها حجية لا تحتمل من شك ولا تأويل وهو يتخذ عنوانا من آية قرآنية هي قوله تعالى: ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين ﴾.

إنه يبين بها كيف أن النبي ﷺ استغاث ربه في تلك الشدة فأمده بروح من عنده واستجاب دعاءه لأنه وجد نفسه أمام عدو لا طاقة له به؛ ففئته كثيرة، أما فئة النبي ﷺ فقليلة وهنا تظهر المعجزة وتتدخل القدرة الإلهية ويمده الله بملائكة في صورة بشر ليشد بهم أزره في القتال والنضال، وبذلك يبدو التفاف يازيجي أوغلو إلى جمال الروحانية والمعجزة التي لا يدرك المرء كنهها ولا يسعه إلا أن يقف منها موقف الحيرة والعجب.

وهذا الشاعر يكاد ينفرد بهذا الشعور نحو الغزوات لأن غيره لم يلتفت جديا إلى ذلك الملحظ. وهذا ما يؤيد أنه في منظومته تلك يتلو تلو من ينظمون المولد أي أن ما يذكره الشعراء في المولد ليس مجرد سرد تاريخي للسيرة النبوية وإنما يقرنون ذلك بشعور الشاعر نحو نبي الإسلام ﷺ فهم يناجونه ويرغبون إليه في الشفاعة وما إلى ذلك من تعبير عن عاطفة نحوه وهذا من قبيل تلك الروحانية التي نجدها عند يازيجي أوغلو. ثم يتحدث عن الملائكة التي أرسلها الله تعالى ليشدوا أزر المسلمين في هذه المعركة ويسميهم بأسمائهم، كأن يذكر جبرائيل وميكائيل وعزرائيل وإسرافيل وذكر عدد الملائكة الذين يأتي بهم هؤلاء معهم ليشتركوا في القتال. وبعد أن بين في وضوح أن الملائكة كان لهم النصيب الأوفى في معركة بدر وأن نصر المسلمين فيها كان بفضل الله الذي سخرهم لنصرة المسلمين، وبين أن المسلمين كانوا على الدوام يرفعون أكفهم إلى الله راجين منه أن ينصرهم أخذ في وصف معركة بدر على التفصيل وأكثر ما ذكر من قتلوا من المسلمين ومن المشركين، وهو يشبه غيره ممن نظموا في هذا الصدد وعين الأسماء. إلا أنه يبدو معجلا في وصفهم، فهو يصفهم ويصف قتالهم وقلما يقف وقفة ليعرضهم مقاتلين في صور شعرية معجبة.

إنه يجري دعاء بالنصر على لسانه ﷺ يعقب عليه باستجابة الله له فيقول: رباه أنت المقصود بالسؤال في كل أمر، وفي يد قدرتك الفلك والجنة كما البشر. ما كان لأمرك من صنع، وليس لعلمك قط من جمع.

ثم قال له ذو الجلال أنا فى عونك لا أزال. بالنصر زف البشرى إلى المؤمنين، فقد ألقيت الرعب منك فى قلوب الكافرين. من الكافرين عليك تضريب الأعناق، ولا تأمنهم منك على هامة ولا على ساق. ذلك جزاء وفاق لك من ناصب الله العداء، ومن أراد برسوله إيذاء[1].

فى هذه الأبيات يقصد الشاعر إلى المعنى ولا يلتفت ولا يكاد إلى اللفظ، إنه يريد ليؤكد أن النصر فى هذه الغزوة من عند الله، فبعد أن ذكر أن الله أنزل عليه الملائكة ليحاربوا المشركين معه شاء أن يبين موقفه ﷺ على أنه ليس المحارب البادئ بالعدوان بل المحارب الذى يمتثل لأمر الله، وهذا ملحظ لم يفطن إليه أحد ممن وصفوا المغازى فى شعر لهم. إن الله يبين له أن قتال المشركين حتم عليه لأنه جزاؤهم ولا جزاء غيره لمن كره دين الحق ومن أراد السوء برسول الله ﷺ ويدخل بعد ذلك على وصف المعركة تدور رحاها إلا أنه يكثر من الحوار بين الفريقين طلبا للبراز.

ويمتد به الكلام فى هذا الصدد طويلا، ومما يلحظ أنه يريد كلاما يأخذ بعض المقاتلين من المؤمنين بأطرافه بينهم وهو ينطقهم مريدا الإعظام ببسالتهم ويجعل كلا منهم يذهب بنفسه مباهيا بأنه ليث الكريهة وخواض الغمرات كأن يجرى على لسان حمزة قوله: إن حمزة قدم وقال: أنا أسد الله، ولقد أصبحت كذلك أسد رسول الله ﷺ. وهذا دليل صدق على أنه أراد لحمزة أعظم صفة تجرى على بئيس شجاع، إلا أنه ينسب شجاعته إلى الله بقلوبهم قبل أن يتجهوا إلى المشركين بسيوفهم، فحربهم حرب إيمان قبل أن تكون حرب عدوان كما ينص على أسماء المجاهدين. فيجمع أسماءهم فى بيت واحد كعلى وعبيدة وحمزة مما

---

(1) المسى سكدر هرابشده ديلك ... الكسده ىلك جس وأس وملك
سنكك حكمكه كيمسه مانع دكل ... سنك علمنى كيمسه جانم دكل
سن امر الهدى بونلره ذو الجلالك ... كه بن سيره يااردم ايدم لا يزال
بشارت فيلك نصرى مؤمنلره ... هم القا ايدم خوفى بى ديلره
أورك كافر لرك اعنسافى ... امان ويرمبوب باشى سافى
كيم اللهه هركيم عداوت ايده ... رسولنه حقك شقاوت ايده

يجعلهم على مقصد واحد وهو مجاهدة أعداء الدين ليظفروا بالجزاء الأوفى والأجر العظيم عند رب العالمين.

ثم يصف القتال وصفا ولا يصوره تصويرا أو على التوضيح والتقريب لا يقيم كلامه [illegible] على غير ما كان متوقعا من شاعر مثله فى مثل هذا المقام، فالعهد بشعراء العرب والفرس والترك أنهم يعرضون صورا للمقاتلين يضيفون إليها جهد المستطاع كل ما فى جعبتهم من البديع حتى إنهم إذا أرادوا تفسير الحقيقة بالمجاز لا يبدون مكترثين بهذه الحقيقة بقدر اكتراثهم بالمجاز. فالمعارك فى شعرهم صور كثير. الحركات متباينة الشبات. وهى بذلك تتضمن معنى خصيبا للبلاغة فيازيجى أوغلو يتفرد بالأصالة والبساطة فى وصف المعارك ولا يقول إلا ما يرى رأى العين.

ويمضى فى الكلام ويكثر من قوله قال فلان ولم يقل فلان إلى أن يذكر كيف أن جبريل أمر من أمره بأخذ حفنة من التراب ليقذفها فى وجه العدو فتورده موارد الهلكة فكأنه يعود إلى النص على أن الملائكة حاربوا مع المجاهدين كتفا إلى كتف وبذلك يميز غزوة بدر بأخص خصائصها وهو يؤيد ذلك بالآية الكريمة التى يقول فيها عز من قائل: ﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾. وما يسترعى النظر أنه بعد أن أورد تلك الآية الكريمة ترجم معانيها إلى شعر تركى ترجمة صحيحة وكأنما أراد يازيجى أوغلو فى نزعته التعليمية التى تعرف عنه أن يبين للناس على تفاوتهم فى طبقاتهم وحظهم فى علمهم معنى تلك الآية الكريمة وبذلك يكشف النقاب عن معناها ويزيد المؤمنين إيمانا على إيمانهم ويؤكد لهم أن الله إنما نصر المؤمنين على الكافرين لأنه أمده بجند من عنده.

أما غزوة أحد فيازيجى فيها يطلعنا منه على المؤرخ من الأحداث لأنه يذكرها لا ينقص منها ولا يزيد عليها ولا يحاول أن يعرضها فى صور بيانية فقد ذكر أن ثلاثين من الصحابة استشهدوا أمام الرسول ﷺ ومنهم مصعب بن عمير، ثم ذكر أن من يسمى عبد الله وهو قاتل مصعب رمى النبى بحجر كسر ثنيته وأذاع فى الناس أنه قتله مما أوقع البلبلة فى الصحابة بعد أن انطلت عليهم الحيلة وقالوا ما عسينا أن نصنع وقدم كعب بن مالك ووجد ﷺ جالسا وما رآه حتى انطلق إلى المسلمين وقال أبشروا فإنى وجدته ﷺ حيا. وبذلك عادت الحماسة إلى الصحابة وتحركت فيهم الهمم للقتال. ومسحوا الدم عن وجهه الشريف ورغب إليه الصحابة أن يدعو على من آذوه لأنهم أرادوا به الشر والسوء ولكنه ﷺ قال:

"إنما ارسلنى الحق للعالمين رحمة. فيارب اهد هذه الأمة. منك الهداية إنهم لا يعلمون، فبفضل مىك يهتدون. فتأملوا أى لطف وأى كرم، فقد أراد الجاهلون قتله ودسوا له السم. إنه دعا لهم بخير وأحسن العفو عنهم، هذا من محاسن الشيم"[1].

وهنا يورد يازيجى اوغلو ذكر الحدث على التفصيل، بيد أنه فى هذه المرة لا يتمالك أن يبدى فرط إعجابه بشمائل النبى ﷺ ويبين إلى إحدى حد بعيد كان عفوا فما قابل السيئة بالسيئة بل بالحسنة، وهذا منه ﷺ خلق عظيم. فالشاعر أحسن صنعا بالوقوف وقفة أمام هذا الحادث. فقد عقب عليه بما هو أهله من تعقيب وما وسعه أن يكتفى بذكره أو أن يمر عليه مر النسيم.

ثم يعرض صورة لمصرع حمزة، وهو جريا على عادته لا يجنح إلى التخييل والتمثيل والتنميق والتزويق، بل يذكر ما وقع وكما يشاهد عيانا ويقول إن حمزة بعد أن طعنه وحشى برمحه وأسقطه عن فرسه ومزق جسده سبعين قطعة ولكن الشاعر لا يفوته أن يقول إن حمزة أصبح بمصرعه هذا سعيدا شهيدا لأنه قتل فى سبيل الله. ويضيف إلى ذلك أن النبى ﷺ حينما نمى إليه خبر استشهاده صلى عليه سبعين صلاة بعدد جراحاته السبعين. ثم يعود إلى إيراد الحوار فيقول إن أصحاب النبى ﷺ التفوا حوله بعد ما أشيع عنه أنه قتل ولما سألهم عما حاء بهم قالوا إنهم أدبروا وأحجموا وجاءوا لدرء الشر عن النبى ﷺ وليكون له الفداء. ثم يذكر أن جبريل عليه السلام نزل عليه وأبلغه قوله تعالى:

﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين ﴾.

وبعد أن أن يورد هذه الآية يشرحها الشاعر شعرا بل يكاد يترجمها ترجمة دقيقة مريدا للمتلقى أن يفقه ما جاء فيها. وهذا يؤيد نزعته التعليمية فهو يتحين المناسبة للشرح

---

(١) سى داعى كوسدردى حق رحمة للعالمين — المى هدايت سى قيل قومه فى الامم
كسه ريرا ولبو ىلمىر اسى كيم هدايت مدر — هدايت سن ايت بوىلره فلمه احسانى كسم
رهى لطف وخلق اسى صاحب كمالى كوركم — له جاهللر انى اورر لردى صوىنا رلردى سم
أول املرى عفو ايدوب ايد ردى دعا خير ايله — كسه ريرا كماله اولدر مناسب حكم

والإيضاح وتعليم المتلقين عنه أصولهم وتعاليمهم كما أنه يبدى الرسول ﷺ فى أروع صورة للفدائى. فقد كره لهم أن يشغلوا بحمايته عن مجابهة العدو وهذا ما له دلالته، وبذلك يولد الشاعر الأفكار والمعانى من مجرى الأحداث. وهو إذا انساق فى وصف الأحداث وما أكثرها وأسرعها فى حركتها رأى حتما عليه أن يقف بين الفينة والفينة وقفة ليستشهد بآية قرآنية ملتمسا فيها حجية أو تحين فرصة ليبصر الناس قيم الإسلام ومثله.

ولا يملك يازيجى أوغلو إلا أن يمضى مع الأحداث وكأنما تدفعه أمامها دفعا فلا يستطيع القرار. لقد ذكر كيف أن أبا سفيان وقف على رأس جبل أحد وأهاب بالمشركين أن يثأروا لقتلاهم فى بدر فقال الشعر على لسانه: (ثم صعد أبو سفيان الجبل، وقال يا ابن هبل يا ابن هبل. إنما نحن لبدر نثأر، فاغزهم لا تبق منهم ولا تذر).

ولما بلغ النبى ﷺ هذا الخطاب، أمر عمر فكان منه الجواب، فقال: (الله أعلى وأجل، له الملك عز وجل. إن الجنة لقتلانا هى الثواب، ولقتلاكم فى النار العذاب)[1].

وأهم ملحظ يفرض علينا فرضا أن نلتفت إليه هو أن الشاعر يحرص كل الحرص على أن يعرف بما للغزو من معنى خصيب، كما يجرى على كلام النبى ﷺ وغيره من المجاهدين تعريفا بمبادئ الدين الحنيف وبما للجهاد من مفهوم ينبغى أن يتدبره أولو الألباب.

ولكن هذا الشاعر ما تبين لنا من توخيه الدقة فى ذكر واقع الحال وتسلسل الأحداث يغفل ذكر هند وما كان منها، علما بأنها تشكل عنصرا هاما فى تلك الغزوة وهو عنصر الإثارة، فها هو ذا ابن الأثير يقول عن هند إنها كانت تقول أثناء المعركة التى قتل فيها حمزة عم الرسول ﷺ هذه الأبيات المأثورة التى نكتفى بذكر بعض منها:

---

(١) بنى أبو سفيان چيقوب فوق الجبل ... ديديكم اعلى هبل اوغلى هبل

بردة بدرايچون بيزه انيدك جبرا ... ريمز دولاب كبى دور ايدر عبرا

چون رسول الله ايردى بو خطاب ... امر قيلديكم عمر ويردى جواب

ديديكم الله وار اعلى اجل ... سلطنت انكدر عز وجل

بردن اولن بولنه جنتده ثواب ... سزدن اولن كوره طاموده عذاب

نحـــن بنـــات طـــارق   نمشـــى علـــى النمـــارق
مشـى القطـا البـوارق   والمسـك فـى المفـارق
والدرف فى المحالق
إن تقبلـــوا نعـــانق   ونفـــرش النمـــارق
أو تـــدبـــروا نـــفارق   فـــراق غـــير وامـــق[1]

كما أنه لم يفصح عن أن المسلمين لم يحققوا فى هذه الغزوة النصر المبين على المشركين، ولا ذكر سببا لذلك والسبب معلوم ولكننا نظلم الحقيقة إذا تناسينا أنه ألمح إلى هذا من طرف خفى لأنه أورد قوله تعالى: ﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء﴾.

وإن ذكر أنه مر بشهداء المسلمين وأمر بدفنهم فى دمائهم. ثم نعاهم إلى صحابته وأحسن عزاءهم فيهم.

ويازيجى أوغلو لم يذكر غزوة الخندق وإنما ذكر الحديبية وفتح مكة وغزوة حنين ثم حجة الوداع وبذلك يبلغ النهاية بما ذكر من غزوات الرسول ﷺ فى كتابه (المحمدية). وهذا كل ما وجدناه فى المخطوط الذى بين يدينا من كتاب المحمدية. ويبدو هذا نقصا يجدر إكماله وصدعا يحسن رأبه وهذا ليس علينا بعسير إذا نظرنا فى مجموعة أخرى من الشعر التركى القديم بعنوان (غزوات الرسول) لدرسون فقيه المتوفى ١٣٢٦.

درسون فقيه هذا من العلماء الأعاظم المشاهير فى عهد السلطان عثمان الأول مؤسس الدولة العثمانية. كان صهرا للشيخ اده بالى، وهو من أعلام المشايخ عند العثمانيين ولعله أوسعهم شهرة. كان مريدا لهذا الشيخ جلس منه مجلس المريد وتلقى عنه شتى علوم الدين وبعد وفاته أسند إليه التدريس والفتيا وذاع عنه أنه كان زاهدا عابدا صواما قواما فقيها بكل معنى الكلمة[2]. وتولى إمامة الجند حين يخرجون للجهاد كما أنه كان أول من أم المصلين فى أول صلاة جمعة تقام فى مدينة قره حصار بعد فتحها. وعين إماما لأول مسجد أقيم فيها.

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ص ٤٤، ٤٥ جـ٢ بيروت ١٩٨٧م

(٢) شمس الدين سامى قاموس الأعلام، دوردنجى جلد، ص٣٠٢٠ استنبول ١٣١١هـ

وله منظومة بعنوان (غزوات ناسمة) بمعنى كتاب الغزوات. يصف فيها معركة قلعة المقضى باليمن ويعرج فيه على وصف مغازى الرسول ﷺ، ومجموعته الشعرية في وصف المغازى وديوان شعره مما يعد من بواكير الشعر التركى فى القرن الرابع عشر للميلاد. وقد ترددت أشعاره على ألسنة الناس[1] مما يقوم دليلا على أن لها طابعا دينيا يقع فى النفوس موقعا خاصة فى هذه الحقبة من تاريخ العثمانيين التى شاع فيها بينهم التصوف وتعاليمه وكثر شيوخه.

وشعر درسون فقيه قريب الشبه من شعر يازيجى أوغلو فى السلاسة والبساطة، ونعنى بذلك أنه يقتصد فى استخدام البديع وقلما نقع فى كلامه على صورة بيانية أو عبارة ينمقها، مما فيه الدلالة على أنه إنما أراد بشعره فى الغزوات الإفادة ولم يشأ أن يحسن الكلام ويتباهى بالبلاغة والإبانة. فشعره تعليمى النزعة وهذا ما جعل له السيرورة عند الترك فى زمانه، كما أنه يميل كل الميل إلى سرد الأحداث على التفصيل، ويكثر من ذكر الأسماء، ويورد ما يدور بينها من حوار حريصا بذلك على الواقع متحرزا من الخوض فى شطط الخيال.

وهذا ما يجعل من منظومته تاريخا بتمام المعنى أكثر منه مجموعة من الشعر، إنه كيازيجى أوغلو يتخذ من الشعر أسلوب تعبير ليس غير، وليس له من وراء ذلك مآرب أخرى شأن غيره من الشعراء.

ويميل إلى السرد القصصى وترتيب الأحداث الحدث تلو الآخر من بداية كلامه عن غزوة الخندق. بيد أن أول ما نلحظه عليه أنه لم يذكر أن سلمان الفارسى هو الذى أشار بحفر هذا الخندق، وفاته أن يشير إلى أن النبى ﷺ شاركه فى حفره وبذلك كان فى كلامه فراغ شاعر يجتذب نظر المتلقى عنه، ولكنه التفت فى وعى إلى المعجزة التى تكشف عنها حفر هذا الخندق وهو وجود حجر فيه صلد لما انحطم تحت المعاول أشرق منه نور فقال:

شرع فى حفر الخندق صغيرهم وكبيرهم، ودام يوما أو يومين فى الحفر عملهم. وفى داخل الخندق ظهر حجر، ما لضربه بالحديد فيه أثر. وبذلوا فى تحطيمه ما بذلوا من جهدهم، فما كان منهم سوى عجزهم. ولما طاف هذا الخبر سمعه مضى ليجد حيلة فى صدعه. وضرب بمعول فخر الأنام، فانفصل عنه ثلثه بالتمام. وضرب بالحديد فظهرت من الحجر نار، منها جمل المدينة أنار.

---

(1) Hasan Aksoy Tarih dili ve edebiyatı ansiklopedisi, Cilt 2 s.386, Istanbul 1977

فقال لهم أنه رأى شبه ما فى أحلامهم من قصور الروم، وامتلاكه لها أمر محتوم.

ثم قال لاحت لى صنعاء بتمامها من بعيد، وهى لأمتى بالتأكيد[1].

فشاعرنا الفقيه هذا يأتينا بالحقيقة لا يكاد يضيف إليها شيئا من عندياته أى أنه لم يضف إليها شيئا من شاعريته فما جاء بخيال ولا أورد استعارة ولا كناية ليحسن بها كلامه وبذلك يكون معنيا بالذات بتأريخ ما وقع وكان المؤرخ التبت المحقق الذى لا يزيد ولا ينقص ويرعى الأمانة العلمية.

إنه ليس شاعرا ملحميا كما كان يتبادر إلى الفهم من مثله وهو الذى اطلع ولا بد على شعر الفرس الملحمى، ثم نظم فى معركة ومع ذلك لم يتأس بهم. إنه أجرى على لسان النبى ﷺ تعقيبا على ذكر الحجر وإشراق النور منه رؤيته لأكناف الأرض البعيدة، وقوله وهو الصادق المصدوق إن بلادا بين بعضها وبعضها الآخر من البعد ما بين المشرق والمغرب سوف تكون لأمته وهى خير أمة أخرجت للناس. هذا كله هو الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وليس بقول شاعر بل بقول سيد المرسلين ﷺ ، ثم أضاف يقول على لسانه ﷺ : إن الأرض بأطرافها قد انبسطت له أى للمسلمين وإن أمته سوف يكون لها السلطان فى أكناف الأرض، ثم ذكر أن جبريل عليه السلام هبط عليه وأوعز إليه أن يأخذ قبضة من رمل يلقى بها فى وجه المشركين. ولما فعل ذلك انخلعت قلوبهم رعبا وجرت عيونهم دما. ثم تصدى ثانية لذكر المعجزة ولا يذكر المعجزة ولا يؤمن بها فى

---

(1) اولــو كبجــى حذفــه باشــلادىلر — برايكــى كــون انــدة ايشــى ايشــلادىلر

حيفــدى اول حــدق الجنــده بــر حجــر — كــه او لمــاز اكــا هيــچ آهــن كــاركر

بيحــهكيم حــهد زيــاده قيلديلــر — صمــدى اول طاشــو عــاجز قــالدىلر

جونكــه ايرشــدى رســوله بــو خبــر — واردى كه اول طاشه اول اولــه جــاره كــر

اوردى بــر معــول طاشــه محــر الأنــام — شــويله كــه ايرلــدى طاشــك ثلثــى تمــام

بــور حبفــدى اصلــه طاشــون حــالى نــار — كـــه اولـــدى طبــب طابعـــه اسـدن

ديـدى املـر دوش شـلرى كـــى قصــور — رومـــدن كـــوردم ســمــلر بـــى فصـــور

ديـــدى كورســدى نكــا صعــا تمــام — امتمـــك در قاموســـر بـــى كــــلام

Dursun Fakıh Gazavat I Rasu Lullah. S 199 Istanbul

هذا المقام إلا من عمر قلبه بالإيمان فقال إن ريحا عاتية عصفت فأذرتهم كأنهم غبار أو هشيم، ويتابع وصفه لتلك الريح وما كان من أثرها فى العدو فيقول: إنها عاودت عصفها فاقتلعت دواب الأعداء وخيامهم .. إلى أن يختم كلامه بقوله إنهم منوا بهزيمة ماحقة بلا قتال ولا نزال، وبذلك تحققت المعجزة ونصر الله نبيه وأعز جنده بكيفية تؤخذ منها العبرة ويثبت بها فى القلوب الإيمان. ويأخذنا الشاعر إلى خيبر فيقول: "إن المسلمين بعد أن أدالهم الله من عدوهم انطلقوا إلى خيبر، وغلبوا على واحتها واستولوا على سبعة من صياصيها، ثم ينبرى للقول فى خيبر على أنها غزوة قائمة بذاتها إلا أنه يجعل على بن أبى طالب بطل هذه الغزوة، ويبين كيف أبلى فيها أحسن البلاء وبه نصر الله المسلمين نصرا عزيزا.

ويبدو شديد الإعجاب بعلى فى صولاته وجولاته، وبذلك يذكرنا بكل ما عرف من ألقابه عند الفرس فهم يسمونه (شه سوارى اسلام، بمعنى فارس الإسلام، وشيرخدا، أى أسد الله، وشير مردان، أى أسد الرجال).

ونتنقل معه إلى خيبر لنتعرف ما قاله عن على، ونلحظ أنه كان منصب الاهتمام عليه فى وصفه لتلك المعركة على أنه هو فارسها المظفر.

إنه فى وصفه لمعركة خيبر يطرق موضوعا واحدا من خلال صور متتابعة لشخصية واحدة هى شخصية على بن أبى طالب كرم الله وجهه وبذلك نجد التفاوت بينه وبين يازيجى اوغلو فى ذكره لعدة شخصيات، وبذلك يجعل من غزوة خيبر صورة واضحة المعالم لهذا الفارس المغوار فهو القائل: (وعلى حينما من باب خيبر اقترب، اسمع ماذا صنع من عجب. أمسك بالباب وأداره، فأعدمه فى القلعة قراره. ضرب الباب ضربة بقبضته، فخلعه من عتبته. حمل الباب وبه انطلق، إلى خير من ربه خلق. إنما كان ذلك بفضل من الرحمن ولم يكن بقدرة لإنسان. وكبر الصحابة لذلك بعد أن تحققوا، وإلى داخل القلعة تدفقوا)[1].

---

(١) أشيد ابمدى ايشلن اسده حيدرك | يايشوبى قوسمه خيمرك
قبوسى شول لحظه كسم دور ايلدى | تلسم ايدوب قلعه دن دور ايلدى
جون الن اشنكبه اوروب حكمدى اول | قبو يى اشكبك بره ديكدى
يردن الوب اشنكيه يى كونر دى اول | مس وسو لسك قانه كسردى اول
ديدى بواش قوه اللاهوتله | اولدى صامه قوة ناسوتله
اشو حالى حون صحابه كور ديلر | قلعة يه تكبير ايدوب كيرديلر

إن شاعرنا لم يجنح إلى ما يعرف بالتمثيل البرهانى الذى نعهده عند شعراء الترك والفرس وشبه القارة الهندية، كما أنه عطل كلامه من حلى البديع وقدم إلى الساحة الحقيقة لا يطرح منها ولا يضيف إليها، وفى هذا دلالة على أنه شاء أن يكون راوية يصدق المتلقى عنه ما يقول. إنه قد يذكرنا بالمؤلفين فى النحو والعروض وغيرهما من العلوم إذا نظموا المنظومات الطويلة فى علم من العلوم، وبذلك يكون استيعابه على من ينظر فيه هو الاستيعاب الأيسر. بيد أنه شاء ضمنا للمتلقى عنه أن يستوثق قبل أن يصدق أى أنه أراد له أن يوقن بأن ذلك إنما كان نصرا من عند الله وأن يؤمن فى جزم ويقين بمعجزات سيد المرسلين فى غزواته التى كان النصر له فيها من عند الله.

بعد إذ عرفنا قول هذا الشعر عن غزوة خيبر وما وقع فيها من أمر على كرم الله وجهه يقضى الحق أن نطلب المزيد ونحن نتلقاه من التاريخ والشعر فى آن واحد.

فأخبار على وصفاته ترشد إلى قوة جسدية خارجة عن المألوف. فربما رفع الفارس عن فرسه وطرحه أرضا دون جهد يبذله كما قيل إنه كان يمسك بذراع الرجل، فكأنه أمسك بنفسه فيعجز عن التنفس، وما صارع أحدا إلا صرعه ولا بارز أحدا إلا قتله، وذاع له بذلك صيت بعيد، يزحزح الحجر بالغا ما بلغ من ضخامته ولا يزحزحه رجال، كما أنه يحمل الباب الكبير يحمى بقلبه الأشداء ويصيح الصيحة فتنخلع القلوب رعبا[1].

وهذا شاعر معاصر هو بولس سلامة يقول فى منظومة له (باسم عيد الغدير):

ومشى حيدر يروم هصورا	يلتوى الأخشبان قبل التوائه
أيها النسر، دونه كل نسر	ليس غير النجوم فى أجوائه[2]

وحسبنا هذان البيتان اللذان يصف فيهما عليا كرم الله وجهه بالشجاعة البالغة فى شاعرية دافقة يتفنن فيها متخيلا، وبذلك يفترق عن الشاعر التركى الذى ذكر الحقيقة عارية عن الزينة. إنه يهيم فى الخيال ويبالغ فيه على أن المبالغة تدرك على أنها مبالغة، وهى تبرز المعنى وتؤكده وتؤيده. وننتقل إلى الشعر الفارسى لنجد من شعراء الفرس من يتعرضون لوصف على بكل جميل ويهتمون كل اهتمام بإبراز أخص صفاته، وفى طليعتها قوته

---

(١) العقاد: عبقرية الإمام ص٧ القاهرة ١٩٨٧م.

(٢) د. سعد الدين الجيزاوى: الملحمة فى الشعر العربى ٨٢ (القاهرة ١٩٦٧م).

وشجاعته، فمنهم من يقول عنه (إنه مظهر لكل الأعاجيب ومنهم من يقول إنه يسير حسا إلى تبوك ولكن سيره إلى المعنوى الروحى مضى من يثرب إلى الثريا. وقال القائل إنه حيدر الصنديد قاتل خيبر، فاتح خيبر، السيد الغلاب أمير المؤمنين)[1].

فهذا الشاعر ينص على أن عليا قتل يهوديا اسمه عنبر، ويعد شاهدا على أنه ذلك الشجاع الذى يجندل البواسل إضافة إلى ما أسبغ عليه من صفات إلا أنه لا يجنح إلى التخيل والتمثيل.

وهذا ثالث يقول (يا طالما من سيفه فى صحراء خيبر، من دم الكافر نبت الورد الأحمر)[2] فهذا الشاعر يتخيل ويعرض علينا من خياله الإبداعى صورة تقع موقعها فى النفس، ومن ثم نلحظ الفارق بين هؤلاء الشعراء الفرس وبين الشاعر التركى دورسون فقيه.

---

(١) حيدر صفدر شه عمركش خيبر كشاى   سرور غالب سر مدان أمير المؤمنين وحش نافقى: ديوان وحشى نافقى ص ٢١ تهران.

(٢) بسكه دردشت خيرار تيغش   رست اركل رحون كافر كل
نظيرى نيشابورى: ديوان نظيرى نيشابورى ص ٢٥ تهران

الفصل الثاني

في الشعر التركي الحديث

من الخير أن نصدر كلامنا في هذا الفصل بتمهيد نشير فيه إلى أن حركة الإصلاح الإسلامي ظهرت في تركيا وشاء روادها أن يصلحوا الدنيا بالدين وأن يتخذوا الدين الإسلامي منهج حياة.

وإذا عدنا إلى بدايتها ألفينا أنه في ١٨٧٠م ارتحل الداعية الإسلامي جمال الدين الأفغاني إلى تركيا فأكرم السلطان عبد الحميد وفادته. واقتنع السلطان اقتناعا جازما بمبادئه ومثله، وبلغ منه الإعجاب مبلغه بحكمته وحنكته، ورغب إليه السلطان عبد الحميد أن يشكل اتحادا قويا بين الشعوب الإسلامية حتى يمكن إيجاد وحدة فيها التعاون والتآلف والتضامن بين شعوب المسلمين قاطبة، واستجاب جمال الدين الأفغاني لرأي السلطان، وانصاع لأمره فقطع على نفسه عهدا بصرف كل همته إلى تحقيق هذا الأمل وبذل المسعى في سبيله. وكان لجمال الدين الأفغاني الفضل في تخريج طائفة من مريديه الأتراك عليه الذين كانوا يجلسون منه مجلس التلميذ يسمعون منه ويأخذون عنه وفي طليعتهم الشاعر التركي محمد أمين الذي لزمه ولم ينقطع عنه وتأثر به تأثرا مباشرا بخاصة في منظومة نظمها في حرب اليونان. وقد وقعت هذه المنظومة التركية موقع الإعجاب في نفس جمال الدين الأفغاني وأوصى غيره من تلاميذه أن يسيروا في خطاه ويأخذوا أخذه[1] في تذكير الأتراك بما كان لهم من مجد وعز في ماضي الزمان وهم يعيشون في ظلال الدين الحنيف، ويقفون عند حدوده ويذودون عن حماه، وكثر مريدو الشيخ، ومن هؤلاء المريدين محمد عاكف المتوفى عام ١٩٣٨م والذي يعرف في تركيا بشاعر الإسلام.

ففي دواوينه السبعة التي تعرف بصفحات حض على التخلق بأخلاق القرآن والاستمساك بأصول الدين الحنيف. ومما يلحظ أن شعره سهل المأخذ معناه في ظاهر لفظه

---

(1) Yazar, Edebıyatcımız Ve Tur Turk Edebiyatı S244 (Istanbul 1939)

لأنه يخلو من رموز التصوف وشطحاته مما يجعله فى مستوى الإفهام على أوسع نطاق. وهذا ما جعل منه داعية إسلاميا بالمعنى الحق.

وهو فى عموم شعره يسمو بالخلق ومستوى المجتمع متكئا فى ذلك إلى أصول الدين الحنيف، ويدعو إلى تشكيل وحدة إسلامية بين المسلمين فى المشارق والمغارب ويوقفهم فى صف واحد مواجهين عدوهم، وله الرأى والرغبة فى إقامة حضارة إسلامية بكل ما تمتاز به من خصائص وملامح وسمات.

وحسبنا هذا من تمهيد نفهم على أساس منه ونهتدى به فى طريق نسلكه إلى غاية هى التنبيه إلى أن شعراء الترك فى اليوم الحاضر من تبعوا عاكفا فى مسيرته وضربوا على قالبه وتأسوا به فى منهجه الإسلامى، فاختاروا مثله الإسلامية وجعلوا شعرهم ما ينطق عنهم، ومن حيث كنا فى كتابنا هذا إنما ندرس ما قال الشعراء من قدماء ومحدثين فى الغزوات كان حريا بنا أن نلتفت إلى بعض شعراء الترك المعايشين الذين أوردوا الغزوات فى أشعارهم وأن نعرف من يكونون وماذا هم يقولون. أما هؤلاء الشعراء ففى طليعتهم نجيب فاضل المتوفى عام ١٩٤٨م، وهو لأسرة لها حيثيتها العلمية والاجتماعية لأن أباه كان رجل قانون كما كان جده كذلك قانونيا ضليعا، وكان جده إلى ذلك رجلا من أهل التقوى، وبسط رعايته على حفيده الذى كان يحبه حبا جما، وحبب إليه أن ينظر فى القرآن نظرة تأمل وتدبر، فعمل نجيب بوصية جده وما كان يسعه أن يخالف له أمرا، ومعلوم أن الجد إذا طلب شيئا إلى حفيده أو كلفه به فلابد أن يكون ما يعمله ذا أثر فى قرارة نفسه، ومن ثم ندرك كيف اتجه نجيب فاضل فى بدايته الأولى إلى النظر فى كتاب الله المبين. وغير شك أن ذلك كان باعثا قويا بعثه على أن يكون فى شعره من شعراء الترك المحدثين الذين امتازوا بنزعتهم الإسلامية، ولكن الفتى لم يقتصر على التربية الدينية وحدها بل قرنها بتربية عصرية فى الكلية الأمريكية، تم فى الكلية الفرنسية، ثم التحق بقسم الفلسفة فى دار الفنون فى تركيا، وارتحل إلى فرنسا ليدرس الفلسفة فيها[1]. وبذلك يكون نجيب فاضل قد جمع بين الحسنيين وتأتى له بناء على دراسته أن يتفهم الدين الحنيف.

---

(١) د. عزة الصاوى: الاتجاه الإسلامى فى أدب نجيب فاضل ص٤ رسالة دكتوراه قدمت إلى جامعة عين شمس ١٩٨٣م.

أما تراثه الأدبى فهو جد غزير ولا نلقى بالا فى هذا الصدد إلا إلى شعره. فله سبعة دواوين. أما كتبه الفلسفية ومسرحياته فتخرج عن المقام الذى نحن فيه ومن مجموعته الشعرية مجموعة تحت عنوان (السلام) وفيها يدور كلام الشاعر عن سيرة الرسول ﷺ منذ عام الفيل حتى حجة الوداع. وهو فى ذلك يشبه البارودى الذى نظم السيرة النبوية فى الفترة التى تقع بين مولده فى عام الفيل ووفاته بعد حجة الوداع فى نفس العام.

وقد نظم منظومات من مجموعته هذه آن سجنه عام ١٩٦١م واستكملها عام ١٩٧٢م، وقد شاء نجيب فاضل أن يجعل من شعره فى هذه المجموعة أول مجموعة شعرية فى الشعر التركى المعاصر تجرى عليها صفات الملحمة، كما عقد أمله بأن يدور هذا الشعر فى أفواه الناس على تفاوتهم فى ثقافتهم، وفى هذا دليل أكيد على أنه شاء له السيرورة التى هو أجدر بها لأنه فى سيرة النبى ﷺ ولأن هذه السيرة مما ينبغى أن يعرفه الناس قاطبة، فهو يريد أن يذيع شعره الإسلامى هذا على أنه داعية إسلامى، وهو يختلف بعض الشىء عن محمد عاكف مثلا الذى ربما كانت له نفس الرغبة إلا أنه لم يفكر فى إذاعة شعره بهذه الكيفية على أن يذكر الناس بسيرة نبيهم ووجوب النظر فيها وأخذ العبرة منها، وإنما قال شعره الإسلامى فى شمول ولم يتجه فيه إلى العوام أو أشباههم، بل إن لغته كانت فى مستوى لا يبلغه إلا من اتسع فى العلم باعهم ورسخت فيه قدمهم.

ونجيب فاضل يعبر عن عاطفته نحو الرسول ﷺ، ويتوجع ويتفجع لما أصابه من أذى المشركين، مما ينهض برهانا قاطعا على أنه فى سرده للسيرة النبوية وما سوف نعرف من قوله فى حوادثها لم يكن مؤرخا ليس غير، بل كان معبرا عن محبة التركى المؤمن الموقن لسيد الخلق ﷺ . وفى هذا يقول:

(يا لها معجزة جاء بها من إيمانه الطاهر، إلا أنهم قالوا يا له من مجنون شاعر، فى فناء الكعبة وهو ساجد فى صلاة ألقى الجيف على ظهره من قلاه)[1].

والكلام بعد ذلك على قوله فى الغزوات، وهو فى كلامه عنها لا يقتصر على ذكر الحقيقة التاريخية شأن المؤرخ الذى يكره لنفسه أن يتباعد عن الواقع مخافة أن يقال عنه إنه

---

(١) حالصلك معجزة سى ايماندن يوف بوبله كن . ديديلر بو برشاعر . بر سحر يبار . بر مجنون كعبه نك حولو سده .. ناماز سجده ده كن

صوقللدبلر صير نه برلشى قوبدلر اوىك

حجب من الحقيقة شيئا أو قال شيئا على غير صواب. إنه منفعل كمؤمن يقول ويصف ما يصف إلا أنه لا يملك كتمانا لعاطفته الإنسانية وحميته الإسلامية. إنه يصف هذه المعركة وصفا خاصا يعبر فيه عن رأى وفكر كما يعبر عن عاطفة وعن شعور بالفخر، ونعنى به أنه يفخر بتلك المعركة لأنها كانت نصرا مبينا للمسلمين، كما أنها رفعت عنهم ما كانوا يكابدون ويعانون فى صلتهم بالمشركين. لقد رأى أن موقف المشركين من المؤمنين مما يجرح كبرياء أهل لا إله إلا الله ويعبر عن نشوة فرحه بهذا الكرب الذى نفس عنهم بالنصر وعن ذلك الصغار الذى دفعه عنهم الانتصار.

(أعظم بها إنها ببدر تشتهر، ما رأى لها من نظير فى الجهاد بشر، ولو صغرت فإنها بغزوة الدعوة كرمت، يا لها السيف الذى سل أول ما سل والرحمة التى أشرقت، فى سيفها كرامة جرحت، فى بدر حشود الكفار أصبحت هباء منثورا، وبدر أول عمود يشدخ رأسا كسيرا)[1].

ويسترعى نظرنا قول الشاعر إن بدرا كانت أول ضربة للعمود على هامة الكفر، لأنه يلفتنا إلى تأثره بأبطال الفرس المغاوير المذكورين فى شاهنامة الفردوسى والعمود من أهم أسلحتهم. فنحن لا نذكر أننا وقعنا على العمود سلاحا للعرب فى غزواته ﷺ. فلم يبق إلا أن يكون هذا سلاحا فارسيا وليس بعربى، إننا نجد ذكرا للعمود فى خبر للخليفة أبى العباس السفاح. قيل إن سبعين رجلا من بنى أمية كانوا جلوسا عنده على الطعام ودخل شاعر عليه وأنشده شعرا أسخطه على بنى أمية وحذره منهم، فأمر بهم السفاح فضربوا بالعمد وبسطت النطوع عليهم وجلس فوقهم فأكل الطعام وهو يسمع أنين بعضهم.

هذه معلومة متعارفة لدى كل من قرأ شيئا من تاريخ العباسيين، وليس من قبيل الإطناب الذى يعنى عنه الإيجاز أن نوردها، لأن عليها التعويل فيما نذهب إليه. فالدولة العباسية هى تلك الدولة التى يسميها بعض العلماء الدولة الساسانية الثانية، وما ذاك إلا لأن العرب فى العصر العباسى أخذوا كل الأخذ بمظاهر الحضارة الفارسية فيترتب على ذلك أن يكون العمود من الأسلحة التى عرفوها عن الفرس.

---

(١) اسمى فوجه مان بدر .. الى وفالى بدر . بدره الله جنكنده اشسز محاربه در .... بدركوجوك جنكه . اما بودعونك عروه سى ابلك حكيلن قلج كله .. بريل بريل مرحمت بدرك قليجنده در احبده كى كرامت . مغرور صفلرى كمركك .. بدر طور بور اولدى بدر كمرك باشسنه .. ابتى طوبور اولدى.

وأنا حين أتمثل هؤلاء الأمويين وقد ضربت رؤوسهم بالعمد وتم القضاء بذلك عليهم ومن ثم على قيام قائمة لدولتهم، أتخيل ما ذكره نجيب فاضل فى قوله: (إن معركة بدر كانت أول عمود هوى على رؤوس المشركين)، وأرى فى ذلك صورة وفق كل التوفيق فى عرضها علينا لأن التشبيه أقرب ما يكون إلى الواقع. ولقد شاء أن يقول إن المشركين ذهب أمرهم سدى وكانت هذه المعركة ممحقة لهم وهذا يشبه ما وقع لأولئك الأمويين الذين هوت على رؤوسهم عمد الخليفة أبى العباس السفاح فقضت عليهم وأذهبت ملكهم أدراج الرياح.

ويمتد السياق بالشاعر الذى يتحدث عن بدر ناطقا عن عقله وروحه فهو لا يغالى فى الخيال لأن الخيال إذا زاد عن الحد أضحى كلاما لا يستقيم فى الفهم. وقد عرفنا عن نجيب فاضل أنه ذو ثقافة قانونية والقانونى يلتزم حدود المنطق ويرتب النتيجة على المقدمة، كما أنه شاعر والشاعر لا بد أن يكون له شعور خاص به ورؤية لا يستطيع لها كتمانا، كما عرفنا أنه ذو ثقافة دينية روحية. لقد ألف فى التصوف، وعرف الرمز والإيماء، وأدرك من التصوف أنه فى مفهومه الصحيح أوج التقوى، كما أنه إلى كل ذلك بليغ ملتزم لأنه إنما نظم فى السيرة النبوية الشريفة ليظهر الأتراك جميعا على حقيقتها، واختار المعنى القوى والمبنى السلس الواضح. إنه يصدقنا القول عن بدر بقوله:

(صفات فى الروح مختلفان فى النسب مؤتلفان، خرج الابن أمام أبيه والأخ أمام أخيه، فى بدر تعلما كيف يتحدان فى أرومتهما، وحد الإسلام فى لون واحد كل الألوان، ففيه اثنان لا يتفاوتان، إنه ثورة دين جديد على عهد عهيد).

إنه مذكرنا بما سبقت لنا معرفته مما وقع بين أبى بكر وابنه، وبين أخ وأخيه. وبذلك يلتزم الحقيقة بحذافيرها ويبين كيف أن الإسلام سوى بين من كانا يختلفان فى الرأى وإن كانا لا يختلفان فى النسب والقربى.

إنه مبدأ إسلامى مثالى. فالإسلام دين المساواة والمساواة هى التى تقيم سدا منيعا بين الكراهية والمودة، فإذا ما كان الناس على مذهب واحد ورأى واحد صلحت أحوالهم. وما وجد بينهم من سبب يدفع إلى النزاع والتخاصم، إنه يشيد بالإسلام كدين تبدل به الناس بأمن من خوف فاجتمعت قلوبهم على التواد والتراحم، وعد ذلك ثورة إنسانية لأن مفهوم الثورة هو التغير من حال إلى حال فغير الحال من سيئ إلى ما هو الأحسن.

إن الشاعر يناطق العقول ولا يركن إلى ما يعرف بالتمثيل البياني أي المبالغة في والتباعد عن الواقع ومحاولة شرح بعض الحقائق بالمجاز. وهذا الصنيع قد يوفق فيه بع ولكن لا يوفقون فيه كلهم، لأن الخيال طالما تباعد عن الواقع مما قد يفضي إلى عد الكلام على محمل الجد. وإذا كان هذا من داعية أو ناصح أو واعظ فلا شك في أنه من أنه يفوت عليه بلوغ غايته. وقد لا يعينه على النجاح في مهمته.

ويعجبني عرضه صورة للمعركة وهي دائرة الرحى حامية الوطيس بقوله:

(وعن بدر كان للمسافرين انطلاق، في الريح تسمع لهم أصداءهم من الأ للخيول صهيل لا لسهام صفير وللتكبير هدير[١]).

إنه يجعلنا نتمثل المحاربين مسافرين وهذا له مغزاه الذي نتمثله فهم ماضون لطي غاية أنعم بها من غاية، إنهم يريدون السفر، أي المضي من عالم الفناء إلى عالم ومنيتهم أن يكونوا شهداء. هذا ما ندركه من سفرتهم تلك. إنه يصفهم بتوقد ح والثبات على عقيدتهم لأنه يصعد منهم أصواتهم بالتكبير، ويجعله مثل الهدير، وينا وبين صهيل خيولهم وصفير سهامهم. إن الصوت قد يكون أبلغ تعبيرا من الحركة، بوصف الجياد وهي تعدو ملأ حروجها في تقدمها، بل يكاد ينطقها بصهيلها لية صوت المهللين المكبرين في غزوة الإيمان.

إن الشاعر صدوق اللسان في كل ما قال، فما ذكر كلاما فوق المستحيل، وهذا البرهان على أنه جعل شعره على وفق الغرض الذي التزمه وهو أن يجعل منه كلاما الناس على تفاوتهم في ثقافتهم، وإنما يريد هدايتهم إلى الدين القويم.

ونظم نجيب فاضل كذلك في غزوة الخندق التي تعرف كذلك بغزوة الأحزاب قوله فيها:

(إنما الأحزاب اسمها، والخندق اسم سواه لها، إنها آخر ضربة نزلت بالكفار، لل سوء العذاب والخسار)[٢].

---

(١) حالا كجن يولجـو لر بدر ده جـــنك يرسد.
روزكـــار سلر دويـــار درندن مي ديريدن
آت كيشنر اوق وير للر تكبير صداسي كورلر

(٢) اسمـــى، حزبلـــر احـــزاب　　　برياشـــغه اوى حـــــدق
كمرك صوك ورد عكى نـوص　　　كمـــره حـــسران وعـداب

إنه لا يبسط قوله فى وصفها تفصيلا وكان المتوقع منه أن يشير ولو من بعيد إلى ما كان من حفر الخندق إشارة من سلمان الفارسى، فعهدنا بمعظم من ذكروا غزوة الخندق أنهم ذكروه وعرفوا ذلك من فضله وأيدوا أن مشورته كانت سببا فى نصر المؤمنين. ولنا أن نقول فى عجب منه إنه لم يذكر أنه ﷺ اشترك فى حفر الخندق، وإنما اكتفى بذكر نصر المسلمين.

والظن أنه كان لا يلقى بالا إلى الوصف المفصل وربما عده حشوا أو إطنابا للقارئ غنية عنه، وأراد أن يتغنى بمجد المسلمين وذلك قصاراه.

وثمة سؤال طارح نفسه، فمبلغ علمى أنه لم يذكر غزوة أحد، وفى تعليل ذلك أقول ولو متظننا: إنه كره لنفسه أن يذكر تلك الغزوة لأن الدائرة دارت فيها على المسلمين بسبب من حماقة فتيانهم، فما وجد داعية لذكر ذلك، وهو إنما يمجد المؤمنين ويذكرهم بكل جميل ولا يريد إلا أن يكون مادحا لا مجرد مؤرخ يذكر كل شيء دون أن ينبه إلى التميز بين ما يقال وما لا يقال.

لقد أشد عليه واستبشع ما وقع لحمزة والذى قتل أخس قتلة على يد عبد لهند تلك المرأة التى استخرجت كبده ولاكتها وكان ذلك منها وحشية بشعة يقذذ منها ضمير الإنسانية ولتصورها تنفطر القلوب وتعلو الرعدة حتى أجساد الشجعان.

كان شاعرنا على الحق والصواب فى هذا وأثبت بالدليل القاطع أنه مرهف الحس سليم الذوق كما أنه متفكر يعرف مواقع الكلام فى هذا الشعر الذى يتجه به إلى غرض معلوم.

ومن بعد نقع على قوله فى غزوة حنين، وفى كلامه نبرة جهورية فيها كل الدلالة على أنه فخور تياه بما يسر الله للمؤمنين من نصر على الكافرين. إنه قبل ذلك يمتدح الرسول ﷺ ويعزو إليه الفضل فى ذلك النصر المبين وما كان هذا النصر إلا لإيمانه الراسخ وحبه الجم لمن اصطفاه حبيبا ورسولا فأكرمه والمؤمنين بنصر ربما لم يكن ورد لهم على بال. وبين كيف أن المشركين لم تعد لهم طاقة بقتال المؤمنين فتبددت جموعهم وما قدموا إلا ليحجموا. إنه يريد تعليلا لانتصار المؤمنين وانكسار الكافرين فعزا ذلك إلى تكاتفهم وتآلفهم على وفق ما أمرهم به دينهم الحنيف. وهنا نتبين بأتم وضوح أن الشاعر لا يكتفى بسرد الأحداث وليس ظاهر الميل إلى وصف القتال فى تفصيل، وإنما يتحين كل نهزة ليشير إلى مزايا دين

الله، وكيف أن الله ينصر عباده المؤمنين كرامة لنبيهم سيد المرسلين. إنه يريد ليقنع القارئ بما ينبغي أن يعلم عن حقيقة دينه وهو يشير إلى الحقيقة ولا يوشيها بالبديع، ذلك البديع الذى طالما سترها كما أنه يتفكر وكلامه آخذ بعضه برقاب بعض، ويتكئ فى ذلك إلى خلفيته الدينية والقانونية والفلسفية، وبذلك يقتنع من يتلقى عنه بكل ما قال فى جزم ويقين. وهو فى شعره هذا لا يشبه الشعراء المعاصرين فى ميلهم إلى المعانى المجردة والمجاز الذى يناقض ويكذب الحقيقة، وهذا فضل له لا يجحد فى هذه الطائفة من الأبيات:

(شعور واحد، كلمة لا سواها الإسلام لا ينهزم، يالها من عظمة بفضل الرسول هادى الأمم، ما من أحد لم يعلم ما يجرى به قضاء الله، إنما الحكمة فى حنين ما نراه، من ضربة واحدة امحى العدو من الوجود، وكسره إلى غرته تعود، مضى وارمى وتجمع ثم انسحب، وحده الرسول الحرب كسب)[1].

أما ما ذكره نجيب فاضل عن فتح مكة فهو ما ينبغى أن يذكر فى يوم فتح لأنه كان نصرا مبينا ما فى ذلك ريب، وهذا النصر لم يعقب حربا ضروسا وإنما تقدمته بعض مناوشات كان لا بد منها، وبذلك يقوم البرهان على أن النبى ﷺ لم يكن يضع السيف فى موضع لا حاجة فيه إلى وضعه.

ولإيضاح ذلك نجمل القول فى الكيفية التى دخل بها الرسول ﷺ مكة. بعد صلح الحديبية اعتدت قبيلة بنى بكر من أحلاف مكة على قبيلة خزاعة من أحلاف الرسول ﷺ ورفدتهم قريش بالسلاح، ثم قاتلوا معهم، ودام قتالهم حتى انحازوا إلى البيت، وكان لزاما أن يتأثموا من القتال فى بيت الله الذى جعله الله مثابة للناس وحرما آمنا. ولكنهم قاتلوا. ونكث العهد بنو بكر وانتهكوا حرمة البيت وعاونتهم قريش فى خيانتهم. فما كان النبى ﷺ إلا أن يرد هذا الضيم ويدفع ذلك الشر، فعقد أكيد العزم على المضى إلى مكة فاتحا، وقال ﷺ ثلاثا: والله لأغزون قريشا، وأمر أصحابه بأن يكونوا على أهبة الذهاب إلى مكة، وقبل دخولها أسلم أبو سفيان، وثنى قريشا عن القتال، وأبلغ قومه أن النبى ﷺ قال: إن من دخل دار أبى سفيان فهو آمن، فقالوا له قاتلك الله، وما تغنى عنا دارك، فقال ناقلا عن النبى ﷺ ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن.

---

(١) عيبى حس وعبى سور، اسلام ارتقديلمز — سو عرور ادا سى، رسوله كيران
حفلك تقديرى هتش كيمسه بلمز — حكمت كسه حيدده بلير دى بر آن
وشمى ايلك ورو شده سليب سو سردى — نورعن نور لمسه ديعوسى، مسئول
حمكى تلك باشينه قراندى رسول

وبهذا تهيأت النفوس للإسلام.

فدخل ﷺ لا دخول المحارب ولكن دخول المسالم، وما رغب إلا فى أن يفتح القلوب لنور الإيمان، وأمر جنده ألا يقتلوا ولا يقاتلوا، ولكنه أوجس خيفة من بعض أوباش قريش، وأمر الأنصار بأن يضعوا السيف فيهم ويبددوا جموعهم ولكن شريطة ألا يصدر منهم ما يعرض المجاهدين للشد عليهم وقتالهم، ودخل ﷺ على ناقته حاملا علما أبيض وهو يقرأ سورة الفتح. وهنا نقف وقفة نهى عن القتال لا عن الدفاع، ولكن أوباش قريش تجمعوا مع بنى بكر وتخونوا العهد واعتزموا العدوان على المسلمين، ولكن خالد بن الوليد ومن معه رشقوهم بسهامهم واضطر خالد إلى قتالهم فقاتلهم حتى ألحق الهزيمة الماحقة بهم، ولم يقتل من أصحاب خالد غير رجلين، ودخل ﷺ البيت الحرام وأحاط به المهاجرون والأنصار، وأقبل إلى الحجر الأسود واستلمه ثم طاف بالبيت حاملا قوسه وحول البيت ستون وثلاثمائة صنم، فجعل يطعنها بقوسه، ويقول: (جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقا) وما يبدئ الباطل وما يعيد. ولقد تساقطت الأصنام وتهاوت عند إصابتها بقوسه فنكست كلها.

له المديح ولـه الفتح المبين، فـي يوم ذياك الفتح، جميع قريش أمام الكعبة، أيصعد الأذان العبد القديم بلال، هو ذا فى القلوب سؤال، أية عاقبة لنا نتمثل، سيد الرسل غصنا رقيقا حمل، قال: رباه هذه الأصنام حطم، ثلاثمائة وستون لم يبق منها صنم، أين هبل الآن أين هبل؟! أتت القبائل عديدها اكتمل، صوت واحد، الله أكبر، وانحنى الرسول وهو يشكر، من فوق راحلته أطل، والصفوف أمام بيت الله، لقريش عفو ورحمة من الله[1].

إن شاعرنا برسم لنا صورة جد رائعة لرسول الله ﷺ فى فتح مكة. إنها صورة تخلو من كل مظهر من مظاهر العنف وبذلك يصدقنا التصوير لأنه دخل مسالما ولست أقتدر على كتمان فرط إعجابى بقوله إنه ﷺ حمل فننا رقيقا مريدا بذلك تشبيه قوسه به فهذه القوس التى تقترن بالعنف حين تنطلق منها السهام قوس لم يطلق منها سهما واحدا فليست لها صفة

---

(١) مديح اوكه، بو يوك فتح اوكه. بويوك فتحك كوبنده، بويوك قريش كعبه اكنده افوياں مى، اسكى قول بلال، يود كلرده نك سؤال، صو كمر بجه؟ رسول الله النده برانجه دال، كوسنردى، نلرى، ربم بيره حالاوج بور التمشى بوت شمدى برده، هابى يا هبل. بره ده؟ اوبمقلر بولم بولم، تك سس الله اكبر شكردن ايكى بوكلم، ده سدن بيحمر كعبه اكنده صف صف، قريشه رحم وعفو.

القسي ولا استخدامها، ومع ذلك جعلها فنا. إلا أن هذا الفن على رقته ورخاوته هدم هذه الكثرة من الأصنام، فقد قيل إنه ﷺ كان يمس الصنم بقوسه فيهوى على الأرض هويا فمن عجب أن يكون ذلك إلا بقوة إلهية غيبية.

وهكذا وفق الشاعر فى إيضاح ما وقع على الحقيقة. إنه لم يسرف فى الخيال، وتخيل لكن بمقدار، وخلع على الصورة التى رسمها روحانية وقدسية، وعرف كيف يعرضها على نحو يقع في القلوب موقعا.

إنه لا يستطيع أن يخفى فخره واعتزازه بالنصر المبين ولا يغفل عن ذكر لوازم هذا النصر بالذات كتصعبد الأذان، وكأنما شاء أن يجعل من صوت الأذان ما يتغنى به المنتصر أو يعبر عنه بالمعازف والطبول.

ويتلو ذلك ما ذكر عن غزوة تختلف بعض الشيء عن الغزوات وهى غزوة تبوك.

وتبوك موضع بين وادى القرى والشام. وهذه الغزوة تسمى غزوة العسرة وهى آخر غزواته ﷺ . وقد أخبر الناس بأنه يريد الروم.

أما سببها فإن الروم قد حشدت حشودها فى الشام فندب أصحابه إلى الخروج واستنفر قبائل العرب، فأقبل عليه جمع كثير كما قدم عليه المنافقون يستأذنون فى التخلف، واستخلف على بن أبى طالب كرم الله وجهه على أهله فى غيبته وانطلق بعد أن عقد الألوية لأبى بكر والزبير وأسيد بن حضير وغيرهم. وسار ﷺ على رأس جيش عظيم كان أعظم تألف في العرب، ووجه خالد بن الوليد فاستأسر أكيدر، فدخل خالد حصنه وقدم أكيدر على الرسول وصالحه على الجزية ونال منه الأمان وعاد ﷺ إلى المدينة واستقبله المنافقون فأعرض عنهم[1].

ولست أجد من دافع قوى يدفعنى إلى ذكر شىء مما قال الشاعر فى تبوك لأنه أشار إشارات لامحة إلى ما وقع فيها كقوله إن الروم لم يعتدوا، ثم طفر طفرة بعيدة ليضيف إلى ذلك قوله إن الإسلام على وشك الخروج إلى العالم الكبير، إلا أننا فى هذا المقام يلزمنا عدم نسيان شىء وقع فى هذه الغزوة وهو قوله ﷺ : يا أيها الناس باب خير. أخبركم عن جيشكم هذا الغازى إنهم انطلقوا فلقوا العدو. فقتل زيد شهيدا فاستغفروا له. ثم أخذ الراية

---

(١) محمد رضا. محمد رسول الله ٣٣٦ - ٣٣٨ القاهرة ١٩٦٦م.

عبد الله بن رواحة وأثبت قدميه حتى قتل شهيدا فاستغفروا له. ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد ولم يكن من الأمراء وهو أمير نفسه ولكن سيف من سيوف الله فآب بنصره فمنذئذ سمى خالد سيف الله المسلول[1].

وهنا تقترن غزوة تبوك بخالد الذى أسماه ﷺ فيها سيف الله المسلول، وهذا لقب له يتردد فى أرجاء الدنيا. وباقتران هذه الغزوة بهذه التسمية نذكر اقتران السيف الدى يعرف بذى الفقار بغزوة بدر.

والخبر فى هذا أن سيف رسول الله ﷺ كان يعرف بذى الفقار وكان لأحد قتلى المشركين يوم بدر، فصار هذا السيف إلى النبى ﷺ ، ولكنه أعطاه على بن أبى طالب كرم الله وجهه، وذكر ابن هشام أن مناديا نادى يوم بدر مرتجزا: لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا على[2].

ويؤخذ من ذلك أن هذا السيف أصبحت له الرتبة والميزة على غيره من السيوف لامتلاك الرسول له ولأن على بن أبى طالب أخده من النبى ﷺ .

ومما يؤيد ما نذهب إليه ونؤيده أن هذه المقولة تكتب على كثير من السيوف على امتداد العصور على أنها تزيين وتشريف وتبرك، ولكننا فى هذا المقام نلحظ بالذات أن الغزوة الأولى والأخيرة اقترنتا بالسيف إلا أن السيف فى غزوة بدر الأولى كان سيفا على الحقيقة ودخل التاريخ بنفاسته وبركته، أما السيف فى الغزوة الأخيرة وهى غزوة تبوك فسيف على التشبيه. ودخل كذلك مسماه التاريخ بتسمية الرسول الكريم له ﷺ وبنجدته وبسالته المنقطعة نظيرها.

وحسبنا هذا من نظرنا فى شعر نجيب فاضل الذى تعرض فيه لذكر الغزوات وأوصافها.

ويذكر نجيب فاضل يذكر سزائى قراقوج. إنه شاعر معاصر من شعراء الترك الذين تميز شعرهم بالتعبير عن نزعة إسلامية يعبر بها صاحبها عن كونه داعية إسلامية يريد ليذكر الأتراك بسابقتهم فى مجد الإسلام، ويود لو وعوا عنه وانتصحوا بنصحه، فأخذوا بأصول الدين ووقفوا عند حدوده، ليصلحوا بدين الله دنياهم وبذلك يغير الله من حال إلى حال،

---

(١) محمد رضا. محمد رسول الله ٣٣٦ ٣٣٨ القاهرة ١٩٦٦م

(٢) د. سمية حسن إبراهيم. نحص السيوف الأثرية بمتحف عابدين الحربى ص ٧ القاهرة ١٩٩٠م

إنه منصرف العناية إلى قضايا الإسلام وجمهرة أشعاره في هذا الغرض. وهو من مواليد ديار بكر عام ١٩٢٣م، ومنذ بدايته الأولى كرس جهده طول دهره لخدمة قضايا الإسلام والنظرة فيها رجاء الاهتداء إلى حلها، وبلغ من تأكيده العزم على ذلك أن يجعله كل دنياه، فتنصل من مسئولية الأسرة حتى لا يشغله شاغل، كما كره لقلمه أن يتجاوز هذا الإطار، ويا طالما أجرى قلمه في الشعر والنثر والمسرحيات والمقالات، وحسبنا قولنا إنه صاحب مدرسة من مدارس الفكر يسميها مدرسة الإحياء الإسلامي[1].

ومن إنصاف الحق قولنا إن ساحة المجاهدين الإسلاميين، أي الذين لهم نزعة إسلامية إصلاحية لم تكن خالية أمام سزائي قراقوج، بل كان فيها كثير من الأعلام الذين كان لهم أعمق الأثر فيه. إلا أنه كان صاحب منهج تفكير خاص به، وبذلك كانت له الميزة على غيره من الذين سلكوا تلك الطريق التي سلكها، فقد كان عميق التفكير يتكئ إلى عقل راجح ورأي سديد فيما هو قائل. وبناء على ذلك سدت كتاباته فراغا شاغرا في مجال الدعوة الإسلامية في تركيا.

ولإيضاح ذلك نقول: حينما كان الكماليون والشيوعيون ينشرون مذاهبهم وآراءهم فيما يتعلق بالفكر والسياسة، كانت كتابات ومنظومات الإسلاميين تواجه الشعب التركي ولكن من جانب واحد هو الجانب العاطفي، ونعني به العاطفة الدينية التي تمتزج بالإيمان وتنطق به. إلا أن قراقوج كره أن يكون ذلك هو السبيل الأوحد إلى تحقيق منشود الغاية فجعل كل همه أن ينصرف إلى الجانب العقلي والتاريخي والحضاري، فيما يختص بالإسلام، وبذلك استطاع أن يقيم سدا يرد سيل العلمانية الجارف، وجعل بدايته إصدار صحيفة إسلامية لتكون مصدر دعاية للإعلام الديني، ومنبرا للدعوة الإسلامية ومعالجة الواقع من منظور إسلامي، وحرص أن يعقد فيها فصلا خاصا ثابتا للتراث الإسلامي اهتم فيه بعرض لتاريخ الإسلام في عموم، وتاريخ العثمانيين في خصوص، كما قدم ترجمات من عيون الشعر الإسلامي في العربية والفارسية. وكانت عنايته بتحديد مواطن الضعف في حاضر المسلمين، ورأى في ذلك أن سببه هو التبعية السياسية والاقتصادية والثقافية للغرب، وبت الصلة بين ماضي المسلمين وحاضرهم، ووجود حاجز نفسي بين يومهم وأمسهم، وتلك

(1) Ismail Kara Osmangıı. Aylık dergı Sayı. 41,42,43, (Istanbul 1982).

الضدية التى تبدو بين الأقوال والأعمال وإن توهم بعضهم أنها تمت بصلة إلى الدين الحنيف[1].

وليس يعنينا من شعره – وما أكثره – إلا ذلك الشعر الذى ذكر فيه غزوات الرسول ﷺ . إن ذكره لهذه الغزوات ورد عرضا أثناء حديثه عن أبيه الذى أسر وهو يحارب فى روسيا، فهو يقول:

(كان أبى غزوة بدر يتذكر، وحنين واحد والخندق، وفتح مكة، فى الحرب العالمية الأولى بروسيا عندما وقع فى الأسر، ووابل على مدينة باكو انهمر، كان لا يمل من النافذة النظر، فما فى الجنوب من ربيع ولا قمر، لم يفتح باب سجنه سوى القرآن، كان له التفكير والسلوان)[2].

يحدثنا الشاعر عن أبيه، ونحن لا نظلم الحق شيئا إذا قلنا إن الأتراك خصوصا يوقرون الوالدين والأبوين والأسلاف كل التوقير، ولهم منهم كل التقدير، فهم يعتزون بهم اعتزازهم بأنسابهم وما كان لهم من مجد وعز فى الزمان الخالى. والأب التركى عند ابنه مسموع القولة مطاع، فضلا عن أنه فى الأغلب الأعم موضع إعجاب.

الشاعر يذكرنا بأبيه الذى وقع أسيرا فى الحرب العالمية الأولى فى أرض غريبة، وكأنما دفعه ذلك دفعا إلى تخيل أن أباه تذكر غزوات النبى ﷺ فنحن لا نستطيع بأن نقطع بأن هذا الأب كان يفكر فيها وإن كان ذلك غير مستبعد. وأيا ما كان فقد ذكرت قراقوج الحرب بحرب الإسلام أى بغزوات النبى ﷺ فذكر العديد منها.

وفى الرأى الأرجح أنه ربط تفكير أبيه بالغزوات رغبة منه فى أن يذكر المسلمين بها، أو على التقريب شاء أن يذكر قومه الأتراك بالغزوات التى تعد بحق مجدا عظيما للإسلام لأنها وطدت دعائمه وشكلت كيانه. وهو حريص كل الحرص على أن يذكرهم بما كان لهم من سابقة فى المجد. إنه أورد ذلك فى مقامه الذى لا يخرج عنه وإن تجاوزه إلى سواه من وصف

---

(١) بابام دو شمدى بروفنلر بدرى، خندقى أحدى حنينى، مكة ملك أليتشنى، روسيا ده اسيركن، برنجى جهان صوا شنلاه، قار ياغيبوردى باكوده، اوكنجه برم ألديغمز، صوكره كرى ويرد بكمز ساكوده، طولميوردى آجيق سحره دن

(٢) بدرن قلبجلر بمارده قورسى، خندقك كثيردن قيو لحم، قواشادما صابدى جوره سبى، مكة يه كريش ودونوشرر برباريش قانوسى، قردش قردشى ورمش اما بدرده، يكى وكرحك قرداشلن قوررلمش

للطبيعة ووصف لأبيه الأسير، ولكن هذا الأسير التقى النقى انصرف إبان أسره إلى النظر فى كتاب الله المبين لأنه وجد فيه سلوته وكشف غمته، وكان جميلا من الشاعر أن يقول إنه فتح له باب سجنه، مريدا بذلك أن يبين ما للقرآن الكريم من أثر فى نفس المؤمن، فهو يدعوه إلى الإخبات والرضا بقضاء الله، وهذا ما يغمر نفسه بالسكينة والطمأنينة.

إن الشاعر يريد من وراء ذلك أن يبين كيف أن التمسك بكتاب الله فيه الخير كل الخير لمن هم به مستمسكون وكأنه يحضهم على ذلك.

ويمضى الشاعر ليؤيد ما أسلف ذكره، وذلك بأن يشير إلى السبب فيما صلحت به حال أبيه الأسير ذى السيف الكسير فى سجنه، وملحوظ عليه أنه يتفكر ويتدبر ولا يهيم فى الخيال المحال شأن الشعراء المعاصرين الآخذين بمنهجهم فيما يعرف بالشعر الحديث، فكلامه لا بد أن يكون له الأثر فى العقول.

إنه عقب على ذلك بوصفه معركة المجاهدين فيقول:

سيوف بدر فى الصلاة تلتمع — وشرر الخندق يحوطه ويرتفع
لو لم يكن ثمة من سياج يقى — وباب إلى مكة غير مطبق
فى بدر قتل الأخ أخاه العنيد — ولكن ظهر من بعد إخاء صدوق جديد

إن سزائى قراقوج فى هذه الأبيات ينطق فى جهارة عن روحانيته الدينية مقترنة بشاعريته العبقرية. فكلامه عن بدر كلام عجب إنها معركة طاحنة نعم. إلا أنه يتحدث عنها على نحو خاص ويهتم بذكر سيوفها ويقول إن سيوفها تشرق فى الصلاة. لقد جمع بينها وبين الصلاة وبين البريق أو الإشراق كأنما أضفى عليها صفة من بنات خياله وشاء أن يفسر الحقيقة بالمجاز، لأنه جعلها سيوف المؤمنين الذين ليسوا عن صلاتهم ساهين حتى وهم يقاتلون. وهذا الإشراق نور ولكنه نور الإيمان الذى يشرق من سيوف هؤلاء المجاهدين فى سبيل الله، ولعله كان على ذكر من تسمية النبى ﷺ لخالد بن الوليد سيف الله المسلول فلا سبيل إلى التفرقة بين السيف والجهاد ولا التفرقة بين النور الذى يبدو من السيف من نور الإيمان.

إنه لم يذكر معركة أحد ولعله استنكف من ذكرها لما عاقبتها، وهو إنما يريد التذكير بمناقب ومحامد المسلمين وبما كان لهم من نصر فى غزواتهم عاد بالخير على أهل لا إله إلا الله ذكر غزوة الخندق وأبى إلا أن يصعد منه الشرر.

إن هامة وحمية وحماسة هذا الشاعر فى الثريا لأنه عبر بهذا الشرر عن حماسته، وهو مزهو بحفر ذلك الخندق الذى كان سببا فى نصرة المؤمنين، ومع أنه كان للدفاع إلا أنه تخيله للهجوم، وتلك منه براعة أدبية. لقد جعله سياجا يدفع عن الأبرار عادية الكفار. ثم تخيل ما ترتب على تلك الغزوة إلى أن بلغ بخياله فتح مكة فجعل تلك الغزوة ما يسر فتحها.

ويعود إلى بدر فيخطر على باله ما كان من مواجهة أبى بكر لولده ويرتب على ذلك فكرة يريد التعريف بها ونشرها فيجعل من تلك المواجهة مثالا للأخ وهو يواجه أخاه فى ساحة الوغى بقطع النظر عما بينهما من رحم واشجة. ويرى فى ذلك أبشع المآثم وأكبر الكبائر، ويسارع إلى قوله إن الدين الحق يكره هذا، ويزجر عنه، ويحذر منه لأنه دين الإخاء والصفاء والتسامح بكل معنى لتلك المثاليات والقيم.

إن سزائى قراقوج من الشعراء المعاصرين، وعهدنا بهم أنهم يقولون ما يقولون منبهما على الفهم ملتبسا حتى الخبال. إلا أن سزائى قراقوج فيما اخترناه له من هذه المنظومة يخرج على ما عهدناه عند سواه، فهو إذا ما اصطنع المجاز فتحت مجازه حقيقة لا يشك فيها وهذا المجاز يسم عنها.

لقد صور لنا هاتين الغزوتين تصويرا رائعا وإن لم يتعارض كلامه فى شىء عما تحدث به الرواة وبذلك حقق الغاية التى شاء تحقيقها من شعره.

ولا نبرح عن هذا الفعل من كتابنا دون أن نذكر شاعرا ثالثا نضمه إلى نجيب فاضل وسزائى قراقوج ذلك أنه يشبههم فى كثير. فهو يشبههم فى منهج تفكيره وفى نوعية حرفته الأدبية لأنه مثلهما فى كونه شاعرا كاتبا قاصا صحفيا مؤلفا مسرحيا داعية إسلاميا. يريد ليصلح الدنيا بالدين. ذلك هو مصطفى مياس أوغلو.

إنه كذلك معاصر ولد فى مدينة قيسارية عام ١٩٤٦م ويهمنا من تعليمه أنه درس الأدب التركى فى جامعة اسطنبول كما اشتغل بتدريس الأدب.

ونشر أشعاره فى بداياته الأولى وهو فى مدينة قيسارية ثم والى نشرها فى مجالات أخرى. كما أسس دارا للنشر لنشر ما شاء يذيع ويشيع من مبادئه ومثله التى اتسمت بنزعته الإسلامية الإصلاحية. ورأى فى الصحافة السبيل الأمثل، إلى نشرها على النطاق الأوسع. وفى أشعاره الأولى تقلبت أغراضه فى فنون شتى تقليدية وغير تقليدية إلا أنه اتجه من بعد

إلى الشعر فى التاريخ والدين، وهذا الاتجاه الجديد عنه هو ما بوأه منزلة مرموقة كشاعر تركى معاصر له نزعة خاصة يريد لها تعريفا ونشرا على الملأ. ولقد ترجمت بعض أشعاره إلى العربية وغيرها. كما أنه اهتم بالتأليف المسرحى رغبة منه كذلك فى نشر أفكاره ومثله وإطلاع الجماهير عليها رجاء أن يقتنعوا بها. ومن أشهر ما نظم مجموعتان الأولى بعنوان نداء الرؤيا وملحمة الهجرة[1].

وهذا الشاعر الداعية الإسلامى بكل ما تتسع له الكلمة من معنى يذهب فى كل ما خلف من شعر ونثر إلى أن هو الأصل أو الدعامة الركينة التى تقوم عليها الحياة. ويؤكد ذلك ويؤيده بقوله: إنه ليس يكفى أن نؤمن بالإسلام كعقيدة، بل لزام مع هذا أن نجعل الإسلام فكرة أو قيمة نضعها موضع التطبيق ونوجه به سلوكياتنا.

وهذا الشاعر فى أشعاره بخاصة، يفسح المجال متراحب الأرجاء للجهاد فى سبيل الله، ولا يشير إلى الحرب بوصفه مجرد نزاع مسلح بين دولتين، بل يفرغ عليها صفة أخرى هى صفة الجهاد، وبذلك لا يدرك من معنى الحرب إلا أن تكون جهادا فى سبيل الله، فالجهاد هو تلك الحرب التى تنشب ذودا عن دين الله وكفى.

إنه بمثل هذا من رأيه يذكر بحقيقة محجوبة عن كثير من المفكرين، ومن ثم يزيد فى أهمية الجهاد ويسمو بروحانيته إلى الذروة ويزيد هذا الجهاد سموا على سمو وروحانية على روحانية عندما يقول إن الجهاد له غاية ما أعظمها وما أكرمها هى الشهادة ويستلزم أن يكون هذا الجهاد شعورا تخفق به القلوب وتموج به النفوس، مريدا بذلك طلب مرضاة الله والرغبة فى دخول جنته ويضيف إلى ذلك ربطه التاريخ فى وثاقة بكيان الأمم والشعوب قائلا إن التاريخ هو الماضى ولن يكون هذا الماضى منبت الصلة بالحاضر ولا بالمستقبل، وإذا عقدنا الصلة بين هذا وبين الجهاد أو الغزوات أدركنا فى التو أنه يجعل منها للمسلمين المجد التالد والتاريخ الماجد وبالتالى يعلى من درجتها ويعظم من أهميتها على أنه جزء له ما له من أهميته فى تاريخ الإسلام[2].

وما دام هذا مجمل رأيه فى نزعته الإسلامية التى يريد لها تعريفا وشيوعا وذيوعا فالمدرك منها أنه متفكر متدبر إلى كونه مؤمنا موقنا، وشاعرا مرهف الحس يسخر ملكته الفياضة فى التعريف بمبادئ الإسلام وأصوله ومثله كما أنه يختص الغزوات بالجانب الأهم الأعظم من

---

(1) Ihsan ısık. Yazarlar sozlugu S 3,7. Istanbul 1990
(2) Mustata Mıyas oglu Hicret destani S 62 Istanbul 1981

عنايته ورغبته فى التعريف بكنهها والإعلاء من شأنها. فمن حقه علينا أن نرخى نظرة تأمل إلى طائفة من شعره فى الغزوات.

وها هو يمهد لقوله فى غزوة بدر بكلام عام عن الإسلام فى ازدهاره، مريدا بذلك أن يرجع السبب إلى تلك الحروب التى خاضها المسلمون جهادا فى سبيل الله فهو يعلى من شأن الحرب فى الإسلام ويشيد بما كان من عظيم فضلها:

(اتفاق وغزوات وسرايا، وعلى الأيام دولة الإسلام تزكو وتزهر، إنما تحكم الزمان أصوات الهبة، وتزكو بحماسة لتبليغ أرواح رضية)[1].

ثم ينبرى لمواجهة هذه الغزوات، إلا أنه لا يواجه كلا منها على حده، بل يشملها بنظرة واحدة ويضفى عليها صفة واحدة.

إنه لا يريد أن يكون ذلك المؤرخ الذى يذكر الحوادث بالنص والفص ويجنح إلى الإجمال لا إلى التفصيل، رغبة منه فى الخروج برأى واحد والتعريف بحقيقة واحدة.

إنه يفضى إلى النتيجة ولا يمهد لها بكثير من المقدمات لأنه صاحب رأى يريد له أن يكون جامعا مانعا.

بدر وأحد والخندق، للمؤمنين بها ابتلاء محقق، فتح مكة فى إثر خيبر، وأسلمت أرض العرب كلها على الأثر، انتقلوا إلى رحمة الله أجمعين، وبذلك كانوا من الخالدين. ما فيهم إلا من قضى أو كاد، فكان للروح إليه الميعاد)[2].

إن هذا الشاعر يختلف عن صاحبيه التركيين وكثير من شعراء العرب الذين ذكروا المغازى لأنه لم يكن متلهم شاعرا ملحميا كل همه أن يصف حومة القتال ومصارع الأبطال ويتفنن فى وصف سيوفهم ورماحهم ونجدتهم وهذا قصاراهم كما كان قصاراهم. بل شأنه على النقيض من شأنهم لأن كلامه الذى يحمله أفكاره يمضى فى سهولة ويسر

---

(١) بدردى، احددى، خندقدى — مؤمنلر سودكلى امتحان اولور
خيبركو اردندن مكه نك فتحى — بوتمون عربستان مسلمان اولور
حقه يوردى هر برى صكره — اولنلرى اولمسر فلك الدى
كسرى مستقير مقرا — اولوب ديرلمك قالدى

(٢) اكلاشمه لر سربه لر غزوه لر — كون كون اسلامك دولتى بيور
زمان حكم اولور الهى سسكر — تبليغك هيجانى روحلرى بيور

ويتداعى إلى أن يبلغ منشود الغاية التى يريدها. إنه يتغنى بفضل هؤلاء الشهداء ويغبطهم على ما أعد الله لهم من جزاء، ويخرج بالغزوات عن مفهومها التى يسبق إلى الفهم ليضيف إليه مفهوما آخر يستمده من حلاوة الإيمان وطهر العقيدة ويؤكد أن هذه الغزوات لم تكن مجرد حروب تزدحم فيها أسماء المقاتلين ليس غير، بل أتاح لمن يتلقى عنه. أن يروح فى نشوة إيمانية حالمة تغمر النفس بالسكينة.

وثمة ملحظ آخر له هام من دلالته، لقد كان من هذا الشاعر أن ذكر كلمة .. اتفاق .. أو (تفاهم) بداءة فى شطر من شعر له عن الغزوات. ثم ذكر بعد ذلك وكأنما جمع لآلئ فى سمط واحد. وهذا يرشد إلى أن التفاهم كان فى ذهنه ويقينه عند حديثه عن الغزوات، ولإيضاح ذلك جليا نقول: إنه شاء أن يقول إن النبى ﷺ إنما شاء التحاور والتشاور مع المشركين قبل أن يناشبهم القتال ولكنه من بعد حاربهم مضطرا دفاعا عن الدين ودفعا لهم وزجرا. فما وضع السيف فى غير موضعه بعد تصلب المشركين فى عنادهم وإصرارهم على مكرهم وكيدهم ورغبتهم الملحة فى الإضرار بالمسلمين.

والشاعر بمثل هذا من إشارته اللائحة إنما يريد التعريف بسماحة الإسلام والإعلان عن قيمه ومثله. إنه لم يعرض لذكر الغزوات مؤرخا كما عرض لها غيره من الشعراء بل انفرد عنهم بمثل هذا من الإشادة بتعاليم الإسلام فى رمزية لا تدرك إلا بعد عمق تأمل ودقة شعور.

وهذا فضل له لا يجحد .

الباب الثالث

فى الشعر الأوردى

الفصل الأول

فى الشعر الأوردى القديم

الأدب أدب اللغة الأوردية القديم أدب إسلامى بنمام المعنى، وإذا قلنا إنه إسلامى خطر على البال أول ما خطر من ظهر الإسلام فيهم أول ما ظهر وهم العرب، وذلك ينساق بنا إلى حتمية أن نتمثل صلة العرب بشبه القارة الهندية ودخولهم عليها بالدين الحنيف، فما من ريب أن الإسلام لا بد أن يكون له أثره فى أهل الهند وفى تشكيل نفسيتهم وعقليتهم وبالتالى فى تعبيرهم الأدبى على نحو من الأنحاء.

يقول التاريخ إن العلاقات انعقدت وثيقة بين العرب وبين أهل الهند قبل فتح المسلمين إقليم السند فى أوائل القرن الخامس الهجرى، بل وحتى قبل البعثة النبوية فكان لتجار العرب وفادات على الساحل الغربى للهند، وكانت بعض القبائل العربية تستوطن مالابور، وقيل إن النبى ﷺ وجه بنفر من أصحابه إلى ملك من ملوك الهند هو راجا سرهانك حاملين معهم الدعوة فى الدخول فى دين الله، فأسلم هذا الملك وحسن إسلامه، وكان ذلك فى العام السادس للهجرة، كما قيل إن جالية عربية كانت تقيم فى منطقة على مقربة من بومباى قبل الإسلام.

وفى القرن السادس الميلادى قطن كثير من تجار العرب والفرس فى مناطق على ساحل الهند الغربى، وأسلم ملك مالابور مع أفراد أسرته وبذلك يبدو بتمام الوضوح أن العرب كانوا على صلة بالهند قبل الإسلام وفى صدره وها هوذا الرحالة الأشهر ابن بطوطة يقول إنه ارتحل من كمهمبات إلى ساحل مالابور فشاهد المسلمين فى كل الأرجاء وهم فى أحسن حال[1].

وفى هذا كله دليل صدق على أن قلوب أهل الهند رقت للإسلام فى فترة من الزمن متقدمة ولا بد أن يكونوا قد شكلوا مجتمعات متأثرة بأصوله وتعاليمه وأثروا فى غيرهم وأدخلوهم فى جوهم الروحى.

---

(١) د. حسين مجيب المصرى: مقدمة كتاب الأدب الإسلامى فى شبه القارة الهندية، لبيلى ص٢٠ القاهرة ١٩٨٨م.

وهذا كله يهيئ الروح الهندية للتعبير عما يعمر به قلب المؤمن وبالتالى يهيئ شاعرية المسلمين للقول بالدين الحنيف.

ولما كان الشعر لغة القلب يتحتم أن يكون هذا الوضع أثر فى أشعار شعراء الهند من المسلمين فنطقوا عن إيمانهم وتعلقوا بمحبة حبيب الله ﷺ . وبالتالى تنسموا أخباره ومدحوه، ولا بد أن يكونوا قد ذكروا غزوته ضمنا في تعرفهم لسيرته. وثمة ملحظ آخر لا يسعنا أن نغفل الإشارة إليه. وهو أن دولة هي الدولة الغزنوية تأسست فى إيران الإسلامية وسلطانها هو محمود الغزنوى المعروف بغزواته فى الهند وتحطيمه أصنام غير المسلمين فيها حتى أصبح اسمه فى التاريخ (بت شكن) بمعنى محطم الصنم فهو عاهل مسلم بمعنى الكلمة، كما أن عصره يعد العصر الذهبى للشعر الفارسى، وعاصمة ملكه غزنة كانت مثابة للشعراء وانتسب إليها أشعر شعراء الفارسية، واتفق أن ارتحل كثير من شعراء هذه الدولة إلى الهند منتجعين كرم حكامها وازدحمت بهم مدينة لاهور على الخصوص حتى قيل إن لاهور هى غزنة الأخرى وكان هؤلاء الشعراء من أهل السنة خاصة أن الدولة الغزنوية كانت دولة إسلامية سنية وكان عاهلها السلطان ممن يعلون من شأن المذهب السنى.

هؤلاء الشعراء الفرس ذاعت أشعارهم الفارسية فى أرض الهند، ومهدوا لدواوينهم وكتبهم المنظومة بالنعت وهو وصف لشمائل الرسول ﷺ ومدح له وتعريف بسيرته والمترتب على ذلك فى الفهم أن يكون هؤلاء الشعراء قد لفتوا المسلمين فى الهند إلى سيرة الرسول ﷺ لما وقع من أشعارهم فى النفوس موقع الإعجاب.

كان هذا فى القرن الرابع الهجرى.

وإذا انتقلنا إلى القرن العاشر وجدنا فى إيران دولة تعرف بالدولة الصفوية وهى دولة شيعية.

وكان حكام تلك الدولة يتعصبون لمذهبهم الشيعى على كل مذهب آخر، ويصدون الشعراء عن النظم فى فنون الشعر التقليدية المعلومة، ويرغمونهم على النظم في مدح ورثاء أئمة الشيعة.

ولم يرتض أهل السنة والصوفية وهم من أهل التسنن سياسة الصفريين الذين تزمتوا وقيدو حرية العقيدة، وضيقوا الخناق على الروح المؤمنة فى شطحاتهم، فلم يقبلوا غير التشيع مذهبا، كما عمت عقائد الشيعة الإمامية مع عقائد الصوفية.

وكان الكثرة الكاثرة من شعراء الفرس من المتصوفة[1] ورأى بعض الشعراء كساد بضاعتهم في إيران فارتحلوا إلى الهند بعقيدتهم وحريتهم في نظم الفنون التي يروق لهم النظم فيها، وشدوا المطايا إلى ملوك المغول في الهند، وكان هؤلاء الملوك يبصرون الشعر ويبسـ' ن جناحا من رعايتهم على الشعراء[2] فأقبلت الدنيا على شعراء الفرس الذين ارتحلوا إلى الهند بعد أن أدبرت عنهم أثناء مقامهم في إيران. ومما يدل على ضيقهم ذرعا بالحياة في إيران ورغبتهم في مزايلتها قول شاعرهم: (يا له من مغمور في أرضه غريب، كسير القلب ما له سوى المحنة من نصيب)[3]. وفي الهند راجت أشعار الفرس كما أن الشعراء الهنود الذين تعلموا الفارسية تأثروا بالفرس، ونظموا في الفارسية والأوردية وفي أشعارهم مدحوا سيد المرسلين ﷺ وترددت أشعارهم على الألسنة وانشرحت لها القلوب المؤمنة لما فيها من ذكر للنبي ﷺ.

وكفى بما أسلفنا ذكره أن يقوم برهانا على أن فنا أو اتجاها جديدا دخل على الشعر الأوردي، ألفينا من شعراء الأوردية من نظموا في غزوات الرسول ﷺ ومنهم شاعر يسمى (شيدا) وله مثنوي بعنوان إعجاز أحمدي. والمثنوي منظومة يتفق فيها روي الشطرين ولا يلتزم في بقية المنظومة، وهي منظومة طويلة قد تألفت من آلاف الأبيات، والشاعر فيها طويل النفس لأنه غير مقيد بقافية واحدة، ويستخدم هذا النمط في الشعر القصصي والملحمي في الفارسية والتركية والأوردية.

وعنوان هذه المنظومة دليل على محتواها، فهذا الشاعر- وإن يكن مغمورا – اختار لمنظومته ذلك العنوان الذي يدل على باعث الشاعر على نظمه لهذا المثنوي، وحسبه أنه يسميه إعجازا وينسب هذا الإعجاز إلى النبي ﷺ لندرك من ذلك أنه إنما شاء أن يورد سيرته العطرة وأن يصف مغازيه على أنها جزأ لا يتجزأ منها، ولم نستطع سبيلا إلى الاطلاع على هذه المنظومة وحسبنا هذه الإشارة ما دمنا نعجز عن إيراد العبارة.

وشاعر آخر من شعراء الأوردية هو (محمد باقرآكاه) وله مثنوي بعنوان (هشت بهشت) بمعنى ثماني جنات، وفيه يدور كلامه على معجزات الأنبياء قاطبة ويؤكد أفضلية

---

(١) ليماري' تاريخ ادبيات ايران بعد از اسلام (دفتراول) ص٥٢.

(٢) سيد محمد هادي' زبان فارسي درهند ص ٢٢٧ (ايرانشهر شمارة ٤ تيرماه ١٣٠٥)

(٣) ركمامي بشهرحود غريبي .. شكسته خاطري محت مصيبي

محمد ﷺ وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين، كما يذكر الآخرة وعذاب القبر إضافة إلى حديث طويل عن السيرة النبوية وما تتضمنه من ذكر ووصف للمغازى، ومن أسف أننا لم نطلع على هذين الكتابين إلا أن ذكرهما كان أمرا لا مندوحة عنه، وما داك إلا أنهما كانا باكورة فن شعرى وجد من بعد من توفر عليه وأتقنه أيما إتقان. فكان لزاما أن نشير إلى هذين الكتابين على أنهما كانا فى الأغلب متلين احتذاهما أكثر من شاعر حديث. ولقد وددنا أن نذكر عنهما أكثر مما ذكرنا ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه، وما لا يدرك جله لا يترك كله، وحسبنا أن نكون قد تمثلنا بداية لهذا الفن لنتصور تاريخيا أننا لم نذكر شيئا عن الشاعرين المغمورين كما لم نورد أمثلة من شعرهما ولكن سوف نورد أمثلة لشاعرين حديثين من بعد ونعقد فصلا لمنتخبات نظمناها عن الأوردية وبذلك أكملنا ما رأينا نقصا فى هذا الفصل من فصول يتلوه، وأقمنا كيانا قائما بذاته للشعر الأوردى فى غزوات الرسول.

الفصل الثانى

فى الشعر الأوردى الحديث

إذا جاء الترتيب على العصر الحديث وجدنا أن الشأن فيه مختلف عما كان فى العصر القديم وذلك من حيث الأمثلة التى يمكن إيرادها لشعر الغزوات.

ولإيضاح ذلك وتقريبه إلى الفهم نقول إننا لم نجد أمثله نوردها من الشعر الأوردى خاصة بالغزوات فى العصر القديم، وإن كان من الحتم علينا أن نتحفظ ونحدد كلامنا قائلين إننا لا نقصد إلى القول أن الشعر الأوردى القديم يخلو من شعر للغزوات. فلقد صرحنا بأننا لم نستطع سبيلاً إلى نصوص نوردها أمثلة وبذلك فنحن لا نبنى حكمًا على موهوم وإنما نبسط العذر ونكتفى بالإشارة.

والأمر مختلف فى العصر الحديث فحسبنا أن نقول إننا نقع على وفرة من الشعر الأوردى الحديث فى غزوات النبى ﷺ وذلك عند شاعرين هما جالندرى وجعفرى فقد نظم كل منهما فى الغزوات ضمن كتابين منظومين لهما فذكرا الغزوات طويلاً، بل وتفصيلاً.

وحفيظ جالندرى من شعراء الطليعة فى الأوردية من مواليد عام ١٩٠٠م وشعره متميزه بالجدة لأن له طابعا يخرج به على المألوف كما أنه خصب الخيال تغنى بوصف الطبيعة على نحو خاص، لأنه نظر فيها نظرة تدبر وتفكر وعبر عن إثارتها فى نفسه التأمل فى قدرة البارى وبعثته على النظر فى خلق الكون بما وسع.

إنه يذهب مذهب الصوفية فى اعتقادهم أن جمال الطبيعة منبثق من جمال الله ومن وصف محاسنها سبح لله[1].

لقد أخرج مجموعتين من الشعر إلا أن النقاد لم يلقوا إليهما بالا ولذلك عقد العزم على أن ينظم تاريخ الإسلام وذلك فى منظومة له بعنوان (شاهنامه إسلام)، لقد اطلع واسعا على التراث الشعرى لأسلافه الشعراء وتأثر بهذا التراث، غير أنه أضاف من عندياته الكثير إليه. فجدد فى الشكل والأسلوب. لقد نظم فى وصف الطبيعة وأطال وتساءل النقاد عن سبب انصرافه عن نظمه فى الطبيعة إلى النظم فى تاريخ الإسلام. وقال قائلهم إنه ربما شاء لصيته

(1) Braginaky Amologia Tdhiakova Poesu S.12 (Moskva 1956).

أن يذيع[1] والذى عندنا أن هذا التساؤل لا وجه له. فالشاعر أى شاعر كان أن ينظم فى أى فن فله أن يخرج من النظم فى الطبيعة إلى النظم فى التاريخ الإسلامى وليس بدعًا أن ينصب اهتمامًا على فن يطيب له النظم فيه ومن الصعوبة بمكان أن نرد ذلك إلى سبب وإلا كان ذلك منا تحكمًا لقد عرفنا عن هذا الشاعر أنه كان ينظر فى الطبيعة نظرة المتأمل الذى يرى فيها مرآة يتجلى فيها بديع صنع الخالق، وفى هذا ما فيه من ترسيخ للإيمان فى قلبه مما يثير فيه رغبة ولا شك فى أن ينظم تاريخ الإسلام بعد أن رق له قلبه واقتنع به، هذا منا تظنى إلا أنه أقرب ما يكون إلى التيقن، ونحن نعلم أن الصوفية يرون جمال الله فى جمال الطبيعة ووحدة الشهود عندهم هى التى يشاهدون بها الله فى خلقه. فلم يبق بعد ذلك سبب يدعو إلى ما كان من تساؤل وتشكك وإقامة كيان لأحكام على غير أسس. إن صاحب هذه المنظومة يؤيدنا فيما قررناه وذهبنا إليه فى جزم ويقين فى سبب إخراجه هذه المنظومة:

وددت أن أصنع شيئًا فى دنياى، وليكن أقل القليل ولكن فى خدمة الدين الحنيف. لقد غمر اليأس أمة المسلمين، وأصبح الحاكم أبكم كأنه ليس من الأحياء، فقدنا الهمة والعزم والجرأة والإدارة وظهرت فى الآفاق حسرات وحسرات، ولم يعد من أثر للسواعد الفتية التى تحرك السيوف كما كان الشأن فى الزمان الخالى، تلك السيوف ذات الصليل، وسكتت أصوات تصعد التكبير، وما فى الدنيا ذلك الحاكم الذى يعشق النبى الكريم ﷺ لقد تناسوا جدهم. ففى نيتى أن أفعم هؤلاء همة وحمية كالشأن فى ماضى الزمان. ولسوف أذيب منهم قلوبًا تصلبت وتحجرت بأشعارى التى تذوب برقة الشعور، وشئت أن أشرح لهم الأحداث وأذكرهم التاريخ الحق، وأدلهم على طريق يسلكون. لقد (..) الفردوسى إيران ولو شاء الله أسعى أنا فى تجديد الإيمان[2].

إنه يصدقنا القول عن السبب الذى حداه إلى نظم منظومته التى سماها شاهنامة الإسلام معارضًا الفردوسى إلا أنه لا يسوى منظومته بمنظومة الفردوسى. فالفردوسى إنما شاء أن يؤرخ للملوك وأبطال إيران منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامى لفارس، فمجدهم ما شاء الله أن يمجدهم مريدًا بذلك أن يعبر عن شعوبيته، أى تعصبه للفرس على العرب، مبينًا أن للفرس سابقة فى المجد وهم أحق بالسيادة من العرب، وكلامه تاريخ منظوم تمتزج فيه

(1) Mohammad Sadiq: Ahistory of Urdu Literature P390 (London 1964).
(2) Mohammed Han Kayan ~ I sahnam Islam, S.33 Sayı 4.

الحقائق بالأوهام. كما يلبس الواقع بالخيال وهذا قصاراه. أما هو فإنما يريد لنفسه أن يكون داعية إسلاميا بالمعنى الحق ورأى ما آلت إليه أحوال المسلمين فلم تعجبه وأراد أن يصلح من أحوالهم وذلك بهدايتهم للتى هى أقوم ووسيلته إلى غايته أن يذكرهم ما نسوه أو تناسوه من مجد الإسلام ويعلمهم ما جهلوه من أحكام دينهم مؤكدا لهم ضرورة الوقوف عند أحكام الدين الحنيف لأن فى هذا صلاح أمرهم فى المعاش والمعاد. فالجالندرى مصلح إسلامى مؤرخ ثبت لتاريخ المسلمين، ولما كان مؤرخا للإسلام وجد ضرورة أن يؤرخ غزوات الرسول ﷺ ضمن ما أورد من تواريخ على أن هذه الغزوات جزء لا يتجزأ من هذا التاريخ المجيد، والغزوات وهى الجهاد فى سبيل الله ركن من أركان دين الله هو به متصل وعنه لا ينفصل.

كان بوده أن يستجيب بهاتف فى نفسه يهيب به أن يحيى أحاسيس المسلمين، يرغب إليه أن يبدأ منظومته باسم الله ورسوله ولتكن هذه المنظومة مباركة. وتوفر على إنجاز عمله فأرخ للإسلام فى آلاف من الأبيات حوتها أربعة مجلدات، وانجز عمله هذا فى فترة من الزمن تمتد من عام ١٩٢٦ إلى عام ١٩٤٧. ويلحظ عليه أنه لم يبالغ فى التخييل والتمثيل، بل تحرى الحقيقة ولم يخرج عن إطارها لأنه أراد بالمتلقى عنه أن يقتنع بها اقتناعا جازما إن حفيظ جالندرى يحيى التاريخ ابتداء من خلق سيدنا آدم حتى البعثة النبوية مع صحابته من المسلمين حتى قبيل غزوة بدر، وفى المجلد الثانى ذكر غزوة بدر وفى الثالث يصف غزوة أحد وما ماجت به من أحداث. أما فى الرابع فيؤرخ فيه الفترة التى بين موقعة أحد إلى حرب الأحزاب. وفى هذا ما فيه من دلالة على اهتمامه البالغ بتأريخ غزوات الرسول ﷺ وكأنما جعلها لب لباب منظومته الإسلامية.

ولقد أسماه بعض الصحفيين مصباح البيت المظلم، أى أنه أثار العقول والقلوب بتوجيهه الحكيم وترشيده الصادق.

لقد صادفت منظومة جالندرى هذه هوى فى النفوس وكانت لها سيرورة واسعة فى الناس على اختلاف طبقاتهم، لأنه التزم بالحدث التاريخى وعبر عنه تعبيرا بليغا، لقد وصف الشاعر صفات ومحاسن السلف الصالح وجعل من نفسه معلما ومربيا للجيل الحاضر ذلك الجيل الذى يعد فقيرا إلى صفات وخلق السلف الصالح من صحابة رسول الله ﷺ [١].

---

(١) د. سمير عبد الحميد إبراهيم. الأدب الأوردى الإسلامى ص ٧٠٣، ٧٠٤ (الرياض)

ولم يبق بعد هذا إلا أن ننظر فى هذا الشعر لنتعرف بعض خصائصه فى أمثلة منه نقلناها إلى الشعر العربى.

إنه يذكر موقعة بدر تحت عنوان فضل غزوة بدر وكلامه عنها كلام مسلم مؤتلق القلب بالإيمان فضلاً عن أنه يتحدث عنها حديث من يفخر بها فخره بما مكان للمسلمين من فضل فى ماضى الزمن. إنه يتحدث بلسان الجماعة مبينًا بذلك أنه يريد لينطق عن المسلمين أجمعين، لأنه إنما يتغنى بمناقبهم ومحامدهم. ويريد ليطلع الأجيال الخالقة فى الزمن الحاضر على تاريخ الأجيال السالفة فى الزمان الغابر. إنه معتز بهذه الغزوة على أنها كانت النصر المبين للمؤمنين على المشركين، ولا يفوته أن يذكر من نسى أو يعرف من جهل بأن هذه الغزوة ذكرت فى كتاب الله الكريم وأن الله أنزل ملائكته ليشدوا أزر المسلمين، وبذلك تتجلى المعجزة:

عززنـــا بفضـــل جـــهاد لنـــا	أطعنـــا صبرنـــا ونلنـــا المنـــى
قرآننـــا منـــه نعـــم الدليـــل	فنصـــر بيـــدر عديـــم المثيـــل
وفـــى ســـورة جـــاء هـــذا الخـــبر	ملائكـــة أنزلـــت كـــالمطر
ومـــا كـــان حـــول لأهـــل اليقـــين	ولكنـــهم بـــددوا المشـــركين
مضـت فـئة مـــا لها مـــن حـــسام	وغـــير الشـــهادة مـــا مـــن مـــرام

هذه الطائفة من الأبيات يؤيدها واقع التاريخ، والشاعر لا يتجاوز الحقيقة إلى الخيال، ومن ألحق قولنا إنه كان فى غنية عن أن يجنح إلى الخيال لأن ما ذكره يقع فى النفس موقعه ولا حاجة فيه إلى تحسين وتزيين وما أشبه بالجمال العاطل الذى لا تمس الحاجة فيه إلى حلى ولا زينة، إنه لم يسر على طريق أصحاب الملاحم الذين يصفون الأبطال بما هو عين المحال ويصرفون الحقيقة عن وجهها بكلام يركبون فيه الشطط مما يجعل كلامهم سائغا فى الذوق فى حين وغير سائغ فى أحايين ولا عجب فإنه يقف منا موقف الواعظ المذكر والقائل وقوله الصدق فكلامه لا يقبل الشك والمراء، وكان هذا غاية أمله، ويستوقفنا البيت الأخير من هذه الأبيات الذى يقول فيه:

من الله سخـط على من بغى	ويرضى على من رضاه ابتغى

ويمثل هذا من قوله بسوق حكمه إلا أنه فى الوقت ذاته يؤكد أن المجاهدين من المسلمين أيدهم الله بنصره لأنهم سعوا فى مرضاته وناطوا آمالهم بالشهادة لما وراء الشهادة من نعيم

مقيم، وهو كذلك يبين كيف كان سخط الله على المشركين وأنهم أخذوا بكفرهم وانهزموا بظلمهم.

وتحت عنوان (مشاهدة بدر) يصف المحاربين، ولكنه يصفهم لا بنجدتهم وبسالتهم بل بإيمانهم الذى كان عمدة السبب فى انتصارهم، إن هذا الشاعر شاعر فكرة يريد أن يبين عنها، ورغبة يريد تحقيقها فيهيئ لها السبب والوسيلة. إنه لا يميل إلى وصف الغزاة بالعنف بل يقول:

وفـى يـوم بـدر رأينـا الغـزاة كمن سارعوا قبل فوت الصلاة

هـو الحـق فى يـوم بدر غلب ومـا ثـقـة الـقـوم إلا بـرب

إنه يرسم لنا صورة واضحة المعالم للمجاهد فى سبيل الله يجليها فى كل ملامحها ويريد ليقيم قاطع البرهان على أن هؤلاء المجاهدين ليسوا كغيرهم من المحاربين، إنهم يستندون إلى إيمانهم قبل أن يستندوا إلى قوتهم وعتادهم.

ويمتد به القول ليعقد الموازنة بين غزوة بدر وغزوة أحد ويلفت المتلقى إلى ميزان الفرق بين هاتين الغزوتين:

ببـدر غـزاة أطـاعوا الرسـول وفـى أحـد حمستهم عقـول

نبى الهدى حاربوا الشرك قال مدينتـهم غـادروا للقتـال

وفى أحـد مشـهد مـا ظـهـر بـدت محـنـة غـيرة للبـشر

يريد ليقول إن المجاهدين فى بدر صدعوا بما أمر رسول الله ﷺ، فكان النصر حليفهم إلا أنهم فى أحد ذهلوا عن طاعته وزايلوا المدينة.

حسام لـه العمـد حقـد الصـدور عـدو مبـين لقلـب طـهور

أكانت عـقارب أو ذى سـيوف أكانـوا أفـاعى تبغـى الحـتوف

إنه يعرض بعض التشبيهات إلا أن تشبيهه ليس تشبيها إبداعيا، أى أنه يضع شيئا مقابل شىء، وله خيال يخرج به بعض الخروج على المألوف، فإذا ساغ فى الذوق تشبيه السيف بالأفعى فليس يسوغ تشبيهه بالعقرب، وإن أحسن فى جعل حقد الصدور عمدا للسيوف. ويأتى الشاعر بعد ذلك بالمستطرف المستظرف لأنه تحت عنوان (نساء قريش) فى الأردية يجرى كلاما على ألسنة نساء قريش وهو يتمثله جاريا على غير قرشيات وهو يعارض أبياتا

كانت هند بنت عتبة تنشدها على رجال قريش المحاربين لشحذ هممهم وإضرام الحمية فى صدورهم ودفعهم دفعا إلى القتال والنزال، إنه موفق فى هذه الأبيات وقد أضفى عليها لونا غير لون، ما أشبهها من كلام العربيات وضمنها خيالا يختلف اختلافا بينا عن الخيال العربى.

ألا إننـا الـبرق فـى نـوره	وفـى الليـل نـار بديجـوره
ومـا نحـن إلا بنـات الضيـاء	ومن غيرنـا فـى ظـلام أضـاء
نسير علـى بسـط مـن حريـر	كـأن الطيـور الهوينـى تسـير
لنـا طـرر يـا لهـا مـن عبـير	تصاعد من قلب زهـر نضـير
ألا إننا الـبرق فـى نـوره	وفـى الليل نـار بـديجـوره

إنه يريد لهؤلاء النساء أن يثرن حماسة المحاربين ويأمرنهم بما ينبغى أن يكون منهم ويجدر بهم فى حومة القتال، وينطقهن بكلام يحرك كوامن نفوس الرجال:

وإن كان فيكم شـجاع هـمام	أتـانـا بشـلـو لهـم أو بـسـهام

على غير رغبة منه عليه الصلاة والسلام، كما أنه أمرهم بعدم الهبوط من الجبل، إلا أن الطمع فى الغنائم استبد بهم ففترت هممهم عن الائتمار بأمر النبى ﷺ .

والشاعر بذلك يخرج من ذلك إلى قول حكيم فيه تبيان لوجوب الطاعة لأن مقابل الطاعة فيه الخسار وهكذا يلتفت الشاعر بين الفينة والفينة إلى حكمة يسوقها ونصيحة يبذلها آخذا العبرة من تاريخ المغازى.

ثم يتحدث عن أبى سفيان فيصف ملامح شخصيته وخصوصية نفسيته ويبين ويعرض لموقفه من الرسول ﷺ . وكلامه مطرد معناه فى ظاهر لفظه يحرك الأحداث فى سرعة وكأنما يطلعنا على صحيفة فى كتاب تاريخ لا يهتم بتحسين العبارة وإن كان كلامه من السهل الممتنع ثم يختم كلامه بقول :

وقام ابن حرب لثأر يريد	ليوم ببدر فنادى اليهود
هـداه الإلـه إلى ديـنه	أخيرا وأسلم فى حينه

فلو كان الشاعر قال ما قال على مكث وتأن لكان أحسن، ولو أضاف إلى هذه الأحداث السريعة نفحة من شاعريته لكان يستحسن، إن أبا سفيان اهتدى بعدما كان من

قبائحه ونقائصه وبشاعاته وشناعاته، فيا ليت الشاعر وقف وقفة أمام انتقاله من نقيض إلى نقيض، واستلهم شاعريته فى التعبير عما وقع.

ثم تداعت أفكاره لذكر هند على أنها زوجة أبى سفيان، إنه أحسن عرض صورة لها لأنه جردها من أنوثتها وجعلها امرأة شريرة صخابة متسلطة على الرجال تسلبهم إرادتهم فى تصلب وعناد، وهى فى عنفها تزرى بمن يواجهها بالغا ما بلغ من الرجولة. ولقد فطرت على الرغبة فى البطش وعمل السوء. لقد أصاب صفتها إلا أنه لم يحدثنا عنها حديثا وددنا أن نسمعه منه وهو شرح الكيفية التى أقدمت بها على استلال كبد حمزة من صدره وجعلها فى فمها تلوكها فى وحشية الضوارى.

إن جالدرى ينساق مع الأحداث على أن ذلك حسبه وهذا ما يجعله معجلا عن أن يقف بينها وقفات ويوفيها حقها من إضفاء شىء من شاعريته عليها، وهو مع ذلك لا يراعى التسلسل فى سرد الأحداث لأنه يذكر حادثا ثم يعقب عليه بذكر حادث وقع قبله، فتحت عنوان قبيل غزوة أحد يبدو أكثر اهتماما بفن القول أى أنه يبدو شاعرا أكثر منه مؤرخا أو ناظما:

وجيش قريش أعد الصفوف ... وقواده فى انتباه وقوف

عتادا عظيما لكم فاجمعوا ... وذلك مغنمكم فلتعوا

فراش لكم حضنه تدخلون ... وفى أرضكم تلك يوم الركون

ومن الحق قولنا إن هذه الأبيات التى أجراها على لسان بنات قومه وعارض بها الأبيات التى قالتها هند تفضل الأبيات التى عارضها. لقد أحسن ولا ريب فى جعل هذه الأبيات ضمن ذكره للغزوات لأنه صرف السأم عن نفس المتلقى عنه خاصة أن ذكر هذه الغزوات على هذا النحو العاجل قد يبعث فى النفس الملل.

وقال عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه:

على وجه حير البرايا ابتسام ... وصمت وفى العين بغض الكلام

وفاز على بحب الرسول ... وفى نفسه قطرها من مثيل

وبارز طلحة وهو البطل ... أمنا رنه اللبث إما قتل

هذا ما قاله عن حب النبى ﷺ لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه وعن شجعته، ويا ليت الكلام امتد به فى هذا الصدد ولو قليلا لأن مجاله لا شك يتسع والقول فيه تفصيلا ما

ينبغي أن يكون، لذلك نرى من الخير أن نورد أبياتا من الشعر العربي العامي نجعلها مقابل ما قال ليبدو الفرق واضحا بين شاعر الأوردية هذا والشاعر العراقي الذى قال:

ففي هذا الشعر العامي يكمل ما قد يبدو نقصا في شعر جالندري ويرشد إلى أن عليا كرم الله وجهه الأجدر بما يعين رفعة مكانته في نفس الرسول ﷺ ويبين أنه في شجاعته منعدم الند.

حبك يا حيدر	فرض من بارى الكون
بمحكم الآية	ونص الرواية

يا على كل اليحبك حبه البارى ونبيه

لا فتى بالكون مثلك	يا على ولا سيف مثله
وسيفك الارده الوليد	وحنظلة وشيبه وعتبه
يوم بدر وعظم باسك	يا على العالم وعت به
وبأحد سيفك لميعه	جالبرق تلتهب ناره
وأنت يكرار بذات	الفقار تجاهد الكفار[1]

ونتجاوز عنوانا هو وحشي؛ لأن ما يندرج تحته من كلام لا غبار عليه، إلا أنه لا يمدنا بجديد ولا مزيد لأن الشاعر إنما ذكر الحقائق لا يزيد عليها ولا ينقص منها. ويعود إلى ذكر بدر وأهم ما يشير إليه هو أن النبي ﷺ تجاوز عن أسرى المشركين وشملهم برحمته، وبذلك قدم الأسوة والقدوة لمن أرادوا أن يدركوا ما للرسول ﷺ من خلق عظيم وما عرضه على الملأ من مثل الإسلام وقيمه.

وجميل منه في وصف ليلة أحد أن يقابل بين شأن المؤمنين وشأن المشركين، أنه لا يبالى بنصاعة الديباجة إلا أنه يعرض واقع الأمر عاريا عن زينة اللفظ، ولا يقول إلا حقا يستنقيم في الفهم مما يبلغه غايته وهي تعميق الأثر في النفوس.

هم المسلمون وإيمانهم	ولكن قريش وشيطانهم
هنا متقون وهم ساجدون	هنا لك خمر لهم واجدون
هنا س يصلي طوال الدجى	هنا لك من كأسه المرتجى

(١) عبد الكريم الكربلائي، المنظومات الحسينية ٣٧، ٣٨ (النجف الأشرف)

يـؤم الأنـــام نبـــى كريـــم	وشيطان قـوم مضـل رجيـم
إلـه لهم هـا هـنا يعـــبدون	هـنالك أصنام قـوم مـــؤن

ولما كانت بضدها تتميز الأشياء وفق الشاعر بلا ريب فى الإبانة عما يريد له تبيانا وجاد بالحق ليعليه مقابل الباطل فأبرز للعيان واقع الحال.

وبعد أن يشير إلى معركة أحد إشارة لامحة، يحدثنا عن فزع المشركين من حمزة فوصف حمزة وهو يجندل أشجع الشجعان فى حربه، ويصفه دون تجاوز للحد فى إجراء الصفات عليه، ولا يجنح إلى المبالغة مما يجعل كلامه حقا تسكن إليه النفس.

ونتجاوز أبياتا لنبلغ عنوانا هو (رأى سلمان الفارسى) وبعده عنوان (حفر الخندق)، وبعده عنوان آخر هو (حبيب الله مشاركا فى حفر الخندق) وفى ذلك يقول:

وذلـك أيـن لأجـد الســبيل	لدى المصطفى ما له من مثيل
بأمـر من الله ما قــد صـــع	ســما شأنه فى الورى وارتفع

إنه يعزو ما كان من النبى ﷺ إلى أمر من الله، وبذلك يحيط هذا الخندق بهالة من نور. ويذكر بالقوى الغيبية والمشيئة الإلهية. إلى أن يلتفت ثانية إلى قريش ويشدد عليها النكير لأنها تخبطت فى غياهب الضلالة فما اقتدرت على التمييز بين حق وباطل وخير وشر، ويؤكد أنها لو كانت اهتدت بهدى الدين الحنيف لكانت جبابرتها فى التراب.

وللظلم صرح هوى فى التراب.

وحسبنا هذا القدر من منظومة جلندرى .. مخافة أن يطول بنا الكلام ويضيق عنه المقام.

ولنلتفت بعد ذلك إلى شاعر آخر هو (جعفرى) وهو شاعر معاصر معايش له منظومة بعنوان: (تاريخ الإسلام) كأنما عارض بها منظومة جلندرى.

أما صاحب هذا الكتاب أو شاعر هذه المنظومة فهو سيد منير على جعفرى الذى ولد عام ١٩٣٧م، وهو ينحدر من أسرة جل أفرادها أهل علم وفضل. فكان لذلك أثره فى شخصيته وسلوكياته ومجرى حياته. يقول من ترجم له إنه من شعراء باكستان الفحول ناضج الفكر خصب الخيال، وكان فى بدايته الأولى حين أدركته حرفة الأدب ينظم الشعر الصوفى الذى يراجعه له أبوه الذى نعرف عنه أنه كان أهل تقوى وعبادة. وقد أفضى ذلك بجعفر إلى أن يطرق قضايا الفلسفة والأخلاق فى شعره.

هذا ما تأتى لنا أن نقع عليه من سيرته، ونتنقل إلى منظومته التى عنوانها (تاريخ الإسلام) والتى ضمنها ذكرا لمغازى الرسول ﷺ على أن هذه المغازى فى صميم تاريخ الإسلام والدعوة وسيرة ريوله عليه أفضل التحية وأتم السلام، وإن دل ذلك على شىء فإنه قاطع الدلالة على أن النظم فى هذه المغازى يقيم لها كيانا مرموقا فى الشعر الأوردى الحديث كما كان شأنها فى الشعر العربى والتركى والأوردى قديمه وحديثه. إن هو إلا يؤرخ، وبناء عليه لا يلقى بالا إلى التعبير عن الشاعرية بما يستلزمه من تأنق فى العبارة والتحليق فى الخيال كل محلق.

ها هو ذا يظهرنا على المنهج الذى سار عليه فى نظم منظومته حين يسلسل أحداث التاريخ متحدثا عن غزوة بدر:

بمكـــة قـــوم وقـــد أيقنـــوا	بشـــأن النبـــى وذا أعلنـــوا
لهم عزمهم بعد طول الفكر	على هـدم ديـن النبـى استقر
وبعـد اجتمـا ع لهـم قـرروا	وفى هدم دين الهدى فكـروا
وكـل كمـى حسـاما حمـل	إلى يـثرب للقتـال ارتحـل
ولمـا الرسـول تلقـى الخـبر	ببـال المجـاهد مـاذا خطـر؟!
وأهل الهدى بشروا بالجهـاد	والله أكـــبر فـــى كـــل واد

بمثل هذه الطائفة من الأبيات يمهد لتأريخ غزوة بدر وكلامه معناه فى ظاهر لفظه ولو أن مؤرخا شاء أن يمهد بكلام لهذه الغزوة لما كان كلامه أوضح من هذا لخلوه من كل تكلف وتعسف وتضمنه للحقيقة دون إضافة إليها أو نقص منها. والشاعر لا يفوته أن يكتم شعور المؤمن الموقن ويلتفت إلى أن الله نصر المسلمين بفضل المصطفى ﷺ ، وكان هذا النصر سند الإسلام الركين وأسسه الذى انبنت عليه أحكامه وتعاليمه فانتشرت فى جميع الآفاق.

إن الشاعر معبر عن هذا فى اعتزاز به فهو القائل:

عديـــد قليـــل قليـــل لنـــا	ونصـر الإلـه لنـا حسـبنا
إذا ديننا الحق هـذا انـهزم	فإسلامنا فى الوجود انعدم
دعـــاء النبى هـو المستجاب	بسـحق ومحق عداه أصاب

والشاعر ظاهر الميل إلى أن يورد حقائق التاريخ متعاقبة تنحدر من ماء واحد. وفى هذا يبدو أكثر حرصا وميلا من جالندرى. إنه يذكر الأعلام ويوردها فى كلامه نقلا عن كتب السيرة وكأنما هو ينظر فى كتاب من كتبها لينقل عنه، ولكن فى صياغة شعرية، ونتجاوز أبياتا لنجده يقف وقفة عند أسارى بدر وما كان من عفوه ﷺ عنهم تكرما، وانفرد بهذا من رأيه على حين أشار عمر بن الخطاب بقتلهم، وهنا نلمح الفارق بين اللين والعسف والنبى ﷺ وهو يعرض الأسوة ومن لا يهم يعرضها، وهو كذلك يشير إلى أبى بكر الصديق كان رأيه وسطا إلا أنه حبذ الفدية على أن تكون بالمال أو تعليم عشرة من أبناء المسلمين وبذلك يوقفنا على ثلاث شخصيات لم يتفقوا على كلمة وأتاح لنا أن نعلل ما كان لهذه الشخصيات من تخالف وتباين ويمدنا بالدقائق والجذافير التى نخرج بها من تاريخ الإسلام.

نبى الأنام يحب عمر	ولكن بقول العتيق أمر
فخلى سبيلا لهم من كرم	وقال ادفعوا فدية لا جرم
ألا إنها فدية من كرم	من العلم أنصاره ما حرم
بتعليمهم كل من قد نطق	من الأسر توا نجا وانعتق

ونقول ولو تظننا إن من نظر فى شعرهم من شعراء العربية والتركية والأوردية لم يلتفتوا إلى هذا الصنيع والتفت إليه جعفرى الذى عرفنا عنه اشتغاله بالفلسفة ومعالجته النظر فى قضايا الفكر والعلم، مما حمله على أن يذكر هذه المكرمة وينسبها إلى النبى ﷺ ، وهى تدل على كثير، لذلك جعلها مسك الختام لما ذكر عن غزوة بدر.

وإذا انتقل إلى غزوة أحد رتب الحقائق ترتيبا ملحوظا فهو يبدأ بما انتهى به أمر غزوة بدر ولا يجعل بينهما فجوة لأنه يؤرخ ويلتزم الدقة فى التأريخ فقد سرد كل ما وقع من أحداث فى تلك الغزوة على التفصيل إلا أنه لم يشر إلى ما أصاب النبى ﷺ فى هذه العزوة من بأس واكتفى بأن قال إن الجراح أثخنته، ويا ليته ألقى بالا إلى ذكر ذلك لتكتمل صورة هذه الغزوة التى أبرز ملامحها.

إنه فى غزوة الخندق يهتم الشاعر بذكر ما وقع من اليهود وربما أعجله هذا عن أن يوفى سلمان والخندق حقهما من ذكره لهما وهو بذلك يختلف عن جالندرى وأحمد محرم.

منتخبات مترجمة من ملحمة الإسلام لحفيظ الله جالندري(*)

فضل غزوة بدر

١- تواريخ بدر رويت أنا   صحائف تبر لهن سنا[١]

٢- عززنا بفضل جهاد لنا   أطعنا صبرنا ونلنا المنى

٣- وقرآننا منه نعم الدليل   فنصر ببدر عديم المثيل

٤- وفى سورة جاء هذا الخبر   ملائكة أنزلت كالمطر[٢]

٥- وما كان حول لأهل اليقين   ولكنهم بددوا المشركين[٣]

٦- مضت فئة ما لها من حسام   وغير الشهادة ما من مرام

٧- وما من عديد وما من عتاد   وإيمان قلب لها خير زاد

٨- وما رام عرشا وتاجا أحد   ولكنه قال ربى أحد

٩- وداد وحب لهم واتحاد   على حب طه أقاموا العماد

١٠- مضوا فى خطى لنبى الهدى   بطوفانهم لم يهابوا الردى

١١- وفى عيشهم بطريق الوفاء   ثبات كطود علا فى السماء

١٢- قليل على مستقيم الطريق   لهم كثرة، وقفة لا تطيق

١٣- ونصر من الله للمؤمنين   على شانئيهم من الأكثرين[٤]

١٤- من الله سخط على من بغى   ويرضى على من رضاه ابتغى

مشاهدة غزوة بدر

١٥- وفى يوم بدر رأينا الغزاة   كمن سارعوا قبل فوت الصلاة

١٦- وللقوم صبر وفيهم جلد   ولم يرهب الموت منهم أحد

(*) تعاون معى فى ترجمة هذه النصوص عن الأوردية الأستاذ يوسف عامر بجامعة الأزهر شكر الله له

(١) التبر: الذهب، السنا: الضوء والبريق

(٢) هى سورة الأنفال.

(٣) الحول: القوة

(٤) الشانئ: الكاره

١٧- عديد قليل ضئيل العتاد | وما دب يأس لنا فى الفؤاد
١٨- هو الحق فى يوم بدر غلب | وما ثقة القوم إلا بـرب
١٩- وإيمانهم كان نعم الجزاء | وجيش قريش مضى كالهباء
٢٠- ومعجزة ما نرى فى اتحاد | وباطل أعدائنا قد أباد
٢١- ذليل ببدر أراد العلاء | فداء له كل نجم فداء
٢٢- لأحيائنا بعد نصر ثواب | بجنات عدن لهم ألف باب
٢٣- أطاع الرسول وخيرا وجد | ورأى سديد عليه اعتمد

حكمة تمييز غزوتى بدر وأحد

٢٤- بعين من الله نور البصر | ففى أحد أرى ما الخبر
٢٥- وعين البصيرة منك افتحن | عجائب قوم أذلوا الزمن
٢٦- ببدر غزاة أطاعوا الرسول | وفى أحد حمستهم عقول
٢٧- نبى الهدى حاربوا الشرك قال | مدينتهم غادروا للقتال
٢٨- وفى أحد مشهد ما ظهر | ببدن محنة عبرة للبشر
٢٩- وإجماعهم عنده الأفضل | فسل حساما لمن يقتل
٣٠- من الهلك فى يوم بدر وقاء | وفى أحد للوفاء ابتلاء
٣١- وصيتهم أنهم يصبرون | تخون عهد فما يعرفون
٣٢- عن الجاه صدوا وعن فضل مال | لنصرة دين مضوا للقتال
٣٣- ولابد فى ذاك من قدوة | فسبعون ما اختار من صفوة
٣٤- نبى الهدى سيد المرسلين | أحوه يرحمهم أجمعين

أبو سفيان

٣٥- وهذا ابن حرب مغيظا يكيد | عدو بنى هاشم دا عنيد
٣٦- حفيد أمية وهو الحرد | ونور الهداية لم يرد[1]
٣٧- بنو هاشم ساءه أمرهم | وأحزن قلبا له خيرهم

---

(١) الحرد: العصبان.

٣٨- لقد عاب ما عاب من دينهم فقد رفع الدين من شأنهم

٣٩- من الله سخط عليه النزول نبى الهدى ما رآه الرسول

٤٠- ولو لم يكن منهم أحمد لقال رضيت وقد أحمد

٤١- وفى صدره حقده يندلع ومن شعره صوت حرب سمع!

٤٢- وكم هامة فكرها قد أمال أبو لهب رام خوض القتال

٤٣- وكان ابن حرب وسيع الثراء وللحرب قال النجاء النجاء[1]

٤٤- وكان ابن عتبة من قومه له القتل أزمع فى يومه

٤٥- وقام ابن حرب لثأر يريد ليوم ببدر فنادى اليهود

٤٦- هداه الإله إلى دينه أخيرا وأسلم فى حينه

هند

٤٧- أهند له زوجة يا ترى فما من صفات نساء ترى!

٤٨- لها أمل قط ما للرجل تقول فتجذب أو لم تقل

٤٩- أبوها ببدر يقود الجنود أخ وابنها يرفعان البنود[2]

٥٠- وهذين ها جمزة قد قتل ورأس أخيها على قصل[3]

٥١- على بقود وحمزة قاد جيوشا فقامت لأجل الجهاد

٥٢- لقد أفعمت قلبها بالحسد تموت لمحباها من كمد

٥٣- على بالها مر أمر عجب [أمن كبد] لى أكل وجب

قبيل غزوة بدر

٥٤- وجيش قريش أعد الصفوف وقواده فى انتباه وقوف

٥٥- وهذى الصفوف جدار الحديد سيوف رماح بدت من بعيد

---

(١) النجاء: السرعة

(٢) البنود: الأعلام

(٣) قصل: قطع.

٥٦- مــن الجــور غيــم أظـل الأنــام		من الحقـد أفعى نمـج السـمام[1]
٥٧- حسـام لـه الغمـد حقـد الصـدور		عــدو مبــين لقلــب طــهور
٥٨- على الرأس والصدر كان الحديد		على الخيل والصخر كان الجنود
٥٩- أكانت عـقارب أو ذى ســيوف		أكانوا أفــاعى تبغى الحـتوف[2]

حكاية نساء قريش فى أحد

٦٠- نســاء قريــش أطلــن الغنــاء		قرعــن دفوفــا تصــم السـماء
٦١- خرجــن تلويــن مثــل الصــلال		بلحـن حزبسن أثـرن الرجـال[3]
٦٢- وهـــند أمـــام النــساء أتــت		كـنار مـن الغـيم قــد أفلــتت

من يحارب من ؟

١- وجبــش أتــى مثقــلا بــالحديد		كسـيل رهيـب أتـى مـن بعيـد
٢- وكــل بثيــس[4] وكــل بطــل		يبيــت شــرا لخــير الرســل
٣- وأمـــر النبـــى لأمـــر عجـــب		لســان بكــئ[5] يزيــد اللــهب
٤- ولم يرهــب السـيف لا والنبــال		نــأهب فــى قــوة للــنزال
٥- قريـــش بأنفســـهم يفخـــرون		وأهـل التقـى أهلـهم يذكـرون
٦- مفــاســدهــم طــالمــا دبــروا		وأهـل الهـدى أرضـهم عـمروا

قصة نساء قريش فى الأردية

١- ألا إننـــا الــبرق فـــى نـــوره		وفــى الليــل نــار لديجــوره[6]
٢- ومـــا نحـــن إلا بنـــات الضيـــاء		ومـــن غيرنــا فــى ظــلام أضــاء

---

(١) السمام: جمع سم.

(٢) الحتوف: جمع حتف أى الموت والهلاك.

(٣) الصلال: جمع صل وهى أخبث الحيات.

(٤) نبس: شجاع.

(٥) بكئ: قليل الكلام.

(٦) الديجور الظلام

٣- نسير على بسط من حرير ... كأن الطيور الهويى تسير
٤- على الصدر رأس لنا إن أميل ... ففى عشقنا قلب صب عليل
٥- طلاسم نحن للون وريح[1] ... وفى نظرة نحن غيم بريح
٦- لنا طرر يا لها من عبير ... تصاعد من قلب زهر نضير
٧- ألا إننا البرق فى نوره ... وفى الليل نار لديجوره
٨- ونسكن نجما كمثل الملك ... من الجن نحن بهذا الفلك
٩- وإن كان فيكم شجاع همام ... أتانا بشلو[2] لهم أو بهام[3]
١٠- وما فى السماء لهم من حسان ... يقدمن منسهن كل التهانى
١١- عتادا عظيما لكم فاجمعوا ... وذلك مغنمكم فلتعوا
١٢- فراش لكم حضنه تدخلو ... ن فى أرضكم تلك بوم الوكون[4]
١٣- ونسكن نجما كمثل الملك ... من الجن نحن بهذا الفلك

جفاء وصفاء

١- وجيش الرسول قليل ضئيل ... وشمس الضحى منه خير البديل
٢- وسبع مئات عديد الغزاة ... عليهم يؤدون فرض الإله
٣- وأنصارهم بل من هاجروا ... وأوس وأخرى لكم بشروا[5]
٤- عداء لهم كان جد شديد ... لهم بعده الود ود أكيد
٥- وهذا أراد لذاك الفناء ... ومن بعد بالروح شاء الفداء
٦- فمن ذا الذى حالهم غيرا ... جنان[6] لهم واحد يا ترى
٧- رأى المشركون الوئام استتب ... ففى الصدر منهم سعير الغضب
٨- تأجج نار بذاك الجنان ... ووجه من الخبث مثل الدخان
٩- وهجرا[7] وفحشا لسان يقول ... وفى ذاك للأوس قول يطول

---

(١) لون وريح، لون ورائحة.

(٢) الشلو: العضو

(٣) الهام: جمع هامة أى الرأس.

(٤) الوكون: أوكار الطيور وذكر البوم هناك يقصدان ارضهم صارت خربة

(٥) بشروا: يريد أن يقول إن الأنصار والمهاجرين بشروا بالنصر

(٦) الجنان: القلب

(٧) الهجر: الكلام السيئ – القول القبيح

حنظلة بن أبي عامر رضى الله عنه

١- يقول لى الرب ما لى سواه   وفى أحد كان بين الغزاه

٢- أراد ليمحو هذا الفساد   ولكن لأمر النبى انقياد

٣- كما أنه خاب فى مطلبى   فما إن تحقق قتل الأبى

٤- هو الحتم هذا وكل وعاه   فمن ذاك يقتل يوما أباه

علي بن أبي طالب كرم الله وجه

١- علي وجه خير البرايا ابتسام   وصمت وفى العين بعض الكلام

٢- وطال انتظار بمن جاهدوا   فمن منهم يا ترى يسعدوا

٣- وفاز على بحب الرسول   وفى نفسه قط ما من مثيل

٤- وبارز طلحه وهو البطل   إنه الليث أمما قتل[1]

وحشى

١- وحمزة عم جبير قتل   وفى كل هذا شديد الدخل[2]

٢- ووحشى عبد قبيح السواد   خبيث وفيه عنيف العناد

٣- وفى الحرب كان قوى الصراع   وقتل[3] لكن بخبث الخداع

٤- وهند دعته بإغرائها   ومنته مال بإيمائها

٥- وقالت ستعتقه لا جرم   وتغرقه فى عميم النعم[4]

٦- لقد أسكرته بخمر الغباء   ليقتل حمزة وهو البراء

٧- لذا سر عبد عديم الوفاء   ففى أسر رق له الحال ساء

---

(١) أما: من أن المصدرية وما النافية، ويعرف على بن أبى طالب بـ (أسد الله)

(٢) الدخل: فساد القلب.

(٣) قتل: بالتشديد مبالغة فى قتل

(٤) لا جرم: حق أو لا شك

ثورة الانتقام ليوم بدر

١- قريش تقاسى أليم الحزن | أرادت لتضرم نار الفتن
٢- وشاءت لتهلك من أسلموا | وأصنامها طالما حطموا
٣- أولئك قتلى ببدر لهم | فللثأر قد جددوا عزمهم
٤- وأسراهم كلهم أطلقوا | وبالمال من أسرهم أعتقوا
٥- أسارى وكانوا من البائسين | تناسوا رضا رحمة العالمين
٦- وسبعون كانوا من الهالكين | فيا للمهانة من مسلمين
٧- دليل التعصب ذا والغباء | على العنف والبطش فيه اتكاء
٨- فنار تسعر فى صدرهم | دماء تدفق فى نحرهم
٩- وكسرتهم تلك لم تغتفر | بألم قلب لهم من حجر

ليلة أحد

١- لدى المسلمين طويل الجلد | وفى المشركين الجحيم اتقد
٢- هم المسلمون وإيمانهم | ولكن قريش وشيطانهم
٣- بساط لعرش مصلى النبى | خباء[1] ابن حرب مقر الدنى
٤- ضياء لبدر أضاء الجبين | وفى القلب ظلمة حقد دفين
٥- هنا متقون وهم ساجدون | هنالك خمر لهم واجدون
٦- هنا من يصلى طوال الدجى | هنالك من كأسه المرتجى
٧- بلال يؤذن قبل السجود | طبول تدق كقصف الرعود
٨- يؤم الأنام نبى كريم | وشيطان قوم مضل رجيم
٩- إله لهم ها هنا يعبدون | هنالك أصنام قوم مثون[2]
١٠- صلاة هنا أو صعود الدعاء | هنالك طبل ومحض الهراء
١١- هنا المؤمنون جميعا سواء | وفى الكفر جور لدى الأقوياء

---

(١) الخباء: الخيمة

(٢) مثون: مثات

١٢- ودين وتقوى لدى المسلمين   سلاح وبطش لدى المشركين
١٣- لهم عبرة بعد طول النظر   فغابت نجوم وغاب القمر

فجر أحد

١- تنفس صبح ودنيا أنار   فعن أحد زال ليل السرار[1]
٢- ولليل سحر وها قد بطل   وليل تولى ففجر أطل
٣- وريح ومنها شديد الهبوب   وكم بسمت لها من قطوب
٤- ودام على ذلك جو الجنان   ولكن تبدله الآن حان
٥- فللصبح وجه كئيب كئيب   عن الأرض شمس تريد المغيب
٦- وللصبح وجه وفيه التماع   حديث الشهادة دوى وذاع
٧- على أحد كان لو الدماء   لحرب ينوء بها الأقوياء
٨- وحوش وطير أتت لالتهام   ومكة جاءت لقتل الفئام[2]
٩- عدو أتى مسرعا في خطاه   عدو لدين حبيب الإله
١٠- دموع بعين النبي جرت   لآل بجوف الورود سرت

احتشاد لغزوة أحد

١- وفي أحد فئة تختلف   طباع لها قط لا تأتلف
٢- لهم ظاهر خادع سحره   لهم باطن كامن غيره
٣- بدوا للعيان على موقف   مآرب أخرى لهم تختفي
٤- فأعمالهم تلك أمر عجيب   ونياتهم تلك شيء غريب

---

(١) ليل السرار: الليل الذى لا قمر فيه.

(٢) يقول: إن الوحوش والطير جاءت لالتهام جثث القتلى.

الفئام: الجماعة من الناس والمراد بها جماعة المسلمين.

هلع المشركين من حمزة رضى الله عنه

١- ألا إن حمــزة ليــث الحســام — علــى رأســه ريشــه للنعــام[١]

٢- أمارتــه تلــك فــى حربــه — ولكــه الليــث فــى قلبــه

٣- وخــاف ابـن حـرب وأمنـا عـدم — علـى غـدر شـيبة هـا قـد نـدم

٤- وصـاح ابـن حـرب وقـال الحـذر — عـدوك قـاتل وكـن ذا بصـر[٢]

٥- لحمــزة سـيف يذيــق الحمــام — ومنــه نجــاتك كــل المــرام

٦- بئيــس شـديد عنيـف الـنزال — فكـن خلفـه عنـد بـدء القتـال

٧- تـقـدم حـمـزة فـى مـنة[٣] — فـجدل[٤] شـيبة مـن طـعنة

جيش الأحزاب

١- غــرور وجــهل مــن الجــاهلين — ومـن كـان فيـهم مـن العـاملين

٢- يــهود وفتنتــهم أوقــدوا — نــوازع شــر لهــم أيــدوا

٣- إخــاء بـبـدر لقــد شــاهدوا — ولكــن عــداء لهــم أكــدوا

٤- أولــو أمرهــم إنــهم مفســدون — إلى الشـر فـى نهجـهم قـاصدون

٥- بنــو يعــرب كلــهم حــاربوا — خبائثــهم فطــرة جربــوا

٦- فمـا الخير أو مستطير[٥] الشـرور؟ — يوسـوس شـيطانهم فـى الصـدور

٧- كما السيل شدوا[٦] على المسلمين — وأحزابـهم عـن عـداء تبـين[٧]

٨- وطـوفـان جـيش عظـيم غـمر — وما كـان للبـيد[٨] عـنه الخـبر

---

(١) كان حمزة يلبس عمامة عليها ريشة من ريش النعام.

(٢) أبو سفيان يخاطب أبا شيبة وينصحه بالتأني والحكمة في قتال حمزة

(٣) المنة: القوة

(٤) جدله: ألقاه على الأرض.

(٥) شر مستطير: منتشر.

(٦) شد: تقدم وهجم.

(٧) تبين: تعلن وتعبر.

(٨) البيد: جمع بيداء وهى الصحراء

رأى سلمان الفارسى

١- وسلمان ذو الود ود أكيد	له الرأى أبداه وهو السديد
٢- وجيش لدى المؤمنين لجب[1]	ومنهم حفاظا عليه يجب
٣- ضياع مع المشركين القتال	وللمؤمنين هلاكك النزال
٤- حمايتنا خندق ما أرى	لبحضر توا بجوف الثرى
٥- سنفلح إن تم تدبيرنا	على من نعادى به نصرنا

حفر الخندق

١- لسلمان رأى رآه النبى	وقال بخ حبذا مطلبى
٢- وفى التو خندقه قد حفر	جميع الصحاب بحفر أمر
٣- كتائب كانت بجيش لهم	رسول الهدى مصلح حالهم
٤- وتم بذا خندق للرسول	بأيدى كرام سريعا تجول
٥- وكل من الأرض جزء حفر	مطيعا فإن النبى أمر

حبيب الله مشاركا فى حفر الخندق

١- ونور بأرض بدا للعيون	وكان النبى بين من يحفرون
٢- وذلك أين[2] لأجل السبيل[3]	لدى المصطفى ما له من مثيل
٣- بأمر من الله ما قد صنع	سما شأنه فى الورى وارتفع

مخاوف قريش

١- وما فرق القوم بين الصنم	وبين الإله فمنذا علم
٢- وبالدين لو كان نور اهتداء	وراموا عدالتهم والإخاء
٣- لكان جبابرة فى التراب	وللظلم صرح هوى فى الخراب

---

(١) جيش لجب: كثير ذو جلبة.

(٢) الأين: التعب

(٣) من أجل السبيل: أى فى سبيل الله كل ما يريد ليقول إن هذا أعظم وأفضل ما يكون عند النبى ﷺ.

مختارات مترجمة من منظومة تاريخ الإسلام لمنير على جعفرى(*)

١-	بمكة قوم وقد أيقنوا	بشأن النبى وذا أعلنوا
٢-	لهم عزمهم بعد طول الفكر	على هدم دين النبى استقر
٣-	وبعد اجتماع لهم قرروا	وفى هدم دين الهدى فكروا
٤-	وكمل كمى[1] حساما حمل	إلى يثرب للقتال ارتحل
٥-	ولما الرسول تلقى الخبر	ببال المجاهد ماذا خطر؟
٦-	وأهل الهدى بشروا بالجهاد	والله أكبر فى كل واد
٧-	لواء علا للنبى انعقد	مضوا للوغى فى ضئيل العدد
٨-	وبدر إليها وصول الرسول	وفى الجانبين قتال يطول
٩-	مئات ثلاث من المسلمين	ولكن ألوف من المشركين
١٠-	وقوم حماستهم أوقدوا	وقوم بكفر لهم أخمدوا
١١-	لرب البرية ها من سجد	وذا كافر صنما قد عبد
١٢-	هنا نحن عند النبى الكريم	وما فى الورى مثله من عظيم[2]
١٣-	على أتى بالحسام يصول	من الرعب جيش العدو كالفلول[3]
١٤-	وحمزة أبدى ثبات البطل	فقال العدو إذن ما العمل؟
١٥-	دعاء الرسول بنصر مبين	لمن ناشبوا الحرب من مسلمين
١٦-	عديد قليل قليل لنا	ونصر الإله لنا حسبنا
١٧-	إذا ديننا الحق هذا انهزم	فإسلامنا فى الوجود انعدم
١٨-	دعاء النبى هو المستجاب	بسحق ومحق عداه أصاب
١٩-	كفور برعب له يرتعش	وآخر من هوله لم يعش

(*) تعاون معى فى ترجمة هذه النصوص عن الأوردية الدكتور جلال حفناوى بجامعة القاهرة شكر الله له

(١) الكمى، الشجاع وحامل السلاح.

(٢) الورى: الناس

(٣) الفلول: المهزومون

٢٠- ومات كثير من المشركين وأودى الردى بالجهول اللعين[١]

٢١- وشيبة وعتبة بل والوليد سواء جميعا وكل فقيد

٢٢- وسبعون للنار من كافرين وعشر إلى الخلد من مسلمين

٢٣- ببدر من الله كان انتصار لتاريخها حبذا من منار

٢٤- وللحق كان عظيم الغلاب وقائل فيها جميع الصحاب

٢٥- وعثمان للحرب لم يذهب وما ذاك إلا بأمر النبي

٢٦- له في المدينة كان البقاء يداوي رقية من بأس داء

٢٧- رقية زوجة هذا الهمام وبنت النبي ثني المقام

٢٨- إلى يثرب كان عود الرسول أساراه قد أثقلتهم كبول[٢]

٢٩- فقال النبي ألا فاحكموا عليهم بحكم ولا تظلموا

٣٠- فقال العتيق ومن قد عقل فقتل الأسارى من المحتمل

٣١- أولئك قوم من الكافرين من الخير صفح عن المذنبين

٣٢- وأدلى برأي سديد عمر فخالف من قبله في الفكر

٣٣- فقال ألا أيهذا الرسول وفي الأنبياء عديم المثيل

٣٤- وقال أساراك ضلوا السبيل لدين لهم ما أرادوا بديل

٣٥- شديد العقاب فأنزل بهم لماذا التردد في قتلهم

٣٦- نبي الأنام يحب عمر ولكن بقول العتيق[٣] أمر

٣٧- فخلى سبيلا لهم من كرم وقال ادفعوا فدية لا جرم[٤]

٣٨- ألا إنها فدية من كرم من العلم أنصاره ما حرم[٥]

٣٩- بتعليمهم كل من قد نطق من الأسر توا نجا وانعتق

٤٠- حميد سجايا الرسول الكريم عميق لآثارها في الصميم

٤١- وبعض أساراه قد أمنوا أبو العاص منهم له مذعن[٦]

---

(١) الجهول: هو هنا أبو جهل.

(٢) كبول. جمع كبل وهو القيد.

(٣) العتيق: هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

(٤) جرم: لابد.

(٥) الإشارة هنا إلى أنه اشترط على الأسرى أن يدفعوا قدرا من المال ومن لم يستطع علم عشرة من المسلمين

(٦) أبو العاص هو ختن النبي صلى الله عليه وسلم، ولقد استأذن الرسول أصحابه في إطلاقه شريطة أن يخلي سبيل ابنته زينب، فخلاها، فهاجرت.

غزوة أحد

١- وكان ابن حرب من المشركين   ومكة وافى مع الخاسرين
٢- عن الحال إياه كل سأل   وفى عمق حزنه لم يزل
٣- أفاق ورد على قولهم   بأن الهزيمة حلت بهم
٤- أدار حديثا عن المسلمين   وفى حربهم قال أسد العرين
٥- لإيمانهم لم يخافوا الحمام   فداء لهم روحهم للحسام
٦- وضحوا بأرواحهم للرسول   وما كان شك لهم فى العقول
٧- وأما الذى أسد الله كان   عن الحرب لم يثن قط العنان
٨- وكل بئيس أمام عمر   أمام العتيق كذا الخصم خبر[١]
٩- ولما بمكة شاع الخبر   لهيب حماستهم فاستعر
١٠- على حربهم وافقوا مجمعين   فكل بأسيافه يستعين
١١- عديد لهم فى جموع ألوف   مشاة وغير مشاة صفوف[٢]
١٢- ونحو المدينة جيش مضى   وكان هجوم كهول القضا
١٣- هم المسلمون وتفكيرهم   على دينه وحده أمرهم
١٤- فقيل ألا فاذكروا ربكم   فليس سواه لعمرى لكم
١٥- هلموا إلى حومة للقتال   وشقوا صفوفا لأهل الضلال
١٦- فذوقوا عذوبة كأس الشهيد   بوارا أذيقوا الكفور العنيد[٣]
١٧- سريعا أعدوا عتاد الحروب   من الرمح والسيف قبل الركوب
١٨- وذا أحدا مسلم ما يريد   وأما المنافق فهو القعيد[٤]
١٩- أقل من الألف لكنهم   عن الرعب قد نزهوا قلبهم
٢٠- يصامد هذا وذاك يغير   وأما العدو فجيش كثير[٥]
٢١- تقدم طلحة فى المسلمين   فمنذا يواجه أسد العرين

---

(١) البئيس الشجاع

العتيق: أبو بكر.

(٢) العديد. العدد.

(٣) بوارا: هلاكا.

(٤) المراد بأحد هنا جبل أحد، وما هنا للصلة

(٥) صامد جالد.

٢٢- وشيبة تاه برفع العلم ... فأرداه حمزة مثل النعم[1]

٢٣- لعثمان أقبل ذاك الشقيق ... سعيد، لسيرأس ذاك الفريق

٢٤- سعيد تجندل في الراية ... وذل اللواء عن الهاوية[2]

٢٥- يقول كفور لدى العلم ... ومسلمهم قال لا ما اعتصم

٢٦- وقلب هلوع لمن قد كفر ... ومؤمنهم قال أبغى الظفر

٢٧- وذعر شديد بهم مستبد ... ومتنى ومثنى لهم جد جد

٢٨- على وحمزة شقا الصفوف ... فشدا عليهم كبرق مخوف[3]

٢٩- وكان دجانة بين الصحاب ... ومن سيد الخلق سيفا أصاب[4]

٣٠- وعتبة كان مع الكافرين ... شجاع ولكن من الماكرين

٣١- أتى الآن لكن أطال المقام ... أبوه قتيل أتى لانتقام

٣٢- لذاك بوحشى أتى مسرعا ... له القلب من بهجة أترعا[5]

٣٣- أشار إليه فرمحا حمل ... وبالرمح حمزة توا قتل

٣٤- إلى صفوة الخلق جاء الخبر ... فهم وغم عليه انهمر

٣٥- وعن حمزة قيل ولى الشهيد ... فبالجيش أرض كموج تميد[6]

٣٦- قوى من العزم للمؤمنين ... أغاروا كسيل على المشركين

٣٧- ولما رأى المسلمون الظفر ... قوى من العزم منهم فتر

٣٨- وفى مغنم منهم من طمع ... ونصح النبى له ما سمع

٣٩- كثير الغنائم كل جمع ... ولكن أمرا عجيبا وقع

٤٠- لقد قادهم خالد مرة ... وفى الحرب كم كان ذا[7] مرة

٤١- بليل لهم شغلهم والنهار ... أتى خالد حول طود ودار[8]

---

(١) النعم البهيمة الراعية.

(٢) تجندل. سقط على الأرض، وذل عن الهاوية أى سقط اللواء عن ارتفاعه فى الجو.

(٣) شدا: هجم.

(٤) أحمد: هو النبى صلى الله عليه وسلم. أصاب: نال وأخذ.

(٥) أترعا. ملأ

(٦) تميد: تهتز وتضطرب

(٧) المرة: بكسر الميم قوة القلب

(٨) الطود: الجبل العظيم

٤٢- لـه السيف عـن مسـلم لا يميـل فكم من جريح وكم من قتيل

٤٣- رسـول الهـدى أثخنتـه الجـراح فيا سوء مرة كان غير المباح

٤٤- وقيـل نبـي وأضحـى الشـهيد ومن قال هـذا مـرارا يعيـد

٤٥- بذلـك أهـل الهـدى أخـبروا فكانوا كنار وقـد سـعروا

٤٦- وكان الرسـول المعافي السـليم حماه من البأس حشـد عظيـم

٤٧- لـرب حمـاه الرسـول سـجد فما غيره حافظـا قـد وجـد

٤٨- عـدو مبين مضـى عـن أحـد فعابد رب الورى كم حمد[1]

٤٩- ومن مـات فى القـبر قد أودعوا إلى يـثرب عـودة أزمـعـوا

٣ ـ غزوة الخندق

١- يـهود، ويـثرب قـد غـادروا وطـابت مقـام لهـم خيـبر

٢- فـراق لهـا حـز فـي قلبـهم وعـود لها الكشـف عـن كربـهم

٣- وفـي خيـبر دبـروا أمرهـم ومـا إن كفـوا أهلـها مكرهـم

٤- أثـاروا وداسـوا علـى المسـلمين ورغبتـهم أظـهروا معلنـين

٥- وقـالوا لقـد شـاع ديـن وعـم عـدو مبـين لديـن الصنـم

٦- جميـع القبـائل هـم ألبـوا علـى المسلمين وكـم أغضبـوا

٧- بمكـة كـان اجتمـاع لهـم وللحـرب كـم رددوا قولهـم

٨- ومـن أهـل مكـة بـل واليـهود تعـاون مـن كـل شـر يريـد

٩- وعن غزوة الخندق القول طـال إليها ابن حرب به الشوق طـال

١٠- ألـوف لـه يطلبـون القتـال فسـر وأيقـن حسـن المـآل

١١- يـهود وغـير يـهود كثـير إلى يـثرب هيئـوا للمسـير

١٢- نبـي الهـدى أخـبروه الخـبر وقـالوا لـه الجيش هـا قـد عـبر

١٣- فشـاور مـن صحبـه مـن جمـع وأدرك مـن قولهـم مـا وقـع

١٤- وفـي التـو سـلمان هـذا نـهض مـن الفـرس كـان لـذاك التفـض

١٥- نبـي الهـدى شـاء أن يـأمر لـه خندقـا رام أن يحفـر

---

(١) رب الورى: رب الناس

١٦-	عجيبـــا رآه العـــدا كلـــهم	تغـــير مـــن خنـــدق حـــالهم
١٧-	إلى يـثرب مـا اسـتطاعوا الدخـول	فعنـــها بعيـــدا وقـــوف يطـــول
١٨-	علـى حفـره الفـرس قـد دربـوا	وفـــى يـــثرب حفـــره جربـــوا
١٩-	وأثنـــى النبـــى علـــى فكـــره	فـــأقبل كـــل علـــى حفـــره
٢٠-	وسـاق ابـن حـرب لـه عسـكرا	ولم يـدر فـى حـيرة مـا يـرى
٢١-	وبـين اليـهود ومـن كفـروا	خـلاف شـديد بـه حـبروا
٢٢-	وشـت لهـم أمرهـم وانفصـال	وكفـت قريـش لهـا عـن قتـال[1]

(١) أمر شت: متفرق

مراجع البحث

المراجع الشرقية

في العربية:

- إبراهيم خليل إبراهيم: المعجزات المحمدية (القاهرة سنة ١٩٧٤م).
- ابن الأثير: الكامل (بيروت سنة ١٩٨٧م).
- ابن رشيق: العمدة (القاهرة ١٩٢٥م).
- ابن سعد: الطبقات الكبرى (القاهرة).
- ابن سلام: طبقات فحول الشعراء (القاهرة).
- ابن طباطبا: الفخرى (القاهرة ١٩٢٧م).
- ابن قيم الجوزية: زاد المعاد فى هدى خير العباد (الكويت سنة ١٩٨٥م).
- ابن منظور: لسان العرب (بيروت).
- ابن هشام: سيرة ابن هشام (القاهرة سنة ١٩٣٦م).
- ابن واصل الحموى: تجريد الأغانى (القاهرة ١٩٥٥م).
- أبو النصر مبشر الطرازى: النبذة فى السيرة النبوية (الإسكندرية).
- أبو زيد القرشى: جمهرة أشعار العرب (القاهرة سنة ١٩٢٦م).
- أحمد إبراهيم شريف: الدولة الأولى (القاهرة سنة ١٩٦٥م).
- أحمد شوقى: الشوقيات (القاهرة).
- أحمد محرم: ديوان مجد الإسلام (القاهرة ١٩٦٣م).
- الألوسى: بلوغ الأرب (القاهرة سنة ١٩٢٤م).
- البوصيرى (الإمام): مقدمة ديوان البارودى (القاهرة).
- البيضاوى: تفسير البيضاوى (القاهرة سنة ١٣٠٥هـ).
- التهانوى: كشف اصطلاحات الفنون (بيروت).
- جرجى زيدان: تاريخ التمدن الإسلامى (القاهرة ١٩٦٨م).
- الحبيب شيبوب: الجانب الشعرى عند محرز بن خلف (تونس سنة ١٩٩٤م).

- د. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى (القاهرة سنة ١٩٥٧م).
- د. حسين مجيب المصرى: مقدمة كتاب الأدب الإسلامى فى شبه القارة الهندية (لبيلى) (القاهرة سنة ١٩٨٨م).
- د. حسين مؤنس: دراسات فى السيرة النبوية (القاهرة سنة ١٩٨٤م).
- د. حمزة النشرتى: الجهاد فى الإسلام (القاهرة سنة ١٩٨٣م).
- د. حمزة النشرتى: بطولات إسلامية فى أحد (القاهرة سنة ١٩٨٣م).
- الخازن: لباب التأويل (القاهرة سنة ١٣٢٨هـ).
- خالد محمد خالد: رجال حول الرسول (القاهرة سنة ١٩٦٧م).
- د. زكى المحاسنى: الأدب الدينى (القاهرة سنة ١٩٧٠م).
- د. زكى مبارك: المدائح النبوية (القاهرة سنة ١٩٣٥م).
- د. سعد الدين الجيزاوى: الملحمة فى الشعر العربى (القاهرة ١٩٦٧م).
- د. سمير عبد الحميد: الأدب الأوردى الإسلامى (الرياض).
- د. سمية حسن إبراهيم: بعض السيوف الأثرية بمتحف قصر عابدين (القاهرة سنة ١٩٩٠م).
- السهيلى: الروض الأنف (القاهرة سنة ١٩٦٧م).
- سيد قطب: فى ظلال القرآن (القاهرة سنة ١٩٩٠م).
- شهاب الدين التلمسانى: أزهار الرياض (الرباط سنة ١٩٨٠م).
- صفى الرحمن المباركفورى: الرحيق المختوم (القاهرة سنة ١٩٨٨م).
- طاشكبرى زاده: الشقائق النعمانية على هامش وفيات الأعيان لابن خلكان (القاهرة سنة ١٢٩٩هـ).
- عبد الله سليمان الأشقر: زبدة التفسير (كويت).
- عبد الله عفيفى: المرأة العربية (القاهرة سنة ١٩٢٢م).
- عبد الجواد سليمان: شاعر الرسول حسان بن ثابت (القاهرة).
- عبد الحليم محمود: الجهاد والنصر (القاهرة سنة ١٩٧٤م).
- د. عبد الرزاق بركات: أربعون ساعة مع الحضر (القاهرة سنة ١٩٩٢م).

- د. عبد السلام فهمى: القزلباشى (القاهرة سنة ١٩٩٢م).
- د. عبد الشافى غنيم: التاريخ الإسلامى (القاهرة سنة ١٩٨٥م).
- د. عبد العزيز غنيم: محمد ﷺ بين الحرب والسلام (القاهرة سنة ١٩٨٩م).
- عبد الكريم الكربلائي: المنظومات الحسينية (النجف الأشرف).
- د. عبد النعيم حسنين: سلاجقة العراق وإيران (القاهرة سنة ١٩٧٠م).
- د. عزة الصاوى: الاتجاه الإسلامى فى أدب نجيب فاضل رسالة دكتوراه قدمت إلى جامعة عين شمس عام ١٩٨٣م.
- العقاد: عبقرية الإمام (القاهرة سنة ١٩٨٧م).
- د. على الخربوطلى: الرسول فى رمضان (القاهرة سنة ١٩٦٨م).
- القرطبى: تفسير القرطبى (القاهرة).
- القشيرى: الرسالة القشيرية (بيروت سنة ١٩٩٠م).
- لويس شيخو: أنيس الجلساء فى شرح ديوان الخنساء (بيروت سنة ١٨٩٦م).
- المحب الطبرى: الرياض النضرة (القاهرة).
- د. محمد إبراهيم الجيوشى: شاعر العروبة والإسلام (القاهرة سنة ١٩٦١م).
- محمد أبو زهرة: خاتم النبيين (القاهرة سنة ١٩٧٩م).
- محمد إسماعيل: الجهاد فى الإسلام (القاهرة سنة ١٩٦٤م).
- محمد بن عبد الوهاب: مختصر زاد المعاد (القاهرة سنة ١٩٨٧م).
- د. محمد حسين هيكل: حياة محمد (القاهرة سنة ١٣٥٤هـ).
- محمد رضا: محمد رسول الله (القاهرة سنة ١٩٦٦م).
- د. محمد صبرى: أدب وتاريخ واجتماع (القاهرة سنة ١٩٥٠م).
- د. محمد عبد المعم خفاجى: السيرة النبوية الخالدة (القاهرة).
- محمد الغزالى: فقه السيرة (القاهرة سنة ١٩٨٧م).
- محمود سامى البارودى باشا: كشف الغمة فى مدح سيد الأمة (الكويت سنة ١٩٩٢م).

- المرزباني: الموشح (القاهرة سنة ١٣٤٧هـ).
- مسلم (الإمام): صحيح مسلم (القاهرة سنة ١٩٨٧م).
- مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن (القاهرة سنة ١٩٢٨م).
- مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب (القاهرة سنة ١٩٥٤م).
- المقدسي: البدء والتاريخ (باريز ١٩٠٧م).
- المقريزي: إمتاع الأسماع (القاهرة سنة ١٩٤١م).
- المنصوري (الإمام): ديوان محمود سامي باشا البارودي (القاهرة).
- النسفي: تفسير القرآن الجليل (القاهرة سنة ١٩٣٦م).
- نظر على حائري: الغرة البيضاء في فضائل سيد الأوصياء (النجف الأشرف سنة ١٣٢٩هـ).
- د. نفوسة زكريا سعيد: البارودي حياته وشعره (الإسكندرية سنة ١٩٩٢م).
- نور الدين الحلبي: السيرة الحلبية (القاهرة سنة ١٣٣٩هـ).
- الواقدي: كتاب المغازي (أكسفورد سنة ١٩٦٦م).

في الفارسية:

- إقبال: جاويد نامه (لاهور سنة ١٩٤٨م).
- حسن عميد: فرهنگ عميد (تهران).
- حسين واعظ كاشفي: روضة شهدا (لكهنو سنة ١٣٠٣هـ).
- حسين واعظ كاشفي: روضة شهدا (لكهنو ١٣٠٣هـ).
- خواند أمير: حبيب السير (تهران ١٣٣٥هـ).
- دهخدا: ألفت نامه (تهران ١٣٥٣هـ).
- رضا زاده شفق: تاريخ أدبيات إيران (تهران ١٣٢١هـ).
- زهراى حائلري: فرهنگ أدبيات فارسي دري (تهران د.ت).

- د. سجادى: فرهنگ اصطلاحى عرفانى (تهران ١٣٥٤هـ).
- محمد على خليلى: زندكانى محمد پيغمبر إسلام (تهران ١٣٣٧).
- مير خواند: روضة الصفا (تهران ١٣٢٨هـ).
- د. نصر الله فلسفى: زندكانى شاه عباس كبير (تهران د.ت).
- نظيرى نيشابورى: ديوان نظيرى نيشابورى (تهران د.ت).
- نيسارى: تاريخ أدبيات بكدار إسلام (تهران د.ت).
- وحشى يافقى: ديوان وحشى يافقى (تهران د.ت).

فى التركية:

- راشد: تواريخ انبيا (اسطنبول ١٢٨١هـ).
- شمس الدين سامى: قاموس الأعلام (اسطنبول ١٣١١هـ).
- كوبريلى زاده محمد فؤاد: وشهاب الدين سليمان، بكى عثمانلى تاريخ ادبياتى (اسطنبول ١٣٣٢هـ).
- كوبريلى زاده محمد فؤاد: تورك ادبياتى تاريخى (اسطنبول ١٩٢٦).
- لامعى: نفحات الأنس (اسطنبول ١٢٧٠هـ).
- يازيجى أوغلو محمديه (صورة من مخطوط بمكتبة السليمانية باسطنبول).
- Aly Oguzkan Mustafa Miyas oglunun Edebi eserlerininicnlenmesi yuksek Lisons tezi Istanbul 1988).
- Ali Baraloy'; Turk Halk Edebiati (Istanbul 1969).
- Develli oglu. Kilickin enyeni Buyuk Turkce Sozluk (Istanbul).
- Dursun Fakih Gazavat-i Rasulullah (Istanbul).
- Evliye Celebi: Seyahatname. Istanbul 1938.
- Elhan Gecer: Cumhuriyet doneminde Turk siiri (Istanbul).
- Hasan Akosy: Turk dili ve edebiyat, ansiklopidisi Istanbul 1977.

- Ihsan isik, yazarlar sozlugu Istanbul 1990.

- Ihsan sureya Sirma: Islami tebligin Medine Donemi ve cihad. (Istanbul 1986).

- Ismail mutlu: Sahabiler Ansiklopedisi (Istanbul 1989).

- Ismail Kara osman oglu Aylik Dergisi Istanbul 1982.

- Kaya: Islam Edebiyat alaninda buyuk bir isim, Islan Edebiyat Dergisi 1990.

- Kemal Karalioglu: Resimli turk Edebiycilar sozlugu Istanbul 1982.

- Mustafa Miyas oglu: Hicret Destani (Istanbul 1981).

- Nihad Sami Banarli: Resimlı Turk edebiyeti Tarihi (Istanbul 1971).

- Ogut: Eyyubsultan (Istanbul 1957).

- Yaza: Edebiyatcimiz ve Turk Edebiyati. (Istanbul 1938).

فى الأوردية:

١ – حفيظ الله جالندرى: شاهنامه إسلام (لاهور).

٢ – منير على جعفرى: إسلام كى تاريخ (لاهور).

المراجع الأوربية

فى الإنجليزية:

- Benjamin: parsia ant persians (London 1887).
- Ferozsons: Urdu English Dictionry (Lahor).
- Knowles: The experience of poetry (London).
- Levey: The social characture of Islam (cambridge 1957).
- Mac Abe: The splender of moorish spain (London 1935).
- Muhommed Sadiq: A history of Urdu litrature (London 1964).
- Monroe: Turkey and Turks (London M Dccvl).
- Red hause: A lexicon of Turkish and English (London 1990).
- Servier: Islam and the psychology of musulman (London 1924).
- Wilson Cash: The Expansion of Islam (London 1928).
- Wollaston: The sward of Islam (London 1905).

فى الفرنسية:

- Emile Dermonghem: LA vie de Mohamet (Paris 1929).
- Lammens: L'Islamic Croyancer et institutions (Bayrouth 1926).
- Loti: Aziyade (Paris).
- Masse: L' Ame de L'Iran (Paris 1951).

فى الألمانية:

- Ethe: Uber persislie Tenzonen (Berlin 1882).

فى الإيطالية:

- Baurani: Storia della letteratura dell Pakstan (Milono 19958).
- Pareja: Islamologia (Roma 1951).

فى الروسية:

- Braginsky: Antologio Tadjsskova poesii (Moskva 1956).

- Lepkin: Shakh Name (Moskva 1955).

فهرس الموضوعات